سلسلة
القصص القرآني

دكتور
حمزة النشرتي
عبد الحفيظ فرغلي د. عبد الحميد مصطفى د. محمد شعلان

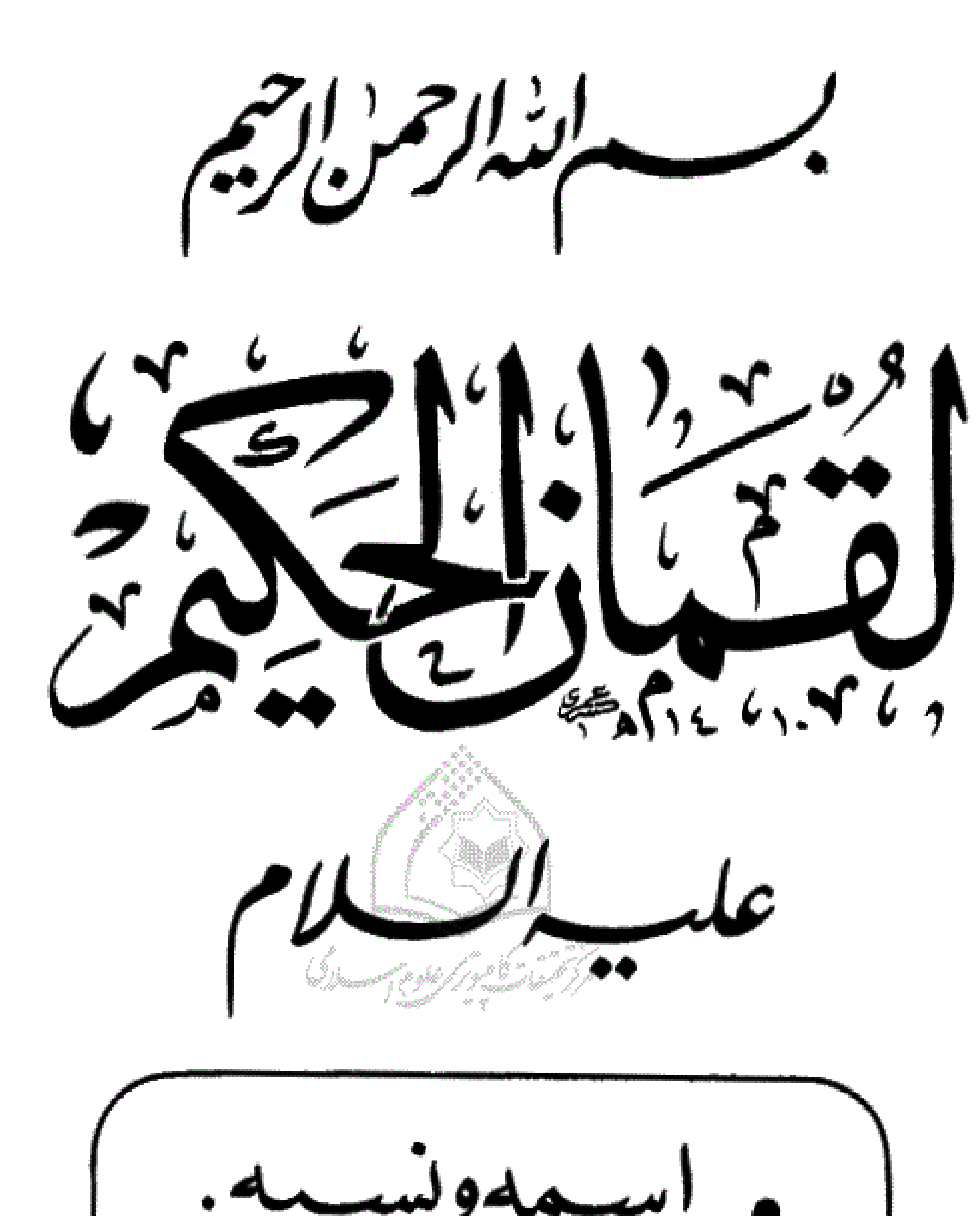
المجلد الخامس

المجلد الخامس



دكتور
حمزة النشرتي

عبد الحفيظ فرغلي د. عبد الحميد مصطفى



- اسمه ونسبه.
- لقمان في القرآن.
- سيرته..
- نماذج من حكمته.

لم يقصر الله - جلت حكمته - الحكمة أو النبوة أو الملك على جنس دون جنس ، أو شعب دون شعب ، أو قطر دون قطر ، كما يزعم بنو اسرائيل ، فقد ادعوا أن الله ميزهم على غيرهم من الشعوب والأجناس بالنبوة والكتاب وخصهم دون غيرهم بالحكمة والعقل ، وأنهم شعب الله المختار من بين الناس .

ولكن الله قد نقض دعواهم قبلهم وبعدهم . . فمن قبل اسرائيل كان نوح وهود وصالح وإبراهيم - عليهم السلام -

ومن ذرية اسماعيل كان النبي العربي الذى اصطفاه الله من بين خلقه وجعله خاتم رسله وأنبيائه ، وأرسله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً ، وجعل البشارة به على لسان كل رسول قبله ، وأخذ الميثاق على من تقدمه من الأنبياء أن يؤمنوا به ويوصوا أممهم بالإيمان به عند بعثته - صلى الله عليه وسلم -

ولم يقصر الله النبوة على قوم بأعيانهم أو على جنس بذاته أو على منطقة معينة . . فقد كان إدريس نبياً مصرياً كما سبق أن أشرنا الى ذلك فى قصته - عليه السلام -

وجعل مصر مهداً لرسالة بعض الأنبياء . فقد بعث فيها يوسف - عليه السلام - كما بعث فيها موسى وهارون - عليهما السلام -
واختار لقمان حكيماً - وقيل نبياً - وكان عبداً نوبياً أو حبشياً أو من سودان مصر فى بعض الأقوال . .

وأمر بنى اسرائيل أنفسهم بأن يتلقوا الحكمة على يديه ، بل ان نبيهم داود - عليه السلام - كان يتتلمذ عليه ويجلس إليه .

إن اختيار لقمان للحكمة يلجم كل من يدعى اقتصار النبوة والحكمة على جنس بعينه .

ويعطى المثل بأن الله ـ جلت حكمته ـ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً . .

اسمه ونسبه :

ذكر العلماء أقوالاً عدة فى نسب لقمان . .

فقيل هو : لقمان بن باعوراء، ابن اخت أيوب عليه السلام أو ابن خالته .[1]

وقيل : كان من أولاد آزر عاش ألف سنة وأدركه داود ـ عليه السلام ـ وأخذ عنه العلم ، وكان يفتى قبل مبعث داود فلما بعث قطع الفتوى ، فقيل له فى ذلك . فقال : « ألا أكتفى إذا كفيت ؟ »[2]

وقال ابن كثير : هو لقمان بن عنقاء بن سدود ، ويقال : لقمان بن تاران . . حكاه السهيلى عن ابن جرير والقتيبى[3]

وذكر المسعودى أنه لقمان بن عنقاء بن مريد بن صارون وكان نوبياً مولى للقين بن جسر وكان عبداً صالحاً ، فمّن الله عليه بالحكمة ولم يزل باقياً فى الأرض مظهراً للحكمة فى هذا العالم إلى أيام يونس بن متى ـ عليه السلام ـ حين أرسل إلى أرض نينوى من بلاد الموصل[4]

وذكر كتاب المنتخب من التفسير :

أن العرب عرفوا بهذا الاسم « لقمان » شخصين ـ أحدهما لقمان بن عاد ، وكانوا يعظمون قدره فى النباهة والرياسة والعلم والفصاحة والدهاء ، وكثيراً ما ذكروه وضربوا به الأمثال . .

---

(١) تفسير الكشاف حـ٣ ص ٤٩٢

(٢) القرطبى ، تفسير لقمان ص ٥١٤١

(٣) البداية والنهاية لإبن كثير حـ٢ ص ١٢٣

(٤) مروج الذهب للمسعودى حـ١ ص ٤١

أما الآخر فهو لقمان الحكيم الذى اشتهر بحكمه وأمثاله وسميت سورة فى القرآن الكريم باسمه ..

لقمان فى القرآن الكريم :

ذكر اسم لقمان مرتين فى القرآن الكريم فى آيتين متتاليتين هما :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (٥)

وقد سميت السورة باسمه . وفى هذا دلالة على الاهتمام بهذا الاسم وتنبيه على ما له من معان وعبر وعظات .

ولا يخفى على ذى فطنة ما تدل عليه وصايا لقمان لابنه من إرشادات طيبة تؤدى إلى سعادة الدنيا والآخرة ..

حكمة لقمان :

أما حكمة لقمان فلا شك فيها لأن القرآن الكريم قطع بها .. ولكن الاختلاف حول نبوته ـ وأكثر الأقوال على أنه كان حكيماً ولم يكن نبياً ، قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ

لم يكن لقمان نبياً ولا ملكاً ، ولكنه كان راعياً أسود فَمَنَّ الله عليه بالعتق ، ورضى قوله فقص أمره فى القرآن لتتمسكوا بوصيته ..

والذى أورد نبوته عكرمة والشعبى ، فهما اللذان قالا إنه نبى
وقيل : إنه خيرٌ بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة .

---

(٥) لقمان ١٢ ، ١٣

وروى القرطبى فى تفسيره خبراً فى ذلك قال :

عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « لم يكن لقمان نبياً ولكن عبداً كثير التفكر ، حسن اليقين ، أحب الله ـ تعالى ـ فأحبه ، فمنّ عليه بالحكمة ، وخيره فى أن يجعله خليفة يحكم بالحق ، فقال : يارب إن خيرتنى قبلت العافية وتركت البلاء ، وإن عزمت علىّ فسمعاً وطاعة فإنك ستعصمنى »[٦]

وزاد الثعلبى : فقالت له الملائكة بصوت لا يراهم : لم يا لقمان ؟

قال : لأن الحاكم بأشد المنازل وأكدرها ، يغشاه المظلوم من كل مكان يطلب أن يعينه فبالحرى[٧] أن ينجو ، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة ، ومن يكن فى الدنيا ذليلاً فذلك خير من أن يكون فيها شريفاً ، ومن يختر الدنيا على الآخرة نفته الدنيا ولا يصيب الآخرة .

فعجبت الملائكة من حسن منطقه .

فنام نومة فأعطى الحكمة فأصبح يتكلم بها .

ثم نودى داود بعدها بالخلافة فقبلها ، ولم يشترط ما اشترطه لقمان فوقع فى بعض الأخطاء وكل ذلك يعفو الله عنه .

وكان لقمان يؤازره بحكمته .

فقال له داود : طوبى لك يا لقمان ، أعطيت الحكمة وصرف عنك البلاء ، واعطى داود الخلافة ، وابتلى بالبلاء والفتنة .

وقال قتادة : خير الله ـ تعالى ـ لقمان بين النبوة والحكمة ، فاختار الحكمة على النبوة ، فأتاه جبريل وهو نائم فذر عليه الحكمة ، فأصبح وهو ينطق بها ، فقيل له : كيف اخترت الحكمة على النبوة وقد خيرك ربك ؟

---

(٦) تفسير القرطبى ، سورة لقمان ص ٥١٤١

(٧) بالحرىً أى فجدير أن ينجو

فقال : إنه لو أرسل إلىّ بالنبوة عزمة لرجوت فيها العون منه ، ولكنه خيرني فخفت أن أضعف عن النبوة ، فكانت الحكمة أحب إلىّ .[8]

جاء فى كتاب المنتخب من التفسير :

« والآراء مضطربة فى حقيقة لقمان الحكيم . فهو نوبى من أهل أُيلة أو حبشى أو أسود من سودان مصر ، أو عبرى ، وجمهور الذين ذكروه مجمعون على أنه لم يكن نبياً ، وقليل منهم ذهبوا إلى أنه نبى ، والذى نستطيع استنباطه مما ذكروه أنه لم يكن عربياً لأنهم متفقون على هذا ، وأنه كان رجلاً حكيماً ولم يكن نبياً ، وأنه أدخل على العرب حكمة جديدة تداولوها فيما بعد كما تبين من كثير من المراجع »[9]

صفة لقمان ومهنته :

وتناول العلماء أوصاف لقمان الحكيم فقالوا : كان عبداً أسود غليظ الشفتين متشقق القدمين وفى رواية : مصفح القدمين .

وعن ابن المسيب : كان أسود من سودان مصر ، وكان خياطاً

وقيل : كان نجاراً ، وقيل : كان راعياً ، وكان يحتطب لمولاه كل يوم حزمة .

وقال ابن إياس : كان عبداً لرجل من بنى اسرائيل من مدينة أيلة اشتراه بثلاثين ديناراً ، فأقام عنده مدة ثم أعتقه .

وقال : كان مقيماً بمدينة الرملة ـ قريباً من بيت المقدس ـ وكان بنو اسرائيل يأتون إليه ليسمعوا منه الحكمة ، وكان داود يأتى إليه يسمع منه الحكمة ، ومازال بمدينة الرملة حتى مات[10]

---

(٨) تفسير القرطبى

(٩) المنتخب من التفسير ـ سورة لقمان ص ٦١٣

(١٠) بدائع الزهور ص ١٥٨

وقف رجل فى مجلسه فقال له : ألست الذى كنت معى فى مكان كذا ؟

قال : بلى

قال : ما بلغ بك ما أرى ؟

قال : صِدْق الحديث والصمت عما لا يعنينى . .

وفى رواية ذكرها ابن كثير : قال : قدر الله وأداء الأمانة وصدق الحديث وترك ما لا يعنينى .

وذكر قصة فى ذلك بأسلوب آخر قال :

وقف رجل على لقمان الحكيم فقال : أنت لقمان عبد بنى فلان ؟

قال : نعم

قال : فأنت راعى الغنم الأسود ؟

قال : أما سوادى فظاهر فما الذى يعجبك من أمرى ؟

قال : وطء الناس بساطك وغشيانهم بابك ورضاهم بقولك .

قال لقمان : يابن أخى إن صنعت ما صنعته كنت كذلك .

قال : ما هو ؟

قال : غضى بصرى ، وكفى لسانى ، وعفة مطعمى ، وحفظى فرجى ، وقيامى بعدتى ، ووفائى بعهدى ، وإكرامى لضيفى ، وحفظى جارى ، وتركى ما لا يعنينى ، فذاك الذى صيرنى كما ترى [١١]

وقال قتادة : عن عبد الله بن الزبير قال : قلت لجابر بن عبد الله : ما الذى انتهى إليكم فى شأن لقمان ؟

قال : كان قصيراً أسود حكيماً من النوبة . .

وقد تحدث لقمان عن أخلاقه فى العبارات التى سبق أن ذكرناها . . وأثنى عليه العلماء بما وصلت إليهم من أخبار عنه .

---

(١١) البداية والنهاية حـ٢ ص ١٢٤

فقد روى العلماء أن أبا الدرداء ذكر يوماً لقمان فقال عنه : ما أوتى عن أهل ولا مال ولا حسب ولا خصال ولكنه كان رجلاً ضمضامة [١٢] سكيتاً ، طويل التفكر ، عميق النظر ، لم ينم نهاراً قط ، ولم يره أحد يبصق ولا يتبول ولا يتغوط ولا يغتسل ، ولا يعبث ،ولا يضحك ، ولا يعيد منطقاً نطقه إلا أن يقول حكمة يستعيدها إياه أحد ، وكان قد تزوج وولد له أولاد فماتوا فلم يبك عليهم ، وكان يغشى السلطان ويأتى الحكام لينظر ويتفكر ويعتبر فبذلك أوتى ما أوتى [١٣]

أما انه لم يره أحد يبصق ولا يتغوط فليس المراد أنه معصوم من هذه الأشياء ولكن المقصود أن الله أعطاه قدرة خاصة على ضبط نفسه عن الحاجة إليها فى مجلس العلم حتى يكون متفرغاً للحكمة ، وله فى غير مجلس العلم أن يقضى حاجته كما يريد .

فشل من حاول تقليد لقمان فى ذلك :

وقد حاول بعض الناس أن يحذو حذو لقمان فى ذلك فلم يستطع ،ذلك أن الله قد خص لقمان بهذه المزية فجرى طبعه على ذلك دون تكلف منه ، أما غيره فقد حاول ذلك تكلفاً ليشتهر به ويبدو فى نظر الناس على طبع غير طبعهم .

حدث الرواة قالوا :

« كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبد الله بن سوار ، لم ير الناس حاكماً قط ، ولا وقوراً ضبط من نفسه ، وملك من حركته مثل الذى ضبط وملك ، وكان يصلى الغداة فى منزله وهو قريب الدار من مسجده ، فيأتى مجلسه فيحتبى ولا يزال منتصباً لا يتحرك له عضو ، ولا يلتفت ، ولا يحل حبوته ، ولا يحرك رجلاً عن

---

(١٢) ضمضامة : يضم ما يجمعه من علم ولا يفرط فيه ـ والسكيت : قليل الكلام

(١٣) البداية والنهاية حـ٢ ص ١٢٤ . والصفات التى ذكرت من عدم البول والتغوط والاغتسال أى أنه كان لا يفعلها إلا فى أثناء الليل حتى يكون مجلسه خالصاً للناس لا تقطعه حاجة من هذه الحاجات . .

رجل ، ولا يعتمد على أحد شقيه حتى كأنه بناء مبنى أو صخرة منصوبة ، فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة الظهر ، ثم يعود إلى مجلسه فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة العصر ، ثم يرجع إلى مجلسه كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب ، ثم ربما عاد إلى مجلسه بل كثيراً ما يكون ذلك إذا بقى عليه من قراءة العهد والشروط والوثائق ، ثم يصلى العشاء وينصرف ـ لم يقم فى طول تلك الولاية مرة واحدة إلى الوضوء ، ولا احتاج إليه ، ولا شرب ماء ولا غيره من الشراب ، وكذلك كان شأنه فى طوال الأيام وقصارها وصيفها وشتائها .

وكان مع ذلك لا يحرك يداً ولا يشير برأسه ، وليس إلا أن يتكلم ثم يوجز ، ويبلغ بالكلام اليسير المعانى الكثيرة .

فبينما هو كذلك ذات يوم وأصحابه حوله إذ سقط على أنفه ذباب ، فأطال الوقوف والمكث ، ثم تحول إلى موق عينه وأطال الوقوف أيضاً .

فرام الصبر على ذلك كما رام الصبر على سقوطه إلى أنفه ، حتى أوجعه وأحرقه ، وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافل عنه ، وحاول الصبر حتى لا يخرج عن عادته فى الاحتمال ، فلما لم يستطع حاول ذبه عن وجهه بطرف كمه فكان يطير بمقدار ما يعيد طرف كمه ثم يعود ، حتى ألجأه أن تابع بين ذلك .

وعلم أن ذلك كان بعين من حضر من جلسائه ، فلما نظروا إليه قال : أشهد أن الذباب ألح من الخنفساء وأزهى من الغراب ، وأستغفر الله ، فما أكثر من أعجبته نفسه فأراد الله تعالى أن يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً وقد علمت أنى كنت عند الناس من أرصن الناس ، وقد غلبنى وفضحنى أضعف خلق الله ثم تلا قوله تعالى : ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝٧٣﴾(١٤)

---

(١٤) آية ٧٣ سورة الحج ـ وانظر القصة فى أمالى السيد المرتضى حـ ٤ ص ٢٢ والقصة نقلها المرتضى عن الجاحظ

فانظر كيف تكلف هذا القاضي وقار لقمان ليشتهر بذلك ، فلم يستطع وهزمه الذباب .

حكمته :

وقد قص القرآن الكريم علينا طرفاً من حكمة لقمان ، تمثلت في وصاياه لإبنه :

قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) ﴾

- سورة لقمان من ١٣ - ١٩

وفيها ذكره القرآن الكريم جماع كل شيء يحتاج إليه المسلم فى حياته من عقيدة خالصة ، وآداب سلوك ومحاسن أخلاق .

فالعقيدة الخالصة تبدو فى وصيته لإبنه بعدم الشرك بالله ، وعلل ذلك بأن الشرك ظلم عظيم ،وكان الشرك ظلماً لأن المشرك تعدى الحدود ، فخلع على المخلوق الذى يعبده أو يعظمه أو يخشاه صفة الخالق جل وعلا .

وآداب السلوك والأخلاق تظهر فى وصية القرآن الكريم للإنسان بحسن معاملة والديه والبر بهما وطاعتهما إلا إذا أمراه بشرك أو كفر فيجب عصيانهما فى هذه الحالة ولا يمنع ذلك من حسن معاملتهما . . وقد اعترض بتلك الوصية بين وصايا لقمان لابنه للتأكيد عليها لما فيها من نهى عن الشرك بالله . . كما يظهر فى وصية لقمان وجوب مراقبة الله الذى لا تخفى عليه خافية ويحاسب على كل شيء صغر أو كبر .

ووجوب اتباع آثار الصالحين ووصاياهم . .

والمحافظة على الصلاة وإقامتها فى أوقاتها وهى أساس الدين وعصمة للإنسان من السقوط فى الرذيلة . . ويظهر فيها أيضاً وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصبر ، والتواضع وخفض الصوت ، ولا شك فى أن هذه الوصايا تفيد الإنسان فى حياته العاجلة كما أنها توصله إلى النجاة فى حياته الآجلة .

نماذج من حكمه الأخرى :

ذاعت حكم لقمان فى الآفاق واعتنى الناس بجمعها منذ القدم ، وعرفها العرب قبل الاسلام .

حدث ابن هشام فى سيرته قال :

قدم سويد بن صامت أخو بنى عمرو بن عوف مكة حاجاً أو معتمراً ، وكان يسميه قومه الكامل لحسنه وشرفه ونسبه ـ فتصدى له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين سمع به ، فدعاه إلى الله وإلى الإسلام .

فقال له سويد : فلعل الذى معك مثل الذى معى .

فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : وما الذى معك ؟

قال سويد : حكمة لقمان

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : اعرضها علىَّ ـ فعرضها عليه . .

فقال له : إن هذا لكلام حسن والذى معى أفضل من هذا ، إنه قرآن أنزله الله ـ تعالى ـ علىَّ هو هدى ونور .

فتلا عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ القرآن ودعاه إلى الإسلام ، فلم يبعد منه . .

وقال : إن هذا لقول حسن ، ثم انصرف عنه فقدم المدينة على قومه .

فلم يلبث أن قتلته الخزرج ، فكان رجال من قومه يقولون : إنا لنراه قد قتل مسلماً ، وكان قتله يوم بعاث [١٥]

وقد ذكر ابن الأثير فى أسد الغابة هذا الخبر بعينه [١٦]

وهذا الخبر يعنى أن حِكَم لقمان كانت مجموعة فى صحف عند العرب ، وأن منهم من كان يعنى بها ويقرؤها ويتداولها . .

وذكر الإمام مالك فى الموطأ كثيراً من حكم لقمان ، وتناولت كتب التفسير والأخبار والآثار طرائف من هذه الحكم . .

---

(١٥) سيرة ابن هشام حـ ٢ ص ٣٥

(١٦) أسد الغابة لابن الأثير حـ ٢ ص ٤٩٧

قال ابن قتيبة فى كتابه « المعارف » قال وهب : قرأت فى حكمة لقمان نحو عشرة آلاف باب ، ولم يسمع الناس كلاماً من بشر أحسن منه ، واستعانوا به فى خطبهم ورسائلهم ، ووصلوا به بلاغاتهم [١٧]

ومن ذلك قوله لابنه واسمه « ثاران » :

يابنى كن على حذر من اللئيم إذا أكرمته ، ومن الكريم إذا أهنته ، ومن العاقل إذا هجوته ، ومن الأحمق إذا مازحته ، ومن الجاهل إذا صاحبته ، ومن الفاجر إذا خاصمته ، وتمام المعروف تعجيله . .

يابنى ثلاثة أشياء تحسن بالإنسان : حسن المحضر ، واحتمال الإخوان ، وقلة الملل للصديق ، وأول الغضب جنون وآخره ندم .

يابنى ثلاثة فيهم الرشد : مشاورة الناصح ، ومداراة العدو الحاسد ، والتحبب لكل أحد .

يابنى المغرور من وثق بثلاثة أشياء : الذى يصدق ما لايراه ، ويركن إلى من لا يثق به ، ويطمع فيما لا يناله . .

يابنى احذر الحاسد فإنه يفسد الدين ويضعف النفس ويعقب الندم . .

وهذه وصايا تتعلق بحسن المعاشرة بين الناس ، وكيفية معاملتهم أصدقاء كانوا أو أعداء . .

أما الحاكم فيضع لقمان لإبنه قواعد تضبط العلاقة به والسياسة معه قال له :

يابنى : إذا خدمت والياً ، فلا تَنُم إليه بأحد فإنه لا يزيده ذلك منك إلا نفوراً ، اذا سمع منك فى غيرك فإنه لابد أن يسمع من غيرك فيك ، ويكون قلبه خائفاً منك أن تنم عليه كما نممت إليه بغيره ،ولا يزال محترساً منك .

---

(١٧) المعارف لإبن قتيبة ص ١٩

وكن يابنى أقرب الناس إليه عند فرحه ، وأبعدهم منه عند غضبه وان ائتمنك فلا تخنه ، وإن أنالك يسيراً فخذه واقبله فتبلغ به أن تنال كثيراً ، وأكرم خدمه ، والطف بأصحابه ، وغض طرفك عن محارمه ، واقصر لسانك عن حديثه ، واكتم فى المجالس سره ، وانصح فى خدمته ، واجمع عقلك فى مخاطبته ، ولا تأمن الدهر من غضبه ، فإنه ليس بينك وبينه نسب ، والغضب يسرع إليه فى كل وقت ، ووثبته كوثبة الأسد ..

وحذر ابنه من النساء وكيدهن ومسايرتهن فقال له •

يابنى ، إن أردت أن تقوى على الحكمة فلا تملّك نفسك للنساء ، فإن المرأة إذا ملكت سيطرت وتحكمت وقست ، وهى إن أحبتك أكلتك ، وإن أبغضتك أهلكتك .

وفى الدعوة إلى العلم قال ـ فيما يرويه ـ الأبشيهى فى المستطرف :

جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فإن الله يحيى القلوب بنور الحكمة ، كما يحيى الأرض بماء السماء(١٨)

ويغلب على حِكَم لقمان طابع التعليل ، فهو ينطق بالحكمة ويعلل لها ، حتى تكون أوقع فى النفس وأعلق بالقلب وأقرب للعقل ..

ويبدو أنه اتخذ ابنه رمزاً للناس أجمعين .. فأغلب حكمه ووصاياه مصدرة بكلمة .. يابنى .. وهذه الحكمة التى يسوقها صالحة لهم جميعاً ، ومن سار عليها غنم غنماً كبيراً وصلح أمره فى الدنيا والآخرة ..

وأينما وجهت نفسك فى مناحى الحياة المختلفة وجدت للقمان قولاً نافذاً فيها .. ونصيحة نافعة لها .. فعن الجار السيء يقول :

---

(١٨) المستطرف من كل فن مستظرف جـ ١ ص ٢١

يابني ، حملت الجندل والحديد وكل حمل ثقيل ، فلم أجد شيئاً أثقل من الجار السوء ،وذقت المرار كله فلم أذق شيئاً أمر من الفقر .

وعن إرسال الرسول واختياره لقضاء الحاجة يقول :
يابني ، لا ترسل رسولاً جاهلاً ، فإن لم تجد حكيماً فكن رسول نفسك . .
وعن المجاملات الاجتماعية بين الناس يقول :

يابني ، احضر الجنائز ولا تحضر العرس ، فإن الجنائز تذكر بالآخرة ، والعرس يشهيك الدنيا . .

وعن الأكل والشرب يقول :
يابني ، لا تأكل على شبع ، فإنك إن تلقه إلى الكلب خير لك من أن تأكله .
وعن علاقة الإنسان بأصحابه يقول :

يابني ، اعلم أنه لا يطأ بساطك إلا راغب فيك أو راهب منك ، فأما الراهب منك الخائف فأدن مجلسه ، وتهلل في وجهه ، وإياك والغمز من ورائه .
وأما الراغب فيك ، فأظهر له البشاشة مع صفاء الباطن له ، وابدأه بالنوال قبل السؤال ، فإنك إن تلجئه إلى السؤال منك تأخذ من حر وجهه ضعف ما تعطيه [١٩]

وهذه كلها حكم قولية . . التجارب تصدقها ، والوقائع توثقها . .
وله أيضا حكم عملية منها . .

ذكر أن سيده طلب منه أن يذبح له شاة ويأتيه بأطيب مضغتين منها ، فأتاه

---

(١٩) حياة الحيوان للدميرى جـ ٢ ص ٧٤ ، ص ٢١٠

باللسان والقلب ، فقال له : أما كان فيها شيء أطيب من هذين ؟
قال لا

فسكت عنه ما سكت ، ثم قال له : اذبح لى شاة وارم أخبثها مضغتين ، فرمى باللسان والقلب .

فقال له : أمرتك أن تأتينى بأطيبها ، فجئت باللسان والقلب ، وأمرتك أن تلقى بأخبثها ، فألقيت باللسان والقلب ؟
فقال لقمان : إنه ليس شيء أطيب منهما اذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خبثا [٢٠]

ويقال إن سيده دخل الخلاء يوماً فأطال الجلوس ، فناداه : لا تطل الجلوس فى الخلاء ، فإنه ينخع الكبد ويورث البواسير ويميت القلب .

وحين ألان الله الحديد لداود أخذ يعمل درعاً ، فأراد لقمان أن يسأله عما يعمل فغلبته الحكمة فسكت ، فلم ينطق حتى أنهى داود عمله ، وفرغ من الدرع ، ولبسها ، وقال : نعم لباس الحرب أنت . .

فقال لقمان : الصمت حِكَم وقليل فاعله . . فقال داود : بحق ما سميت حكيماً [٢١]

ثناء الله على لقمان :

ليس هناك أجل من ثناء الله على لقمان حين قال عنه « ولقد آتينا لقمان الحكمة » والحكمة أجل تاج على رءوس الحكماء . .
وحكمة لقمان هبة من الله وفضل منه . . لا يَعْدِلُهَا ما يكتسبه المجربون فى

---

(٢٠) البداية والنهاية جـ ٢ ص ١٢٦
(٢١) تفسير القرطبى ص ٥١٤٣

حياتهم من خبرة يضمنونها أقوالاً صائبة وأمثالاً سائرة . . كتلك الحكم المأثورة عن العرب وغيرهم ، حقاً إنه يطلق عليها لفظ الحكمة . ولكنها لا تصل إلى

ذلك النور الذى قذفه الله فى قلب لقمان فأصبحت الحكمة جماع حياته وملاك أمره .

إن حِكَم لقمان كلها صائبة لا تحتمل الخطأ اطلاقاً . .
أما حِكَم الحكماء الآخرين فهى وإن كانت صائبة فى أغلبها فإنها تحتمل الخطأ

فى بعضها ، لأنها تكون متعلقة بأحوالهم الاجتماعية وعاداتهم وتقاليدهم وهذه ليست خالية من الخطأ . . وكان العرب يعتبرون زهير بن أبى سلمى حكيم

الشعراء . . ولكن قوله المشهور : « ومن لا يَظلم الناس يُظلم » بعيد عن صائب القول والحكمة . .

لقد صَدَّقَت حكم لقمان ما رواه الرواة من أحاديث النبى - صلى الله عليه وسلم - والنبى لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى . . فقد جاء الكثير من

معانى حكم لقمان فى أحاديث النبى - صلى الله عليه وسلم - وكان ذلك شهادة للقمان ، بأن ما أوتيه كان منحة عليا من السماء وفضلاً ونوراً من الله .

لقمان العرب

وما دمنا قد تحدثنا عن لقمان الحكيم ، فلابد من إشارة إلى لقمان بن عاد الذى أشادت الكتب العربية بحكمته . .

كان لقمان بن عاد من قوم هود - عليه السلام - وأوفده قومه مع الوفد الذى ذهب الى الحرم لطلب السقيا حين حبست السماء عنهم المطر ، ونزلوا هناك على

معاوية بن بكر فأكرمهم ، وغنت لهم جاريتاه « الجرادتان » فنسوا ماجاءوا من أجله حتى ذكرتهم إحداهما بما جاءوا من أجله بقصيدة غنتها لهم ، فذهبوا إلى الحرم واستسقوا ودعوا .. وأخذ كل واحد منهم يدعو بما شاء ..

وكان لقمان سيدهم حتى إذا فرغوا من دعائهم قال : اللهم إنى جئتك وحدى فى حاجتى فأعطنى سؤالى ، أعطنى عُمْراً ، فنودى : اختر لنفسك إلا أنه لا سبيل

إلى الخلد... بقاء أبعار ضأن عُفْر فى جبل وعر لا يلقى به إلا القطر ، أو عمر سبعة أنسر كلما مضى نسر خلوت إلى نسر ؟

فاختار لقمان لنفسه عمر النسور فعمرٌ عمر سبعة نسور ، كان يأخذ الفرخ منها فيربيه حين يخرج من بيضته ، حتى إذا مات أخذ غيره ، فلم يزل يفعل ذلك حتى أتى على السابع ، وكان كل نسر ـ فيما زعموا ـ يعيش ثمانين سنة ، فلما لم يبق غير السابع ، قال ابن أخ له : أى عم ما بقى من عمرك إلا عمر هذا النسر ، فقال له : هذا لُبَد ـ ولُبَد بلسانهم هو الدهر ـ وهو يعنى بذلك أن هذا النسر الذى سماه لبد سيعمر طويلاً ..

ولكن لبد لم يلبث أن مات ، ومات معه لقمان [٢٢] وفى ذلك يقول الشاعر :

أضحت خلاء وأضحى أهلها احتملوا   أخنى عليها الذى أخنى على لبد

وكان للقمان هذا ـ وقد عمر طويلاً ـ آثار من الحكمة التى حصلها من تجاربه الكثيرة وحياته الطويلة ، وذكر له الرواة أمثالاً من بينها :

« ويل للشجى من الخلى »

---

(٢٢) الفاخر للمفضل بن سلمة ص ٢٥٠

وقصة ذلك أن امرأة فى زمن لقمان بن عاد كان لها زوج يقال له : الشجى ، وخليل يقال له : الخلى . . ونزل لقمان بهذا المكان فرأى هذه المرأة ذات يوم وقد انتبذت من بيوت الحى ، فارتاب لقمان بأمرها ، فرأى رجلاً عرض لها ومضيا معاً . ثم إن المرأة قالت للرجل : إنى أتماوت ـ أى أدعى الموت ـ فإذا أسندونى فى قبرى فأتنى ليلاً فأخرجنى ، ثم نذهب إلى مكان لا يعرفنا أهله ، فلما سمع لقمان ذلك قال : ويل للشجى من الخلى . فأرسلها مثلاً (٢٣)

وذكر أبو على القالى فى الأمالى ، والجاحظ فى البيان والتبيين أمثالاً أخرى منسوبة إلى لقمان . .

عبر وعظات فى قصة لقمان الحكيم :

ـ حكم لقمان كلها نصائح غالية وعظات بالغة ، يكفى أن أشاد بها القرآن الكريم وذكر بها المسلمين ليتعظوا بها .

ـ وقصة لقمان تذكرنا بأن الإنسان ليس بمظهره بل بمخبره ، فرب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره . .

ـ ولقمان لم يكن ذا منظر جميل وهيئة حسنة ولكنه كان عبداً أسود ، ومع ذلك فقد أفاض الله عليه رحمة من عنده وعلمه من لدنه علماً . .

ـ طريق الحكمة الصحيح كما عرفنا من قصة لقمان خشية الله وتقواه ، وحسن العلاقة به ، والاخلاص فى عبادته فى السر والعلانية .

وقصة لقمان تحثنا مع ذلك على محاسن الاخلاق وجميل الصفات وما أوتى إنسان خيراً من أن يؤتى حسن الخلق ففيه سعادة الدنيا والآخرة وصلاح العاجلة والآجلة .

والله أعلم

(٢٣) انظر مجمع الأمثال للميدانى حـ ٢ ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ وقيل : إن قائل هذا المثل هو أكثم بن صيفى . .

بسم الله الرحمن الرحيم

زكريا ويحيى

عليهما السلام

- نسب زكريا.
- زكريا في القرآن.
- قصة زكريا.
- تبشيره بيحيى.
- صفات يحيى كما جاء في القرآن.
- نشأة يحيى.
- استجابة يحيى لأمر ربه.
- خلاصة دعوة يحيى.
- قصة استشهاد يحيى.
- استشهاد زكريا.
- زكريا العهد القديم.
- فضائل زكريا ويحيى.
- عظات وعبر.

عاد بنو اسرائيل إلى بيت المقدس ـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك ـ وأقاموا فى ظله ، وأرسل الله إليهم أنبياء يذكرونهم بأيام الله ، ويعظونهم فى أنفسهم ، ويحذرونهم الخروج على تعاليم السماء . . ولكنهم كانوا يقبلون تارة ويصدون تارات . .

ومن الأنبياء الذين بعثهم الله إلى بنى إسرائيل زكريا ويحيى ـ عليهما السلام ـ وكانت حياتهما واستشهادهما عبرة لمن يعتبر . .

نسب زكريا

هو زكريا بن يوحنا بن آذن بن مسلم بن صدوق يحسان ينتهى نسبه إلى سليمان بن داود ـ عليه السلام ـ .

بينه وبين سليمان بن داود أربعة عشر أبا . . هذا ما ذكره الثعلبى [٢٤]
وقال الزمخشرى فى الكشاف إنه زكريا بن آذن [٢٥] ، وكذلك قال ابن قتيبة [٢٦]

وذكر ابن كثير فى البداية والنهاية سلسلة نسب زكريا على أنه ابن برخيا ، وقيل ابن دان ، وقيل ابن لدن .

ويبدو أن « يوحنا » تصحيف « برخيا » و« دانْ » و « لدن » تصحيف « آذن » كما أن « يحسان » الذى أورده الثعلبى ذكره ابن كثير « حشبان » فأحدهما تصحيف للآخر .

وربما كان اسم زكريا بن آذن كما ذكر الزمخشرى صاحب الكشاف وابن قتيبة هو الأقرب للصواب للتفرقة بين زكريا الوارد فى العهد القديم ، وزكريا الذى ذكرت قصته فى القرآن الكريم . .

---

(٢٤) قصص الأنبياء للثعلبى ص ٢٧٨
(٢٥) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٣٥٥
(٢٦) المعارف آلابن قتيبة ص ١٨

زكريا فى القرآن الكريم :

ذكر اسم زكريا فى القرآن الكريم ثمانى مرات فى سور آل عمران ، والأنعام ومريم والأنبياء .

وأشار القرآن الكريم إلى قصته فى سورة آل عمران وسورة مريم وسورة الأنبياء . .

وهذه هى الآيات التى وردت فى سورة مريم :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾ (٢٧)

---

(٢٧) مريم ١ : ١٥

قصة زكريا :

وبتدبر هذه الآيات الكريمة تستبين لنا قصة زكريا ـ عليه السلام ـ الذى ناجى ربه فى تضرع وخفاء واستكانة ورجاء ، أن يهبه من لدنه ولداً يرثه فى علمه وحكمته ، ويذكر اسمه من بعده ، ويحفظ النبوة فى ذريته ، فاستجاب الله دعوته ووهبه يحيى الذى أتاه الله الحكمة صبياً ، ورزقه الفطنة والتقوى فأسعد الله به قلب الوالدين ، وجعله لهما قرة عين . .

ولكن هذا الدعاء من زكريا كانت له مقدمات وأسباب ، أشار إليها الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فيما ذكره من آيات أخرى تتضمن قصة زكريا ـ عليه السلام ـ ونتحدث عنها فيما يأتى :

أسرة زكريا :

كان زكريا يعيش فى ظل أسرة اختصها الله بمزيد من الفضل والعناية ، واصطفاها الله من بين خلقه ، وبارك فيها ـ وقد تزوج من إيشاع بنت فاقوذ ، وهى أخت حنة بنت فاقوذ ، التى تزوجها عمران بن ساهم بن أمور من نسل داود ـ عليه السلام ـ

وقيل كان متزوجاً من أخت مريم ابنة عمران ، وكلتاهما ينتهى نسبها إلى يعقوب ـ عليه السلام ـ وهما من بسط يهوذا بن يعقوب .

وزكريا ينتهى نسبه كذلك إلى يعقوب ـ ولكن من سبط لاوى بن يعقوب ، لأنه من ولد هارون أخى موسى .

وقال بعضهم : إنه كان ابن عم لزوجته ، فهو ينتهى إلى يعقوب بن ماثان أخى عمران بن ماثان أبى مريم البتول وعمران هذا هو الذى ذكره الله مكرماً إياه فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (٢٨)

---

(٢٨) آل عمران ٣٣ : ٣٤

وكان زكريا فى بيت المقدس ،يقوم عليه ، ويعنى بشأنه ، وهو من الأنبياء الذين بعثهم الله فى بنى اسرائيل يقوّمون خطاهم ويهدونهم سواء السبيل . .

وكان معه أحبار من بنى اسرائيل منهم عمران زوج حنة ووالد مريم البتول . وكانوا جميعاً يجتهدون فى العبادة ويخلصون فى التقرب الى الله .

زكريا يتمنى ولداً :

وقد كان زكريا يقوم على كفالة مريم ابنة عمران حين نذرتها أمها لله ، وسلمتها إلى بيت المقدس بناء على نذرها الذى نذرته لله ، وكان أبوها قد مات قبل أن تولد ، فتنازع الأحبار مع زكريا الولاية عليها ، كل منهم يريد أن يكون هو المختص بذلك ، ولم ينته النزاع بينهم حتى اتفقوا على أن يستهموا فى ذلك ، فكان السهم من نصيب زكريا ـ عليه السلام ـ فتولى شأنها وبنى لها غرفة فى أعلى بيت المقدس ، حتى تتفرغ للعبادة ولا يشغلها أحد عن ذكر الله .

وكان يدخل عليها الحين بعد الحين يتفقد أحوالها ويقدم لها طعامها وشرابها ،فيرى عندها فاكهة غريبة فى غير أوانها ، قيل انه كان يجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف . .

فسألها عن ذلك : أنى لك هذا يا مريم ؟
فكانت تجيبه : هو من عند الله الذى يرزق من يشاء بغير حساب . .
تفكر زكريا فى حال مريم ، وعرف قدرة الله الخارقة التى تقدر على كل شيء ولا تتوقف على أسباب معلومة لأنها فوق الأسباب .

ونظر إلى نفسه وقد بلغه الكبر وأدركه المشيب وأوشك على فراق هذه الدنيا دون أن يكون له عقب يحفظه أو ولد يبقى ذكره ، وهذه امرأته عاقر وقد كبرت مثله فى السن . . فلماذا لا يطلب من الله الذى رأى آثار قدرته فى رزق مريم أن

يرزقه ولداً كما رزق مريم الفاكهة فى غير أوانها ؟

ولعل زوجته كانت متطلعة للولد كذلك . . بل لعلها كانت تدعو ربها بلسان حالها ولسان مقالها أن يسعدها بغلام يملأ حياتها أنساً وأملاً ، فالأمومة فى داخل المرأة تأنف أن تعطل ، وهى تريد أن تعلن عن نفسها دائماً حقيقة أو مجازاً . .

فوافقت دعوة زكريا دعوة زوجته ، وتفتحت أبواب السماء للدعوتين ، وأجاب الله رجاء الشيخين ومنّ عليهما بما أرادا ، وأمر الله ملكاً أن يهبط إلى زكريا مبشراً له بإجابة دعوته وتحقيق أمنيته .

ماذا يقصد زكريا بالوراثة ؟

لقد هتف زكريا بدعائه إلى الله قائلاً : هب لى من لدنك ولياً يرثنى ويرث من آل يعقوب ، فماذا يقصد زكريا بالوراثة ؟

إنه يقصد وراثة الحكمة والنبوة ، وهذا ما يحرص عليه الأنبياء ، وليس وراثة الدنيا فذلك أمر يترفعون عنه وقد ورد عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة . . أى ما تركناه من مال ، صدقة لا تورث . .

كان زكريا حريصاً على أن يكون له ولد يتولى ما كان يتولاه من قوامة على أمر هذا البيت المقدس ، ويستمر فى حمل أعباء النبوة التى جعلها الله ميراثاً فى آل يعقوب مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾[29]

ولم يكن زكريا ذا مال يورث فيشغله أمر ميراثه ـ ولو كان له ما شغله أيضاً ـ فقد ذكر الرواة أنه كان نجاراً يعمل بيده ويأكل من عرق جبينه ، وقد طبع الله الأنبياء على الجود بما فى أيديهم والتصدق بما يفضل عن حاجتهم فما كانت لديهم

---

(٢٩) العنكبوت ٢٧

مدخرات يدخرونها سوى العمل الصالح والحكمة يورثونها لأبنائهم .

وأما قول زكريا « وإنى خفت الموالى من ورائى » فلا يعنى أنه خشى الكلالة كما يقول البعض أو خشى أن أقرباءه سوف يرثونه مادام لم يعقب ولدا . . وإنما كان هؤلاء الموالى ـ وهم أقرباؤه ـ مهملين للدين فخاف انقطاع الدين من بعده لأن ورثته هؤلاء لا يهمهم أمر الدين فى شىء . .

تعجب زكريا :

وعلى الرغم من رؤية زكريا آية القدرة فى رزق مريم ، ومطالعته آثار النبوة فى قلبه إلا أن الطبع البشرى غلبه فقال حين بشر بالولد :

« أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر ؟ »

هذان سببان مانعان للإنجاب : كبر سنه فقد وهن منه العظم الذى جعل حاجته إلى النساء ضعيفة واشتعل رأسه بالشيب وهذه علامة الكبر الظاهرة ودليل الشيخوخة الغالبة . .

إلا أن الشيخ أحياناً ينجب ، وإنجابه ليس مستحيلاً ، وكم من شيوخ بلغوا من الكبر عتياً أنجبوا وهم فى هذه السن المتقدمة .

ولذا جاء بالسبب الذى يستحيل معه الانجاب وهو عقر الزوجة فهو وإن كانت سنه تسمح فرضاً بالإنجاب فإن زوجته لا يتأتى منها الإنجاب . لقد قاس زكريا الأمور بمقياس الحياة البشرية فى العادة وذكر الأثر والمؤثر والسبب وما يترتب عليه . فالمعروف أن العاقر لا تلد ، ونسى فى غمرة الفرحة الحافز الذى حفزه إلى الدعاء وهو مشاهدة آثار القدرة التى هو فوق الأسباب والمسببات . .

فكان لابد من تنبيهه إلى ترك دائرة المحسوسات ، والتحليق فى دائرة الروحانيات ، التى يجب أن يلغى فيها الانسان قدرته وامكانياته ولا يذكر إلا الله تعالى بقدرته الفياضة ورحمته السابغة وعظمته التى تقول للشىء كن فيكون . . فنبهه الملك قائلاً : كذلك الله يخلق ما يشاء . .

وكأن زكريا لم يزل فى عجب من أمره فسأل عن علامة يعرف بها تمام هذه البشرى ويدرك أن زوجته قد حملت ، إن زوجته ليست فى حاجة إلى علامة لأنها تستطيع أن تشعر بالحمل عند حدوثه ، فقال له الملك : إن آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً .

حين يعجز لسانك عن النطق ، وتضطر إلى التحدث مع الناس عن طريق الإشارة تعلم أن زوجتك قد حملت بذلك الغلام الذى بشرناك به . .

صفات هذا الغلام :

ولم تكن البشرى بغلام عادى ، ولكنها كانت بشرى بولد له خصائص مميزة ذكرها القرآن الكريم فى قوله تعالى

﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ (٣٠)

إنه مصدق بكلمة الله

وإنه سيد

وإنه حصور

وإنه نبى من الصالحين . .

هذه صفات يستحق أن يغبط عليها صاحبها . وهى جديرة بأن تقر عين الموهوب له بهذه الهبة الالهية السنية .

لقد طلب زكريا من ربه مجرد غلام يرث حكمته ومعرفته ، فتفضل الله عليه بأن وهبه ما طلبه وزيادة . .

---

(٣٠) آل عمران ٣٩

أما التصديق بكلمة الله فتتضمن بشارة أخرى ، هى ميلاد عيسى ، لأن عيسى ـ عليه السلام ـ هو كلمة الله قال تعالى :

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (٣١)

وقد سمى عيسى بكلمة الله لأنه لم يوجد إلا بكلمة الله وحدها .. وسوف يكون يحيى أول من يصدق به ..

وقال بعض العلماء : إن المراد بكلمة الله : كتاب الله ، والعرب قد تطلق على الكلام كلمة ، وعلى الكتاب كلمة وعلى القصيدة كلمة .

وقد شهد يحيى لعيسى وهو فى المهد وكان بينهما مقدار ثلاثة أو خمسة أشهر .

وصفه بالسيادة :

اما وصفه بالسيد ففيه دلالة على أنه سيسود قومه ويفوقهم فى الشرف ..

وقد تم ليحيى ذلك فعلاً ، فقد بلغ فى بنى إسرائيل منزلة عظيمة ، وتربع على عرش قلوبهم ودانوا له بالطاعة وصدع بكلمة الحق بينهم حتى غاظ بذلك قلوب أهل الجحود والنكران ، وكان ذلك سبباً فى استشهاده كما سيأتى .

وفى وصف الله ـ سبحانه وتعالى ـ يحيى بذلك دلالة على جواز تسمية الانسان بالسيد وفيه رد على من يزعمون أنه لا يجوز تسمية المخلوق بذلك .

أجل إن السيد الحقيقى هو الله ، ولاشك فى ذلك على الاطلاق .. ولكن تسمية الانسان بالسيد لا تعنى هذا المفهوم الذى هو للحق ـ تعالت قدرته ـ وإنما تعنى أن هذا الشخص قد بلغ فى قومه منزلة جعلته جديراً بأن يقودهم ويفوقهم ويشرف عليهم ـ وقد قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حق سعد بن معاذ : قوموا لسيدكم ..

---

(٣١) آل عمران ٤٥

كما قال فى حق الحسن بن على ـ رضى الله عنهما ـ إن ابنى هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين . .

وقال فى حق نفسه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أنا سيد ولد آدم ولا فخر . .

وقد تطلق كلمة السيد على معنى غير الترفع والسيادة ، فقد تعنى التفوق فى العلم والعبادة وقد تعنى منتهى الحلم والتواضع ، وقد تعنى التفوق بين الأقران فى كل شىء من صفات البر والخير . .

وعلى هذا المعنى أَجَلَّ المسلمون نبيهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنعتوه بالسيادة وهو جدير بها ، وجعلوا هذه الصفة سابقة على اسمه الكريم الذى سماه به ربه فصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

مفهوم الحصور

وقد فسر اللغويون « الحصور » بمعان متعددة ، فقالوا ـ على ما جاء فى لسان العرب : الحصور الهيوب المحجم عن الشىء ، والحصور الذى يكتم السر فى نفسه ، والحصور الممسك بالشىء . .

ومن معانيها كما ذكر الزمخشرى فى الكشاف الذى لا يدخل مع القوم فى الميسر قال الأخطل :

وشارب مربح بالكأس نادمنى   لا بالحصور ولا فيها بسآر [٣٢]

فاستعير اللفظ لمن لا يدخل مع القوم فى اللعب واللهو . .

وكان يحيى ـ عليه السلام ـ ينأى بطبيعته التى فطره الله عليها عن اللعب واللهو ، وقد نشأ منذ صغره جاداً . وقد روى أنه مر وهو طفل بصبيان يلعبون فدعوه لمشاركتهم فقال : ما للعب خلقت .

---

(٣٢) تفسير الكشاف للزمخشرى جـ ١ ص ٤٢٨

ومن معانى الحصور أيضاً الذى لا يشتهى النساء ولا يقربهن .

وعلى هذا المعنى سار بعض المفسرين ، وأقرب ما ينطبق على يحيى ـ عليه السلام ـ أن يكون قد زهد فى النساء تنزهاً لا عجزاً ، لأن العجز نقص فى الذكورة وهو لا يليق بمقام الأنبياء .

لقد كانت لديه القدرة ولكنه نأى بجانبه عن زينة الدنيا ونعيمها ، فقد وجد نعيم الآخرة خيراً وأبقى .

وعلى ذلك فتكون هذه الصفة التى ذكر بها يحيى فى القرآن الكريم صفة مدح وثناء من الله عليه ، وليست صفة عجز فيه .

وما جاء فى سياق المدح ينبغى أن يكون مدحاً ، فقد سبق هذه الصفة مدحه بالسيادة ، وأعقب هذه الصفة مدحه بالنبوة ، فكيف يكون وصفه بأنه حصور ذماً أو عجزاً .

وقد يكون وصفه بأنه حصور بمعنى أنه عصم نفسه عن الشهوات مطلقاً وهذه كانت حال يحيى ـ عليه السلام ـ أما زهده فى النساء والتزوج منهن فقد كان هذا مستساغاً فى شريعة الأنبياء السابقين على رسالة خاتم الأنبياء سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكانت سنة فرضها البعض منهم على أنفسهم ، ولم تنزل من السماء ولم يرعها بعضهم حق رعايتها كما قال ـ سبحانه وتعالى ـ فى ذلك

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ (٣٣)

ولذلك كانت سنة الإسلام الزواج ، وقد خاطب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعض أصحابه الذين حدثتهم أنفسهم بالعزوف عن الزواج قائلاً : من رغب عن سنتى فليس منى . .

---

(٣٣) الحديد ٢٧

النبــوة :

وأصبح زكريا ذات يوم فإذا لسانه محبوس عن الكلام ، وأقبل الناس إليه كعادتهم ، يسألونه عما يريدون ، فإذا به يشير إليهم ولا يستطيع النطق .

ومن العجيب أنه كان حين يهم بمخاطبتهم يعجز عن الكلام ، فإذا ما خلا وحرك لسانه بالذكر انطلق لسانه به .

وكأن الله تعالى أراد أن يحبس لسانه عن مخاطبة الناس فى تلك المدة ، ليخلص لسانه بالذكر شكراً لله على نعمته الكبرى التى مَنَّ الله عليه بها . . وهى استجابته لدعوته وهبة يحيى له . . وهذه نعمة تقتضى الشكر دائماً والحمد الجزيل وليس أوفى لتحقيق الحمد من الذكر الخالص لله تعالى والثناء عليه . .

قال الزمخشرى : حبس الله لسان زكريا عن الكلام ليخلص فى هذه المدة لذكر الله لا يشغل لسانه بغيره توفراً منه على قضاء حق تلك النعمة الجسيمة ، وشكرها الذى طلب الآية من أجله ، كأنه لما طلب الآية من أجل الشكر قيل له : آيتك أن يحبس لسانك إلا عن الشكر .

نشأة يحيى :

ونشأ يحيى ـ عليه السلام ـ فى كنف والديه ، اللذين رزقا به على كبر ، وانتظراه بشوق بالغ وتطلع كبير . ولم يدخرا وسعاً فى أن يكفلا له كل وسائل السعادة والراحة والتأديب والتعليم . . إنهما يعدانه لميراث النبوة والحكمة فلابد أن يبذلا فى ذلك كل جهد .

ولكن الطفل المرتقب كانت عناية الله أسرع فى تأديبه وتثقيفه منهما فقد وهبه الله الحكمة صغيراً ، وعصمه من كثير مما يقع فيه الصبيان من شغف باللعب وانصراف عن الدروس والتعلم .

وقد قال الله ـ تعالى ـ فى ذلك : « وآتينا الحكم صبياً » .

وانشغل يحيى بالعبادة منذ نعومة أظفاره ، وكان لا يكف عن التفكر فى خلق السموات والأرض ، والاقبال على الله بعزم قوى وهمة لا تعرف الكلل . . حتى فاق كبار الأحبار فى عبادتهم . .

وأصبح بين والديه كأنه غريب عنهما . . دموعه على خديه لا تجف ، وذكر الله على لسانه لا يفتر ، حتى قال والداه : يارب لقد طلبنا الولد لننتفع به ولكنه مشتغل بالبكاء والدعاء .

فأوحى الله إلى زكريا قائلاً : لقد قلت فى دعائك : رب هب لى من لدنك ولياً ، والولى لا يكون إلا كذلك .

والولى هو الذى توالت لله حركاته وسكناته كما يقول أهل الذوق ، وقال أهل اللغة : تولاه الله.. اتخذه ولياً والوَلْى القرب والدنو .

والولىُّ الصديق والقريب والحبيب ، والموالاة ضد المعاداة ومنه قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [34] اى يتولى أمرهم . .

يحيى يستجيب لأمر ربه :

وقد شمر يحيى ـ فى الدعوة إلى الله ـ عن ساعد الجد ، ولم يدخرجهداً فى الاستجابة لأمر الله فى ذلك حين قال له : « يا يحيى خذ الكتاب بقوة » فأقبل على الله بهمة لا تعرف الكلل ، واتجه بكل عزم إلى النصح والإرشاد ، فكان لا يمر على جماعة إلا ألقى عليهم مواعظه ، ولا يحضر مجلساً إلا وذكر فيه بالله ، وكان لا يُرى إلا باكياً أو ذاكراً أو مستغفراً ، مع أنه نشأ فى عبادة ربه ولم يحدث منه ذنب على الاطلاق ، حتى قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم » فى ذلك : « كل بنى آدم يأتى يوم القيامة وله ذنب إلا ما كان من يحيى بن زكريا » [35]

---

(٣٤) البقرة ٢٥٧

(٣٥) أخرجه الحاكم فى المستدرك ـ كتاب التفسير ـ حـ ٢ ص ٣٧٣ وفى جمع الجوامع حديثان بهذا المعنى حـ٣ ص ٢٢٤

لقد زهد يحيى فى الدنيا زهداً شديداً ، وكان قوته بعض ثمار الأشجار القليلة فى غالب أحواله يتبلغ بها اذا عضه الجوع ، ويحمد ربه على هذه النعمة الوافرة السابغة ، وقد أثّر الدمع فى وجنتيه حتى حفر أخاديد فيهما ، ولذلك كان وعظه مؤثراً فى سامعيه ، لأنه خرج من قلب ذائق ووجدان صادق .

كان يأنس إلى القفار أكثر من أنسه بالناس ، ويفر من مواطن الزحام ويأوى إلى الأرض الفضاء وشواطىء الأنهار وكثيراً ما كان يفتقده أبواه فيخرجان للبحث عنه فيجدانه قد ألف الوحوش وجلس بعيداً عن العمران ، فإذا ما أرادا العودة به إلى المدينة أبكاهما بكلامه ووعظه المؤثر .

دخل مرة بيت المقدس فنظر إلى من نذروا أنفسهم لله من الأحبار والمجتهدين فى العبادة ، وكان كثير منهم قد بالغوا فى الزهد وشددوا على أنفسهم فى المجاهدة ، فأراد أن يحذو حذوهم ـ وكان مازال صغيراً ـ فقال له أبوه : يابنى ما يدعوك إلى هذا وإنما أنت صبى صغير ؟

فقال له : يا أبت ، أما رأيت من هو أصغر منى ذاق الموت ؟

قال : بلى ، وكانت هذه كلمة سديدة حكيمة تدل على حكمة مبكرة ، وكأنه أراد أن يقول لأبيه : فلماذا لا تجعلنى استعد للموت الذى لا يترك صغيراً ولا كبيراً ؟

ولماذا تحاول أن تمنعنى من أن أتشبه بهؤلاء الذين نذروا أنفسهم لله ، واشتروا الآخرة بالدنيا ، وأقبلوا على الله بهمة ونشاط ؟

ونسجت له أمه مدرعة من شعر ، وصنعت له برنساً من صوف ، وانزوى فى بيت المقدس مع الرهبان والأحبار يعبد الله ، حتى أثرت المدرعة فى لحمه .

ونظر إليه أبوه ذات يوم ورحمه . . وجده قد نحل عوده وذهبت نضرته واشتد هلعه ، فقال له • ما حملك على هذا يا يحيى ؟ وكيف تقر عينى برؤيتك هكذا

وإنما وهبك الله لى لتكون قرة عينى ؟

فقال له يحيى : أنت فعلت هذا بى يا أبى ؟

قال زكريا : وكيف ؟

قال : ألست القائل ان بين الجنة والنار عقبة كئوداً لا يتخطاها إلا الباكون من خشية الله ؟

فسكت زكريا ، وحمد ربه أن رزقه ولداً يفهم ما يقوله أبوه ويطبقه عملياً . .

وذكر ابن كثير هذا الخبر بعد أن قال :

إن زكريا افتقد ابنه يحيى ثلاثة أيام فخرج يلتمسه فى البرية .

فوجده قد حفر قبراً وأقام فيه يبكى على نفسه ، فقال له : يا بنى ، أنا أطلبك منذ ثلاثة أيام وأنت فى قبر قائم تبكى فيه ؟

فقال له : يا أبت ألست أنت أخبرتنى أن بين الجنة والنار مفازة لا تقطع إلا بدموع البكائين .

فقال له : ابك يابنى . .

وجلسا يبكيان معاً . . (٣٦)

لقد قسا يحيى على نفسه فى الدنيا لأنه أراد أن يريحها فى الآخرة .

وزهد فى طيبات الدنيا لأن الله قال فى حق قوم حرمهم نعيم الجنة :

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠) ﴾ (٣٧)

---

(٣٦) قصص الأنبياء لإبن كثير ص ٥٤٨

(٣٧) الاحقاف ٢٠

وظل يحيى فى بيت المقدس نموذجاً كاملاً للتقوى والورع ، وصورة مثالية للزهد والصلاح وكانت كلماته تدوى كالرعد فى أسماع الخارجين على تعاليم السماء ، وكان إنكاره على المذنبين والمتلاعبين بالدين والمرائين غصة فى حلوق هؤلاء ، حتى أجمعوا على التخلص منه ، لأنه يقف فى طريق أطماعهم ، وينغص عليهم لذائذهم وشهواتهم بسلوكه القويم . .

خلاصة دعوته :

وقد أخبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن خلاصة تعاليم يحيى فيما رواه الرواة .

أخرج الإمام أحمد فى مسنده أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات يجب أن يعمل بهن ، وأن يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن ، وكاد أن يبطىء ، فقال له عيسى بن مريم : إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن ، وتأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن ، فإما أن تبلغهن وإما أن أبلغهن .

فقال له يحيى : يا أخى إنى أخشى إن سبقتنى أن أُعَذَّب أو يُخْسَفَ بى . قال : فجمع يحيى بنى إسرائيل فى بيت المقدس حتى امتلأ المسجد فقعد على الشرف [٣٨] ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

إن الله ـ عز وجل ـ أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن :

آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، فإن مَثَلَ ذلك مثل من اشترى عبداً من خالص ماله بورق أو ذهب ، فجعل يعمل ويؤدى غلته إلى غير سيده ، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك ؟

---

(٣٨) الشرف هو المكان المرتفع .

وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً . .

وآمركم بالصلاة فإن الله ينصب وجهه قِبَلَ عبده مالم يلتفت ، فإذا صليتم فلا تلتفتوا .

وآمركم بالصيام ، فإن الله مَثَّل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك فى عصابة ، كلهم يجد ريح المسك ، وإنَّ خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك .

وآمركم بالصدقة ، فان مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو ، فشدوا يده إلى عنقه ، وقدموه ليضربوا عنقه ، فقال : هل لكم أن أفتدى نفسى منكم ؟ فجعل يفتدى نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه .

وآمركم بذكر الله ـ عز وجل ـ كثيراً فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً فى أثره ، فأتى حصناً حصيناً فتحصن فيه ، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان فى ذكر الله ـ عز وجل ـ .

قال الإمام أحمد : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنا آمركم بخمس ، الله أمرنى بها : بالجماعة ، والسمع ، والطاعة ، والهجرة ، والجهاد فى سبيل الله .

فإن من خرج من الجماعة قَيدَ شبر فقد خلع ربقة [39] الإسلام من عنقه إلا أن يرجع .

ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من حَثَا [40] جهنم ـ قال راوى الحديث : وإن صام وصلى ؟ قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم .

---

(٣٩) المقصود بربقة الإسلام عهده وميثاقه

(٤٠) المقصود بحثا جهنم وقودها

ادعوا المسلمين بأسمائهم ، بما سماهم الله عز وجل ـ المسلمين المؤمنين عباد الله عز وجل [٤١] .

لقد قامت دعوة يحيى كما رأينا من هذا الخبر على ما قامت عليه دعوة الاسلام ، ودعوات الأنبياء جميعاً واحدة لا تخرج من عبادة الله وحده وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وذكر الله تعالى ، والتحلى بمكارم الأخلاق .

استشهاد يحيى ـ عليه السلام ـ

ذهب يحيى ـ عليه السلام ـ ضحية أطماع الغادرين وجشع أرباب المال وشهوة الطامعين فى السلطة والتسلق إلى مراكز النفوذ . .

لقد كان يحيى صرخة مدوية فى أسماع الطغاة ، وعلامة احتجاج كبرى على الفساد المستشرى فى ربوع أورشليم وكان يحيى بارعاً ـ كما يقول ـ الشيخ النجار فى الديانة الموسوية ، ومرجعاً لأهلها فى كل شىء . . ولا يبعد أن يكون للحسد نصيب فى مصرعه من قوم كانوا لا يعملون بما يعلمون . .

وقد ذكر الرواة فى استشهاده روايات منها ماذكره الشيخ عبد الوهاب النجار فى كتابه قال :

كان « هيرودوس » أحد حكام فلسطين له بنت أخ اسمها « هيروديا » بلغت حدا أوفى فى الجمال ، فخطفت بجمالها نظر عمها الحاكم ، واستولت على لبه فعشقها ، وأراد أن يتزوج منها . .

وبلغ ذلك أسماع الناس ، وسرى خبره إلى علماء بنى إسرائيل وأحبارهم ، ولكنهم لم يقدروا أن يغيروا عليه أو يحذروه عاقبة ما يفعل . .

وبلغ ذلك يحيى بن زكريا فثار ضد هذا الإثم ،وأفتى بتحريم هذا الزواج الذى لا تقره شريعة الله . .

---

(٤١) مسند الإمام أحمد حـ ٥ ص ٣٤٤ ، وأخرجه الترمذى ـ كتاب الآداب رقم ٨٨

وأغضبت هذه الفتوى الفتاة التى أعدت نفسها للاستيلاء على عرش البلاد . وصور لها خيالها أنها ستصبح بزواجها من عمها سيدة نساء أورشليم بل فلسطين بأسرها .

وأخذت هذه الفتاة ومعها أمها التى شاركت فى صنع هذه المؤامرة يكيدان ليحيى . .

وزينت الأم ابنتها فى أكسية حالمة ، وأدخلتها على عمها ، فلما رآها وقد أخذت زينتها كاملة افتتن بها ودعاها إلى نفسه ، فامتنعت عليه .

وقالت : إن كنت تريدنى حقاً فاصنع ما أريد .
فقال لها : وماذا تريدين ؟
قالت : أريد رأس يحيى بن زكريا فى طبق أمامى . .
لقد لقنتها أمها ذلك . .

وكانت الرغبة قد استولت على قلب هذا المفتون فلم يتوان عن تنفيذ ما أرادت . .

وسرعان ما أرسل جنوده لاغتيال النبى يحيى ، وجىء برأسه ليقدم فى طبق أمام هذه الغانية الفاجرة .

وهكذا ذهب يحيى ضحية الجهر بكلمة الله ، فى مجتمع لم يرع لله حرمة ، ولم يحترم تعاليم الدين ، ولم يجد من هؤلاء الأحبار والكهان الذين كانوا يملئون ساحة بيت المقدس من يستنكر هذا العمل الاجرامى ، ويثور ضد هذا الحاكم الذى داس بقدمه استجابة لشهواته كل المقدسات والقيم ورعاية الحرمات .

ولعل هذه القصة أصح ما ذكر فى استشهاد يحيى ـ عليه السلام ـ
وقد ذكر ابن كثير قصتين أخريين فى استشهاد يحيى ـ عليه السلام ـ

إحداهما مارواه بعضهم عن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ قال :

إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة أسرى به رأى زكريا فسلم عليه وسأله عن قتله فأجاب قائلاً :

كان يحيى خير أهل زمانه ، وكان أجملهم وأصبحهم وجهاً ، وكان لا يحتاج إلى النساء فهويته امرأة ملك بنى اسرائيل ، وراودته عن نفسه ، فامتنع عليها فأجمعت على قتله .

وكان لهم عيد يجتمعون فيه كل عام ، وكانت سنة الملك أنه إذا وعد لا يخلف . .

فخرج الملك إلى العيد فخرجت زوجته وراءه تشيعه ـ على غير عادتها ـ وكان معجباً بها ، فقال لها الملك : سليني فما سألت شيئاً إلا أعطيتك . فقالت : أريد دم يحيى بن زكريا .

فقال لها : سليني غيره

قالت : لا أسألك غير ذلك

فقال لها : هو لك . .

فبعثت حرسها إلى يحيى وهو فى محرابه يصلى ، وزكريا إلى جانبه ، فذبح فى طست ، وحمل رأسه ودمه إليها . .

كل ذلك ، ولم يلتفت زكريا من صلاته . .

فلما كان المساء خسف بالملك وأهل بيته . .

فاجتمع بنو اسرائيل وقالوا : غضب إله زكريا لزكريا ، فتعالوا نغضب لملكنا فنقتل زكريا . .

فخرجوا فى طلبه ليقتلوه ، وجاء نذيرهُ لينذره فهرب منهم ، وإبليس أمامهم يدلهم عليه

وتخوف زكريا أن يدركوه وقد اعترضته شجرة فى الطريق ، فانصدعت له فدخل فيها ثم التأمت عليه .

وأخذ إبليس بطرف ردائه فبقى خارجاً عن الشجرة بعد أن التأمت ونادى الناس : انظروا ، إن زكريا بسحره استطاع أن يأمر الشجرة أن تكون له مخبئاً ، وهاهو ذا طرف ردائه يظهر منها .

وتشاوروا فيما يفعلون به ، فقال قوم : نحرق الشجرة ، ولكن إبليس أشار عليهم أن يشقوا الشجرة شقاً ، فأتوا بالمنشار فشقوها وانشطر زكريا معها شطرين .

ولكن هذه القصة لا تتفق مع ما ورد فى الصحاح حول حديث الاسراء والمعراج ، من أن النبى - صلى الله عليه وسلم - التقى فى إحدى السماوات بعيسى وزكريا ، ولم يرد فى هذا الحديث حوار بهذا المعنى بين النبى - صلى الله عليه وسلم - وزكريا .

أما القصة الأخرى فى مقتله فتروى كالآتى :

كان ملك دمشق قد زوج ابنه من ابنة أخية ، وحدث بينهما جفاء طلقها على أثره ، ثم أراد مراجعتها فاستفتى فى ذلك يحيى بن زكريا ، فأفتى بأنها لا تحل له ولعل ذلك كان الحكم فى شريعتهم ، فحقدت عليه ، وسألت الملك أن يجيئها برأس يحيى بن زكريا ، وكان ذلك بإشارة من أمها .

ونفذ الأمر ، وقتل يحيى ، وجىء برأسه فى طبق ، فجعل الرأس فى الطبق يصيح قائلاً : لا تحل لك ، لا تحل لك . .

وعاقب الله المرأة وأمها فخسف بهما . . ومازال دم يحيى يفور حتى قدم بختنصر فقتل فى ثأر يحيى مالا يحصى كثرة حتى سكن الدم .

وبعضهم يقول : إن أرميا صاح بالدم قائلاً : أيها الدم أفنيت بنى إسرائيل فاسكن بإذن الله ، فسكن . ووقع بنو إسرائيل فى الذل والإسار .

ولكن هذه القصة تدل على أن غزو بختنصر لبيت المقدس كان فى عهد يحيى مع أن المعروف أن هذا الغزو كان فى عهد أرميا قبل ذلك بقرون . .

ويشير بقية الخبر إلى أن أرميا كان بعد يحيى أو معاصراً له ، ولكن المعروف أن أرميا كان قبل يحيى ـ كما ذكرنا سابقاً ـ

وقد سبق أن أشرنا فى حديثنا عن المسجد الأقصى إلى أن الملك « حردوس » ملك بابل دخل بيت المقدس فوجد فيها دماء تغلى ، فسأل عن ذلك فقيل له : إن هذا دم نبى من الأنبياء قتل ظلماً ، فمازال يقتل عليه منهم حتى هدأ الدم ، وقد نقلنا ذلك عن القرطبى فى تفسيره . .

والذى عليه أغلب المفسرين أن بختنصر كان على يديه تخريب بيت المقدس فى المرة الأولى وكان معاصراً للنبى أرميا .

أما الاعتداء الذى جاء عقاباً لاعتداء بنى اسرائيل وعدوانهم على الأنبياء وقتلهم نبى الله يحيى وأباه زكريا ـ عليهما السلام ـ فكان على يد ملوك آخرين .

وقال بعض العلماء : إن يحيى قتل وله من العمر خمس وتسعون سنة .
أما أبوه فقد قتل وله من العمر نحو ثلثمائة سنة .
وقد روى ذلك ابن إياس عن الثعلبى . .

وربما كان عمر زكريا مبالغاً فيه ، فعلى فرض أن يحيى مات وعمره خمس وتسعون سنة فقد رزق زكريا بيحيى وسنه تقارب المائة ، أو تزيد عليها بقليل [٤٢] وقد ماتا معاً فى وقت واحد تقريباً ، وعلى ذلك فسنه كانت فى حدود المائتين ، وربما لم تصل إلى ذلك .

---

(٤٢) ذكر إبن إياس أن زكريا كانت سنه مائة وعشرين عاماً حين رزق يحيى .

أين قتل يحيى وزكريا ؟

وكما اختُلِفَ فى قصة استشهاد يحيى اختلف فى المدينة التى استشهد فيها فمن قائل : انها دمشق ومن قائل : إنها بيت المقدس .

روى الأعمش عن شملة بن عطية أنه قال : قتل على الصخرة التى ببيت المقدس سبعون نبياً منهم يحيى بن زكريا . .

وروى يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أن يحيى قتل بدمشق (٤٣)
وروى ابن إياس قول السدى : أن الشجرة التى نشر فيها زكريا كانت بنابلس ودفن هناك ، ثم نقل إلى حلب وقبره بها مشهور الآن ، وأن يحيى ذبح بفلسطين ودفنت جثته بها ، ورأسه حمل إلى الشام ودفن ، وذراعه دفن فى بيروت ، ورجله فى صيدا (٤٤)

ومفهوم هذا الخبر يوحى بأنه قد مثل بجثته ، وأن أعداءه كانوا على غيظ شديد منه ، فإنه لا يدفع الى التمثيل بالمقتول إلا شدة الحقد . .

دليل على وجود يحيى بدمشق :

روى بعض الرواة عن زيد بن واقد قال : لما بنى الوليد بن عبد الملك بن مروان مسجده بدمشق ، كلفنى بالإشراف على البنائين ، فبينما أنا واقف عليهم ، إذ لاحت لنا منارة بابها مسدود بالحجارة ، فأخبرنا الوليد بذلك فلما دخل الليل أتى الوليد المسجد وبين يديه الشموع ، فوقف على تلك المغارة .

وأمر بفتحها ، ففتحت بحضرته ، فرأى بها مكاناً مربعاً نحو ثلاثة أذرع فى مثلها ، ووجد بها صندوقاً مقفلاً بقفل من حديد ، ففتحه ، فرأى فيها رأس

---

(٤٣) قصص الأنبياء لإبن كثير ص ٥٥٠
(٤٤) بدائع الزهور فى وقائع الدهور لإبن إياس ص ١٨٢

انسان ووجد فى ذلك الصندوق لوحاً من رخام أبيض كتب فيه : هذا رأس يحيى بن زكريا .

فلما رأى الوليد ذلك قبل الرأس ، وأمر برده إلى الصندوق تحت العمود الذى فى شرقى الجامع المعروف بعمود « الكاسك » وهو فى الصف الثانى بالقرب من المقصورة التى بها محراب المسجد (٤٥) .

زكريا فى العهد القديم :

أورد العهد القديم سفراً خاصاً بزكريا يتكون من أربعة عشر إصحاحاً . . وذكر نسبه أنه : زكريا ابن برخيا بن عدو

وقد تضمنت إصحاحات السفر وصايا وتذكيراً لبنى إسرائيل وتحذيراً لهم من المخالفات التى ارتكبها آباؤهم ومن الواضح أنه غير زكريا أبى يحيى الذى جاء ذكره فى القرآن والذى نتحدث عنه . . فزكريا أبو يحيى ذكره انجيل لوقا فى الاصحاح الأول وذكر قصته كما وردت فى القرآن الكريم بفارق بسيط هو أنه ذكر اسم امرأته بأنها « أليصابات » من بنات هارون .

أما يحيى فقد ورد اسمه فى العهد الجديد على أنه يوحنا المعمدان ، وكان يعمد الناس على نهر الأردن ، وقد ذهب اليه المسيح ليتعمد عليه (٤٦) .

فضائل زكريا ويحيى :

أثنى الله على زكريا ويحيى ـ عليهما السلام ـ ووصفهما بأوصاف سنية فقد أدرجهما فى آيات الأنعام فى سلسلة الأنبياء المنحدرين من ذرية إبراهيم ـ عليه السلام ـ ووصفهما بأنهما من الصالحين قال تعالى : « وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين »

---

(٤٥) المرجع السابق

(٤٦) انجيل متى ـ الاصحاح الثالث ـ إنجيل مرقس ـ الاصحاح الأول ـ إنجيل لوقا ـ الاصحاح الثالث ـ انجيل يوحنا ـ الاصحاح الأول ـ

وكل من هؤلاء تعرض للابتلاء الشديد فصبر ، ووصف الله إياهم بالصلاح له دلالته العظيمة على مكانة هؤلاء عند ربهم وصلاحيتهم لأن يتشرفوا بمقام القرب منه .

وأثنى على زكريا وأهله فى سورة الأنبياء ووصفهم بالمسارعة الى الخيرات واللجوء إلى الله حباً وخشية ، وبأنهم كانوا جديرين باستجابة الله لهم حيث قال الله تعالى :

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٨٩ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠ ﴾ (٤٧) .

ويذكر الرواة أن زكريا كان صلباً فى الدين مجتهداً فى العبادة صابراً ، وفيا . . وليس أدل على صبره من أنه حُرم الولد حتى بلغ من الكبر عتياً ، فلم يشك ولم يتضجر ولم يضق صدره . .

ودعاؤه الله وقد كبرت سنه أن يرزقه ولداً لا يعنى أنه كان ضيق الصدر ضجراً ، بل يعنى حرصه على ميراث العلم والحكمة أن يتبدد سدى ، ويذهب إلى غيره ممن لا يحسن القوامة عليه ، بدليل قوله تعالى :

﴿ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ ﴾ (٤٨)

وقد سبق أن تحدثنا عما تعنيه الوراثة .

أما يحيى فقد أفاض العلماء فى شرح ما أفاءه الله عليه من أفضال ، ويكفى فى ذلك أن اسمه كان منحة من الله ، وأنه لم يشركه أحد من قبله فى هذا الاسم الذى مُنحه .

---

(٤٧) الأنبياء ٨٩ ، ٩٠

(٤٨) سورة مريم ٥ ، ٦

وكل مولود جرت عادة الأبوين أن يسمياه ، بل ربما فكرا فى اسمه قبل أن يولد ، أما يحيى فقد أوحى الله إلى أبيه بأن ابنه المرتقب سيكون اسمه يحيى ، وأن أحداً لم يسم قبله بهذا الاسم ،وكفى بذلك تكريماً وتعظيماً ، ووصفه الله بالصلابة فى الدين والقوة فى الحق والجد فى الطاعة والتعظيم لأمر الله .

كما منحه النبوة صغيراً وهذه خصيصة لم تمنح لكثير من الأنبياء قبله ، فقد عُرِف أن الأنبياء يوحى إليهم فى سن الأربعين إلا أن هناك استثناءات خاصة لمن يشاء الله أن يخصهم بفضله . .

وأثنى الله على يحيى بأنه كان باراً بوالديه ، وهى صفة تدل على مزية خاصة وعلى أهمية البر بالوالدين ، وقد قرن الله هذه الصفة بعبادته وعدم الإشراك به فقال سبحانه :

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾ (٤٩)

وحسبك بهذا دليلاً على شرف البر بالوالدين وطاعتهما .

كما وصفه بالتواضع والطاعة والحنو والعطف والتقوى وغير ذلك من صفات البر والفضل التى تؤهل صاحبها لنيل أعلى درجات القرب من الله .

وسلَّم الله عليه يوم ولادته ويوم وفاته ويوم بعثه .

وخصت هذه الأوقات بالتسليم لأنها أعسر المواطن فى حياة الانسان ، فليس أشق على الطفل من خروجه من الرحم إلى الدنيا ، وهو يستهل حياته على الأرض بالبكاء للدلالة على أنه خرج من السعة الى الضيق - ولم يخرج كما يظن الكثير من الضيق إلى السعة .

وقد صدق ابن الرومى فى تصوير ذلك حين قال :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها … يكون بكاء الطفل ساعة يولد

وإلا فما يبكيه منها وإنها … لأرحب مما كان فيه وأرغد ؟

---

(٤٩) الإسراء ٢٣

وما أشق ساعة انتقال المرء إلى الآخرة لأنه لا يعرف مصيره الذى سوف يكون عليه ، وكذلك الأمر بالنسبة إلى ساعة البعث وهو لا يدرك أإلى الجنة يساق أم إلى النار ـ والعياذ بالله ـ ؟

فتسليم الله على يحيى فى هذه المواطن فيه دلالة على ارتفاع منزلته وعظم مكانته عند الله ، وأنه معه يؤمنه من الخوف ويقيه ويحفظه من العطب . .

روى بعضهم عن قتادة أن الحسن قال : إن يحيى وعيسى التقيا ، فقال عيسى : استغفر لى أنت خير منى فقال يحيى لعيسى : بل استغفر لى فأنت خير منى . فقال عيسى له : أنت خير منى . لأنى سلمت على نفسى أما أنت فسلم الله عليك [٥٠] . قال تعالى :

﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾ [٥١] .

ويكفى كذلك أن الله سبحانه وتعالى وصفه بأنه سيد فقال فى حقه

﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [٥٢]

عظات وعبر

وفى قصة زكريا ويحيى عظات وعبر كثيرة نذكر منها :

ـ الدلالة على قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأنه فوق الأسباب إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . .

ذلك أنه من المشاهد المحسوس أن الفاكهة عادة لا تخالف ابان ظهورها فلا تظهر فاكهة الشتاء فى الصيف ولا فاكهة الصيف فى الشتاء . .

---

(٥٠) قصص الأنبياء لإبن كثير

(٥١) سورة مريم ١٥

(٥٢) آل عمران ٣٩

ولكن زكريا حين لاحظ أن مريم قد رزقها الله ذلك ، وجاء لها بالفاكهة فى غير أوانها تذكر أنه من الممكن كذلك أن يرزقه الله بالولد ـ وإن فاته سن الانجاب ـ حتى وإن كانت إمرأته عاقراً ويائساً فى الوقت نفسه .. فمن الممكن أن تحمل وتلد ، طالما أن الأمر يخرج عن نطاق الأسباب إلى مسبب الأسباب .. فلجأ إلى الله فرد الله عليه بالإجابة ومنَّ عليه بقبول دعائه ..

وهذا الأمر يدعونا أيضاً إلى التوكل على الله والاعتماد عليه مع الأخذ بالأسباب التى يسرها أمامنا وطالبنا بالأخذ بها .

فهو فى أمر الرزق قال لنا :

﴿ فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ۝١٥ ﴾ (٥٣) .

ومعنى ذلك أنه ليس لنا أن نتواكل ونكف عن السعى ، وفى الوقت نفسه يجب علينا الاعتقاد بأن كل شىء ميسر بفضل الله وقدرته ، فإن تَحَصَّل شىء فبتيسيره ، وإن تعسر شىء فبتقديره .

وفى أمر العلاج علينا أن نتوجه الى الطبيب مع الاعتقاد بأن الشفاء بيد الله قال تعالى :

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ ﴾ (٥٤) .

وما الطبيب إلا سبب من أسباب الشفاء التى يسرها الله أمام المريض .

وفى طلب العلم كذلك علينا أن نتوجه إلى المدارس ، ونقرأ الكتب ونجلس إلى العلماء ونستفيد منهم ولا نقول إن الله اذا شاء وهبنا العلم بدون طلب ..

أجل إنه إذا شاء وهب بسبب وبدون سبب فهو قادر أن يخرق الأسباب ويكشف الحجاب ويرزق من يشاء بغير حساب ويهب الشفاء لمن يريد إنه المنعم الوهاب ، وهو فى ذلك لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ..

---

(٥٣) الملك ١٥

(٥٤) الشعراء ٨٠

علينا أن نتأدب بأدب القرآن ، وإذا رزقنا الله الأدب كان ذلك أقوى سبب فى تيسير العسير وتحصيل المنافع وتحقيق المآرب .

- يشترط فى الدعاء التفويض إلى الله ، ويقتضى هذا التفويض أن يكون الداعى على يقين وثقة فى قدرة الله وعظمته ، بمعنى أنه إذا حرم الإجابة لا يغضب ولا يتأفف ولا يضيق صدره . .

بل عليه أن يدعو وهو واثق بأن الله يختار له الأصلح ، وقد يكون الصلاح فى غير ما يطلبه الداعى ، ولذلك وردت الآثار مخبرة بأن الله قد ضمن الإجابة للداعى ولكن حسبما يريد الله ، فإن شاء عجل بالإجابة وإن شاء أرجأها وإن شاء عوضه عن الإجابة بما هو أفضل مما يطلبه العبد .

وقد كان زكرياً فى دعائه لله مفوضاً الأمر إلى الله بدليل قوله : « ولم أكن بدعائك رب شقياً »

ومن أدب الدعاء الخفاء لأن الله يعلم السر وأخفى ، ولذلك وصف القرآن دعاء زكريا بقوله « إذ نادى ربه نداء خفياً »

- وتشير القصة إلى وجوب الامتثال لأمر الله والسير على طاعته ، وعدم الركون إلى الدنيا والاستجابة إلى تحقيق شهوة السلطان أو المسارعة إلى هوى الحاكم وبخاصة العلماء الذين أعطاهم الله نور العلم والمعرفة ، ولو كان فى ذلك الحتف والهلاك .

- الترفع عن الصغائر والبعد عن سفاسف الأمور ، ووجوب شغل الأوقات فى الطاعة والعبادة ، ولكل مجتهد نصيب والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً . .

- وتشير القصة إلى ضرورة الصبر على قضاء الله ، والصمود أمام التجارب والامتحانات التى يمتحن الله بها عباده الصالحين . .

فهذا زكريا شق بالمنشار فلم يجزع ولم يتأوه ، وذبح ابنه بجواره فلم ينفتل من الصلاة ، وهذا يحيى قد ذبح وقطعت أوصاله ، ولكنه احتسب ذلك فى جنب الله ، ولم يجزع من قضاء الله وقدره . . إن الصبر على البلاء من أقوى الدلائل على قوة الإيمان ، وقد ورد فى الآثار الكريمة : أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل .

- التأمل فى أحوال الدنيا وتفاهتها ، والتعجب من قوم استهانوا بدماء الأنبياء فى سبيل قضاء مأرب رخيص أو شهوة عاجلة ، فإن دم يحيى بن زكريا - عليه السلام - ودم أبيه ذهبا هدراً بمشورة امرأة فاجرة ، أسكرتها زهرة الدنيا الفانية فأذهلتها عن نعيم الله الخالد ، وبانصياع حاكم تافه ساقته الشهوة العمياء إلى اقتراف خطيئة ضجت من هولها الملائكة فى السماء . .

- ولقد أثبتت التجارب أن الله يمهل ولا يهمل ، وأن الله يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، ومهما ظن الظالمون أنهم فى عصمة من أمرهم وعلى يقين من نجاتهم فسوف يأتى اليوم الذى يعلمون فيه أى منقلب ينقلبون .

إن حكام الدول وملوكها لا يحرسون أنفسهم بالحديد والنار ولا بالجند والأعوان ، ولكن يحرسونها بالعدل وإقامة الشريعة والاحتكام إلى كتاب الله وسنة الأنبياء - عليهم السلام -

ولقد كان عقاب بنى اسرائيل قاسياً حين أعمى الباطل عيون حكامهم فعاثوا فى الأرض فساداً ، وداسوا على مقدسات الدين بأقدامهم ، وانتهكوا حرمات أنبيائهم فصب الله عليهم العذاب صباً ، وخسف بهم الأرض من تحتهم وأذهب ملكهم وسلطانهم ، وجعل سيرتهم عبرة لمن يعتبر .

بسم الله الرحمن الرحيم

المسيح عليه السلام

- البيئة التى نشأ فيها المسيح.
- قصة مريم العذراء.
- قصة الحمل فى القرآن.
- ولادة عيسى.
- مريم فى مواجهة المحنة.
- تسمية عيسى وختانه.
- سياحته فى الأرض.
- تلقيه النبوة.
- التقاء عيسى ويحيى.
- عيسى يمضى فى الدعوة.
- شريعة عيسى.
- معجزات عيسى.
- حديث المائدة.
- المؤامرة.
- جزع مريم على ابنها.
- فضائل عيسى - عليه السلام.
- محاورة بين النبى - صلى الله عليه وسلم - ونصارى نجران فى شأن عيسى
- آيات وعبر.
- المسيح والتبشير بمحمد - صلى الله عليه وسلم -
- المسيح والدعوة إلى السلام.

رسول من الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، أرسله الله ـ كما جاء على لسان المسيح ـ ليعود ببنى اسرائيل من الضلال إلى الهدى

وكان ضلال هؤلاء يتمثل فى مظاهر مختلفة منها .

ـ الخروج على تعاليم السماء الممثلة فى التوراة التى جاء بها موسى ـ عليه السلام ـ

ـ غلبة المادية التى استشرت فى بعض الأوساط حتى بين من يدعون أنهم متمسكون بالدين محافظون عليه .

ـ التزاحم على المناصب الدينية التى غلبت عليها الناحية الشكلية ، والتى أصبح الهدف منها الكسب المادى ، وإقامة الطقوس رغبة فى جمع المال لا ارضاء للرب أو حماية للعقيدة .

ـ كثرة الخلافات الضاربة بين أصحاب المناصب الدينية ومذاهبهم المتعددة ما بين صدوقيين وفريسيين وآسين وغلاة وسامريين وغيرها ، وقد احتدمت الخلافات بينهم حتى حسبت كل طائفة أنها وحدها على الحق وأنها صاحبة الحق فى إقامة الشريعة والمحاسبة عليها والاستفادة منها .

ـ كثرة الأدعياء للمعرفة ، حتى أصبحت أمور النبوة والحكمة نهباً يتنافس فيها من يريد ويدعيها من يشاء . .

ولقد كان تعدد الأنبياء مألوفاً بين بنى إسرائيل حتى كان فى عصر واحد منهم مايقرب من مائة نبى استشارهم أحد ملوك بنى إسرائيل جميعاً فى الذهاب إلى رامة جلعاد للقتال كما أخبر بذلك كتاب العهد القديم [٥٥]

---

(٥٥) العهد القديم ـ سفر الملوك الأول ـ الاصحاح الثانى والعشرون

وإذا كان هذا جائزاً فى حق الأنبياء الحقيقيين فقد فتح الطريق واسعاً أمام المدعين والكاذبين ، ومن هنا ظهر الاختلاف البين بين هؤلاء وقد أخبر بذلك العهد القديم نفسه ـ كما يقول المرحوم العقاد ـ حتى هاجم بعضهم بعضاً ولم يعد أحد يعرف الصادق من الكاذب ، والنبى الحقيقى من النبى المدعى ، ولهذا قال أرمياء النبى : « إن كثيراً ممن يزعمون أنهم أنبياء يتكلمون بروًيا قلوبهم لا عن فم الرب » (٥٦)

ولئن كان هذا قد حدث فى عهد أرمياء وهو سابق على عصر المسيح بفترة طويلة فإن العصر الذى جاء بعد ذلك كان أكثر فساداً من سابقه لأن المعروف أن الزمان ينحدر إلى أسفل ، والقرون السابقة أفضل من القرون اللاحقة .

هذه بعض مظاهر الضلال التى جاء المسيح ـ عليه السلام ـ ليقومها بعد مرور أربعة آلاف عام من بدء الخليقة فى وقت كان الناس يتطلعون إلى مخلص يخلصهم مما هم فيه ، وبعضهم كانوا يعدون أبناءهم للقيام بهذا الدور حتى

نشأت طائفة فى المسجد الأقصى كان يطلق عليها طائفة النذريين ، أى الذين يُنْذَرون لخدمة الهيكل ، ويُعَدُّون لعبادة الله ، ويُقَدَّمون هدية خالصة لبيت الله يقومون فيه بمهمة التبشير والتقديس لله .

ومن بين هؤلاء النذريين كانت مريم البتول ـ أم عيسى ـ عليه السلام ـ

قصة مريم العذراء :

أما قصة مريم العذراء فقد ذكرها القرآن الكريم فى مواضع متعددة . . تحدثت سورة آل عمران عن قصة نذرها لله وكفالة زكريا لها فقالت :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى

(٥٦) العهد القديم ـ سفر أرمياء ـ الاصحاح الثالث والعشرون

نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ (٥٧)

قصة النذر :

انحدرت مريم ابنة عمران من سلالة طيبة طاهرة اصطفاها الله على العالمين ، ونشأت فى حمى الله حيث استقرت فى رحاب المسجد الأقصى نذيرة لله ، كما وعدت بذلك أمها وأوفت بوعدها .

وقصة ذلك كما أخبر المفسرون أن عمران بن ماثان الذى ينتهى نسبه إلى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ـ عليهم السلام ـ كان قد تزوج من حنة بنت فاقوذ إحدى عابدات بنى إسرائيل .

وكان عمران من الأحبار المقدمين فى بيت المقدس ، بل كان إمامهم ـ كما يقول ابن إياس ـ

وكانت حنة لا تحمل ، وتطلعت يوماً إلى وكر طائر فى شجرة فوجدت عصفوراً يزق ولده فاشتهت الولد ودعت الله بذلك ، ونذرت إن رزقها الله ولداً أن تجعله محرراً لخدمة المتعبدين بالمسجد الأقصى ، وكان بعض الناس ينذرون أولادهم لذلك .

---

(٥٧) آل عمران ٣٣ ، ٣٧

ومعنى قولها « محرراً » أي حبيساً لله عتيقاً من الدنيا وأشغالها مفرغاً للعبادة .
واستجاب الله دعاءها فحملت ، ومات زوجها قبل أن تضع . .

وانتهت شهور الحمل ، وولدت حنة بنتاً جميلة الطلعة وكان ذلك مفاجأة لها ، لأنها أعدت ما فى بطنها لله ، فكيف تفى بنذرها والمولود أنثى ؟

وتحيرت حنة فى أمرها ، ولم تجد خلاصاً لها من حيرتها إلا اللجوء إلى الله ، فاتجهت إليه قائلة : رب إنى وضعتها أنثى ، وكأنها بهذه الكلمة تعتذر إلى ربها عن نذرها ، لأن الله أعلم بما وضعت ، وهى تريد أن تقول : ليست الأنثى فى خدمة البيت كالذكر ، فالذكر لديه القدرة على الخدمة ، وليس هناك ما يمنعه من الاختلاط بالناس ، وليست هناك حوائل تحول بينه وبين دخول المسجد على الدوام .

ولكنها صممت على المضى فى عزمها ، ولم تتراجع عن نيتها فى إهداء هذه الإبنة التى ولدت يتيمة الأب لبيت المقدس ، فقالت مخاطبة ربها ـ عز وجل ـ لقد سميتها مريم ـ ولهذا الاسم دلالته على الخدمة والعبادة بلغتهم ـ وعوذتها بالله ـ سبحانه وتعالى ـ هى وذريتها من الشيطان الرجيم . .

وأخبرنا الله ـ تعالى ـ أنه تقبلها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً ، وقبل استعاذتها به من الشيطان ، فحفظها بحوله وقوته منه وأنجاها من فتنته حتى أخبر بذلك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلاً : « مامن مولود إلا ونخسه الشيطان فيستهل صارخاً إلا ابن مريم وأمه »(٥٨)

وروى أيضاً : « ما من مولود إلا وقد عصره الشيطان عصرة أو عصرتين إلا عيسى بن مريم ومريم »(٥٩)

---

(٥٨) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده حـ ١ ص ٢٣٣ عن أبى هريرة
(٥٩) أخرجه إبن كثير فى تفسيره وفى جمع الجوامع حـ ٣ ص ٢٩١٢ برقم ١٩٤٩٨/١١٢٦

وشبت مريم قليلاً حتى ترعرعت فأرسلتها أمها إلى المسجد وفاء بنذرها . .
وكأنها بذلك قد أسلمتها لله وتركت تعلقها بها تأكيداً لعزمها وتحريراً لنيتها .
ذكر القرطبى فى تفسيره قال : إن شاباً قال لأمه يا أمه ذرينى لله أتعبد له وأتعلم العلم .

فقالت : نعم
فسار حتى تَبَصَّرَ ، ثم عاد فدق عليها الباب فقالت : من بالباب ؟
فقال : ابنك فلان . .
فقالت : قد تركناك لله فلا نعود فيك . .

وهكذا فعلت حنة مع مريم ، تركت ابنتها لله ، ودرجت مريم فى المسجد يتنازع الأحبار فى كفالتها كل منهم يود أن يقوم بأمرها ، حتى قال زكريا وهو زوج خالتها أو زوج أختها ـ على خلاف بين العلماء ـ : أنا أحق الناس بكفالتها . .

ولكنهم لم يسلموا له ذلك وأبوا إلا الاقتراع .
فكتبوا أسماؤهم فى سهام ألقوها فى النهر ، فطفا السهم الذى عليه اسم زكريا ، وكانت هذه علامة من تصيبه القرعة .

وقد أخبر الله عن هذا الاقتراع الذى جرى بين أحبار بين إسرائيل بسبب تنازعهم على كفالة مريم فقال :

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (٦٠)

والأقلام هى السهام التى عليها أسماؤهم . .
ويقول الطبرى : إن المقادير ساعدت زكريا فى الفوز بالقرعة ، فقد أجريت

---

(٦٠) آل عمران ٤٤

القرعة ثلاث مرات وفى كل مرة كان يفوز قلم زكريا . .

ففى المرة الأولى كتبوا أسماءهم على الأقلام ، وغيبوها فى موضع وطلبوا من غلام حدث أن يختار قلماً منها ، فخرج قلم زكريا ، فلم يرتضوا القرعة وطلبوا إعادتها أيضاً واتفقوا على إلقاء أقلامهم فى النهر فأى الأقلام جرى على خلاف جرية الماء فهو الغالب فكان قلم زكريا هو المخالف فلم يرضوا القرعة وطلبوا إعادتها أيضاً واتفقوا على إلقاء أقلامهم فى النهر مرة أخرى فأى الأقلام جرى مع الماء وخالف بقية الأقلام يكون هو الغالب فكان قلم زكريا هو الذى خالف جميع الأقلام فسلموا له الكفالة .

واعتنى زكريا بأمرها ، وجعل لها مكاناً خاصاً بها لا يدخله سواها ، كانت تتعبد فيه ، ومنه تقوم بما يطلب منها من خدمة البيت وتنظيفه والعناية بشأن المنقطعين فيه من حمل الماء إليهم وسقيهم .

ونشطت مريم فى العبادة نشاطاً عجيباً ، وكان زكريا يدخل إليها بين الحين والحين يتفقد أمرها ويحمل إليها طعامها ، فكان يجد عندها رزقاً ، كان يجد عندها فاكهة فى غير موسمها ، وهى ليست من فاكهة البلاد التى يعيش فيها .

فكان يسألها : يامريم أنى لك هذا ؟

فكانت تجيب : هو من عند الله الذى يرزق من يشاء بغير حساب . .

ولادة عيسى أمر خارق للعادة :

لقد كانت ولادة عيسى أمراً خارقاً للعادة بمعنى الكلمة . .

فقد حملت به أمه من غير زوج

وولدته من غير أب . .

وكانت ولادة عيسى بهذه الصورة الخارقة لتشهد العالم الغارق فى الجهل المتهالك فى المادة أن هناك قدرة تقول للشىء كن فيكون . .

لقد شهد المجاورون جميعاً فى بيت المقدس لمريم بالطهر والعفاف ، وحكوا عنها فى عبادتها أموراً عجيبة أشهدتهم بأنها تبذل قصارى جهدها فى الإخلاص لله . . فلم ينظروا إليها إلا بعين كلها ثقة واطمئنان . .

وادخرت لها السماء مفاجأة لم تخطر لها على بال ، مفاجأة كسرت قوانين الأسباب وحطمت نواميس الماديات لأن الدعوة التى سوف يحملها هذا المولود دعوة روحية بحتة ، جاءت لتواجه شعباً أسفَّ فى عبادته ، وانتكس بدينه الذى جاء به موسى ليقيم شريعة التوحيد إلى حمأة الشرك والوثنية فأقاموا فى قلب هيكل سليمان مذابح « للبعل » ونصبوا الأوثان فى بيوتهم وأطلقوا عليها اسم (الطرافين)(٦١) ، ومن بقى منهم على دينه أغرق نفسه فى طقوس ومراسم ما أنزل الله بها من سلطان ، طقوس خلت من الروح ، وافتقدت الإخلاص ، وافتقرت إلى الشعور بالحب والمناجاة الخالصة لله .. لقد كانت أذهانهم ومشاعرهم معلقة بالحس والمشاهد الملموسة والإيمان بالأثر والمؤثر ، ونسوا ماوراء الأسباب وغفلوا عن مسبب الأسباب .. فجاء حمل مريم وولادة عيسى خرقاً لكل هذه القوانين وتحدياً لهذه النواميس ، ودليلاً صادقاً على أن وراء الكون وأسبابه قدرة خارقة تقول للشىء كن فيكون ..

أما الشهادة لمريم بالطهر والعفاف فقد شهد بها القرآن الكريم والحديث الشريف فالقرآن الكريم يقول :

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾(٦٢)

وضرب بها المثل للمؤمنات فقال :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾(٦٣)

---

(٦١) محمد الرسالة والرسول لنظمى لوقا ص ٣٥
(٦٢) آل عمران ٤٢
(٦٣) التحريم ١١ ، ١٢

والنبى - صلى الله عليه وسلم - يقول فى حقها : كمل من الرجل كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام (٦٤)

وفى حديث آخر : « كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا ثلاث : مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام »(٦٥)

وفى حديث آخر : يذكر فيه فاطمة معهن قال : حسبك منهن أربع .. سيدات نساء العالمين : فاطمة بنت محمد وخديجة بنت خويلد وآسية بنت مزاحم ومريم بنت عمران (٦٦)

قصة الحمل فى القرآن الكريم :

وقد ذكر الله - سبحانه وتعالى - قصة الحمل بعيسى وولادته فى مواضع منها ماهو تفصيل وماهو إشارة - وقد وردت قصته بالتفصيل فى سورة نزلت باسم مريم خاصة . وسميت بها لما فيها من أمر عجيب غريب أراد الله أن يلفت إليه الأذهان ويثير به الوجدان قال - تعالى -

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾(٦٧)

---

(٦٤) رواه البخارى جـ ٣ ص ٣١٨ كتاب الأنبياء

(٦٥) البخارى جـ ٤ ص ٢١٤

(٦٦) رواه ابن عساكر وذكره بن كثير فى قصص الأنبياء ص ٥٦٠

(٦٧) سورة مريم من ١٦ : ٢٢

وحول هذه الآيات الكريمة قال أهل التفسير والأخبار :

استقرت مريم فى بيت المقدس عابدة متبتلة خادمة ، وكان لها ابن عم نذره أبوه أيضاً لبيت المقدس اسمه يوسف النجار ، وكان رجلاً عفيفا صادقاً يعمل بيده ويتصدق .

وفى يوم نفدَ ماء مريم ، فقالت ليوسف : لقد نفدَ الماء فهيا بنا نستقى ، وكانت هناك مغارة بها عين ماء يستقون منها ، فقال لها : مازال عندى ماء فاذهبى أنتِ .

فذهبت مريم وحدها ومعها سقاؤها .

وقيل إنها أرادت الاغتسال فخرجت إلى عين الماء بعيداً عن الأنظار لتغتسل .

وعند الماء وجدت جبريل ـ عليه السلام ـ فى صورة رجل سوى الخلقة .

ففوجئت برؤيته ـ فاستعاذت بالله خوفاً من أن يكون قد أراد بها سوءاً .

قالت : إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً . .

تعنى إن كنت تقياً فلا تؤذنى .

فقال لها جبريل ـ عليه السلام ـ لا تخافى ، وأبشرى . . فإنى لست ممن يستعاذ منه ، ولكنى رسول الله إليك ، جئتك بما فيه سعادة الأبد لك ، لقد أرسلنى ربى لأهب لك غلاماً زكيا . .

فارتاعت مريم من هول المفاجاة ، وأخذها العجب كله ، كيف يكون لها ولد ولم يمسسها بشر ؟

ولكن جبريل أسرع يبث الاطمئنان فى نفسها ، ويرد اليقين إلى قلبها قائلاً : كذلك قال ربك هو على هين .

أجل ما أهون ذلك على الله ، إن الله إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون ، وماذا تكون الأسباب أمام قدرة الله الوهاب ؟ لقد خلق الله آدم من تراب ، وسواه بيده ونفخ فيه من روحه ، وخلق حواء من ضلع آدم قال لكل منهما كن فكان ، وما خَلْق عيسى بأعجب من خلق آدم وحواء ، وليس كل ذلك بأعجب من خلق السموات والأرض . قال تعالى

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (٦٨)

ومس جبريل طرف كمها ونفخ فيه فإذا بها قد حملت . .

واستسلمت مريم لقضاء الله ، وعادت بعد أن ملأت سقاءها بالماء إلى المسجد . .

وفعلت كلمات جبريل فعلها فى نفس مريم ، وشعرت بأنها مقدمة على تجربة عظيمة فاستعانت عليها بالله ، وهى على يقين من أن الله سيكون معها وهى تواجه محنتها .

ومضت الأيام ورأى يوسف ابن عمها مظاهر الحمل فاستنكر ذلك فى نفسه ، ولم يشأ مواجهتها بما ساوره من ظنون ، فقد كان يعلم من اجتهادها فى العبادة ما يجعلها فوق أى ظن أو شبهة .

---

(٦٨) سورة غافر آية ٥٧

وكلما حاول كظم ما يساوره تأبى مظاهر الحمل التى يشاهدها إلا أنْ تغلبه . . وفى يوم قال لها :

يا مريم : أخبرينى هل نبت زرع من غير بذر ؟
قالت : نعم

قال : فهل تنبت شجرة بدون غيث ؟
قالت : نعم

قال : فهل يكون ولد من غير ذكر ؟
قالت : ألم تعلم أن الله أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر ، والبذر إنما يكون من الزرع الذى أنبته من غير بذر ؟

ألم تعلم أن الله أنبت الشجر من غير غيث وبالقدرة جعل الغيث حياة الشجر ؟

قال يوسف : بلى ، أعلم أن الله على كل شىء قدير . .

وأدرك يوسف أن مريم قد أعدها الله لأمر عظيم ، فقرر أن يكون منافحاً عنها ومعيناً لها حتى تجتاز المحنة التى ستتعرض لها بنجاح .

وتحولت مريم من المسجد إلى بيت خالتها أو أختها وهى على القولين زوج زكريا الذى يكفلها . .

فقالت لها أختها : أشعرت يا مريم أنى حامل ؟
فقالت لها مريم : وهل شعرت أيضاً أنى حامل ؟

ولم تعترض خالتها امرأة زكريا على حمل مريم ، لأنها أدركت كما أدرك يوسف أن الله قد هيأ مريم لأمر عظيم وحدث جليل .

وأنست مريم بحملها فقد رأت فى أثناء الحمل علامات أدركت منها أنها محفوفة بعناية الله ، وأن الله لن يفضحها أو يتخلى عنها . .

قالت مريم : فيما يرويه مجاهد : كنت إذا خلوت حدثني وكلمني وإذا كنت بين الناس سبَّح في بطني [٦٩] ولكن لغرابة الحدث طالت الألسنة بالكلام ولم يكن الجو نقياً حتى يُحسن الناس الظن ويلتمسون العذر فلئن كانت أسرة زكريا قد اصطفاها الله فنجت من عدوى الغيبة وسوء الظن فهناك بيوت كثيرة محيطة بها لم تنج من ذلك ، بل هناك من يظهرون الورع ويبطنون الخبث ، ألسنتهم تقطر حلاوة وقلوبهم تتنزر بالحقد والعداوة .

ويقال إن الله تعالى أوحى إليها إنك إن ولدت بين أظهر قومك عيروك وقتلوك وولدك فارحلي بعيداً عنهم واصطحبت يوسف ابن عمها وارتحلت ، حتى إذا أبعدا في الطريق ، لم ينج من وسواس النفس فَهَمَّ بقتلها فظهر له جبريل ـ عليه السلام ـ قائلاً له : إنه من روح القدس فلا تقتلها [٧٠] .
فاطمأن قلبه وازداد يقينه . .

ولادة عيسى :

وتظاهرت أكثر روايات العلماء على أن عيسى تم له في بطن أمه ثمانية أشهر ، ثم جاءها المخاض إلى جذع النخلة في ليلة الاثنين التاسع والعشرين من شهر كيهك من الشهور القبطية وفيه يشتد البرد [٧١] .

كان ذلك بعد أربعة آلاف سنة تقريباً منذ بدء الخليقة [٧٢] .

وكانت النخلة التي التجأت إليها يابسة فأثمرت ، وأدركت مريم رحمة الله

---

(٦٩) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٥٦٨
(٧٠) قصص الأنبياء للثعلبي ص ٣٩٠
(٧١) بدائع الزهور لابن إياس ص ١٨٣
(٧٢) عبقرية المسيح للعقاد ص ٧٦

وعنايته فأرسل إليها ملائكة يأخذون بيدها فى هذه اللحظة القاسية حتى وضعت وليدها بسلام .

وتذكرت مريم قالة السوء وألسنتهم الظالمة فقالت : يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ..

ولكن وليدها خاطبها بلسان فصيح : لا تحزنى .. وكان فى هذه الكلمة الرقيقة الصغيرة من ذلك الوليد الذى لم يمر من عمره سوى لحظات قصيرة كل العزاء لها فى محنتها .

وأتبع ذلك بقوله « قد جعل ربك تحتك سرياً » أى نهراً صغيراً عذباً تفجر بقدرة الله تحت قدمى مريم ..

ثم قال لها : وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً ..

وفى لحظة تحولت هذه النخلة الجافة اليابسة إلى شجرة خضراء ذات جذع لين مرن تتدلى منه عناقيد البلح الرطب تتجاوب مع يدها الرقيقة الواهنة فتسقط لها رطباً جنياً لذيذ الطعم .

وقد ثبت طبياً أن البلح الرطب يحتوى على المواد الغذائية الرئيسية فى صورة مركزة سهلة الهضم وأنه بذلك يناسب النفساء . فما ألطف الله بعباده عامة وبمريم فى هذه اللحظة خاصة ..

وقد كان فى الإمكان أن ينزل الرطب لها بدون هز طالما أن الشجرة اخضرت بعد يبسها وأثمرت فى غير أوانها كرامة لها .. ولكن الله أراد أن يذكرها بالسبب حتى لا تنسى فى غمرة الأحداث التى تمت لها بدون أسباب ظاهرة التمسك بالأسباب الظاهرة ..

لقدكان الرزق الذى هيأه الله لها فى غير أوانه وبدون سبب منها فى الحصول عليه مقدمة لأن تقتنع بأنه فى الإمكان أن تحمل بدون زواج ، وجاء إثمار الشجرة

اليابسة العجفاء فور نزولها تحتها تأكيداً لإمكانية تخطى الأسباب . . فجاءها الأمر بالهز رداً لها لتعاطى الأسباب بعد تخطيها ، جرياً على سنة الكون ولذلك قال أحد الشعراء منبهاً لهذا المعنى :

ألم تر أن الله قال لمريم — وهزى إليك الجذع يساقط الرطب

ولو شاء أدنى الجذع من غير هزها — جنته ولكن كل شيء له سبب

ومن فهم أهل التذوق فى ذلك قول القرطبى : لما كان قلبها فارغاً فرغ الله جارحتها عن النصب ، فلما ولدت عيسى وتعلق قلبها بحبه واشتغل سرها بحديثه وأمره ، وجهها إلى كسبها ، وردها إلى العادة بالعمل بالأسباب التى أجراها فى عباده (٧٣) .

وقد قص القرآن الكريم علينا هذه الأحداث بقوله :

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾ (٧٤) .

---

(٧٣) تفسير القرطبى ـ سورة مريم ـ ص ٤١٣٥

(٧٤) مريم ٢٢ : ٢٦

حكى الطبرى فى تعليقه على هذه الآيات قول ابن زيد : إن عيسى ـ قال لأمه : لا تحزنى فقالت له : وكيف لا أحزن وأنت معى ؟ لا ذات زوج ولا مملوكة ، أى شىء عذرى عند الناس ؟ يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ، فقال لها عيسى : أنا أكفيك الكلام .

فى مواجهة المحنة :

واطمأنت مريم إلى وعد ربها وأنه سيظهر عذرها وينصرها فى مواجهة قومها .

فحملت وليدها وعادت إليهم ، فلما رأوها ومعها طفل ، وجهوا إليها اللوم وعنفوها وقالوا لها : لقد جئت أمراً عظيماً واقترنت إثماً كبيراً ، لقد كان أبوك رجلاً عفاً طاهراً كريماً ، ولم يكن من أولئك الرجال الذين يقترفون المنكر ويعيثون فى الأرض فساداً فيظهر أثر ذلك فى ولده .

وهموا بإيذائها ولكن الله دافع عنها ، فقد رفعت إمرأة يدها لتضربها فيبست ورماها رجل بالزنا فخرس فتحامى الناس ضربها وقذفها ، وأقبلوا عليها بكلام لين فقالوا لها : يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً .

وقيل كان رجل من بنى إسرائيل يضرب به المثل فى التقوى والصلاح اسمه هارون فنسبوها إليه إذ كانت على طريقته فى التقوى والصلاح .

فأشارت مريم إلى عيسى فقد كانت ممنوعة من الكلام ـ فتعجبوا منها ، أيمكن أن يرد عنها طفل فى مهده ؟

فقالوا : كيف نكلم صبياً فى المهد ؟

ولكن المعجزة تمت ونطق الطفل بأفصح كلام وأقوى حجة يبرىء ساحة أمه من القذف ويطهرها من الرجس .

قال : إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً . .

أول كلمة نطق بها العبودية لله ، وكأنه يريد بذلك أن يرد على من يزعمون ألوهيته فى المستقبل أو يدَّعون أنه ابن الرب .

لقد قال إنه عبد الله لا أكثر ولا أقل ، غير أن الله آتاه الكتاب كما آتاه لغيره من الأنبياء . .

وأعطاه النبوة كما أعطاها لغيره ، ومنحه البركة ، وأوصاه بالصلاة والزكاة والبر بوالدته ووهبه الرفق والحلم وعصمه من أن يكون جباراً فى الأرض بعيداً عن الخير مدفوعاً إلى الشر . . إنه جدير بالسلام عليه من الله يوم ولادته ، وسوف يصحبه السلام فى حياته ويوم وفاته ويوم بعثه .

هذه كلمات تفوه بها وليد فى مهده لم تمض على ولادته أيام ، وهى تتضمن منهج حياة عيسى ـ عليه السلام ـ وخلاصة دعوته فى المستقبل .

وهى إلى جانب ذلك معجزة له وكرامة لأمه . فقد برأ ساحتها بمنطق واضح مبين لا يقبل الشك ولا يتيح الجدل بل أخرس ألسنة السوء وقطع دابر الباطل . . وبعد أن نطق بهذه الكلمات صمت عيسى ولم يتكلم بعدها حتى بلغ مبلغ الصبيان الناطقين ، وهذا تمام المعجزة .

وقد تضمنت الآيات الكريمة التالية هذه الأحداث . قال تعالى :

﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ (٧٥)

تسميته وختانه :

ويذكر الإنجيل المنسوب إلى لوقا أنه حين تمت للطفل ثمانية أيام ذهبت به أمه إلى بيت المقدس ليختنوه وأطلقوا عليه اسم « يسوع » وهو تخفيف لإسم

---

(٧٥) مريم ٢٧ : ٣٧

« يهوشع » وهو اسم مركب من كلمتين : يهو ومعناه الرب ، وشع ومعناه الهبة أو النجدة ، فهذا الاسم معناه هبة الرب أو نجدة الرب أو منحة الرب .

وهى تسمية لها مدلولها الذى استوحته أمه من حديث الملك لها حين جاءها ليبشرها بابنها كلمة الله .

السياحة فى الأرض :

وذاع أمر الصبى ، وخشيت اليهود أمره ، وبيتوا الشر له ، وأوغروا عليه صدر الملك « هيرودوس » فأرى الله يوسف النجار رؤيا يؤمر فيها أن يخرج بالصبى وأمه إلى مصر حتى لا يبطش به الملك ـ فاصطحبها ، وخرجوا جميعاً متوجهين إلى

مصر ونزلوا فى المنطقة التى تسمى بعين شمس المجاورة للمطرية الآن ، وهناك بئر شربوا منها واغتسلوا وغسلت مريم ثياب عيسى من تلك البئر ورشت الماء حول

البئر فأنبت الله نباتاً اسمه « البيلسان » لم يكن يوجد إلا فى هذا المكان ويعصر هذا النبات فيخرج منه زيت ينتفع به النصارى ويتهادونه.ثم استأنفوا رحلتهم بعد

ذلك فى ربوع مصر حتى وصلوا إلى الأشمونين وهى قرية من قرى ملوى التابعة الآن لمحافظة المنيا ، ثم إلى قرية كان اسمها « قسقام » وهى الآن اسمها

« القوصية » وبها دير المحرق المشهور الذى يقام به عيد كل عام يفد إليه نصارى مصر من مختلف الجهات ثم بعد ذلك عادوا إلى الشام بعد أن هدأت الأحوال (٧٦)

---

(٧٦) تفسير القرطبى ـ سورة مريم ـ ص ٤١٤٥

وقد ذكر بعض المفسرين فى قوله تعالى :

(٧٧)

﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠ ﴾

أن هذه الربوة هى مصـــر ، ذكر ذلك السيوطى فى حسن المحاضرة[٧٨]

وأشار إليه القرطبى فى تفسيره نقلاً عن ابن زيد .

والمدة التى قضاها السيد المسيح فى مصر لا تتعدى أربع سنوات إن لم تكن أقل من ذلك عند بعض المؤرخين استناداً إلى أن الملك « هيرودوس » الذى خرج الركب فاراً منه توفى سنة ٤ ميلادية ، وحينما بدأت الرحلة إلى مصر كان هذا الملك يأمر بقتل الأطفال الذين يقلون عن عامين ، لأن المنجمين كانوا قد تنبأوا له بأن طفلاً طلع نجمه سيكون ملكاً على اليهود ، فطلب من هؤلاء المنجمين أن يبحثوا عنه ، فلما فشلوا فى العثور عليه أمر بقتل كل طفل يقل عمره عن سنتين ، وكان الله قد أمر يوسف النجار فى رؤياه أن يرحل بالطفل إلى مصر بعيداً عن سيطرة هيرودوس .

ولكن الثعلبى وغيره من العلماء يرون أنه أقام فى مصر اثنتى عشرة سنة كانت مريم فى خلالها تغزل الكتان وتلتقط السنابل خلف الحصادين لتعول ولدها .

وحكى قصة تدور حول عبقرية عيسى فى صباه ، وأن نور الله قذف فى قلبه مبكراً فهو يرى بنور الله .

---

(٧٧) المؤمنون ٥٠

(٧٨) حسن المحاضرة جـ ١ ص ٣٠

قال : أوى عيسى وأمه ويوسف إلى أحد الدهاقين ـ أى التجار ـ الذين يحسنون إلى الفقراء وقد حدث أن سرق بعض الناس مال الدهقان فلم يهتم به أحداً ، وحزنت مريم لذلك ، فقال لها عيسى : أتحبين أن أدلك على من سرق المال ؟

قالت : نعم

قال لها : مرى الدهقان يجمع المساكين ، فجمعهم ، فعمد عيسى إلى رجلين منهم أحدهما أعمى والآخر مقعد ، فأمر الأعمى أن يحمل المُقْعَد على عاتقه ويسير به ، فقال : أنا أضعف من ذلك ، فقال : فكيف حملته البارحة وسرت به وأخذت المال ؟

ومازالوا بالأعمى حتى آقر بما فعل .. لقد استعان اللصان أحدهما بالآخر ، الأعمى بقوته والمقعد برؤيته (٧٩)

العودة إلى الشام وتلقين النبوة :

وعاد عيسى بن مريم إلى الشام بعد هلاك هيرودوس ، وأقام فى قرية اسمها الناصرة وإليها ينسب النصارى .

وكان عيسى ـ عليه السلام ـ يقبل على التعليم كعادة أترابه فى ذلك الزمان ، ولكن الله آتاه فطنة وذكاء وفهماً وألهمه الحكمة والعلم ..
حتى إذا مابلغ ثلاثين سنة أوحى الله إليه بالنبوة وأمره بالإبلاغ ..

فخرج إلى بنى إسرائيل ينادى فيهم بما أمره الله ومعه معجزته التى تثبت نبوته

---

(٧٩) قصص الأنبياء للثعلبى ص ٣٩٥

وتؤكد رسالته وقد أخبرنا بذلك القرآن الكريم فى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ ﴾ (٨٠)

دعا عيسى بنى إسرائيل ، وبث دعوته التى كلف بها ، ولكن المجتمع المتناقض الذى كان يعيش فيه أبى أن يستجيب له اللهم إلا القليل منهم . .

وقد كان معاصراً له يحيى بن زكريا . . وهما ابنا خالة كما عرفنا من قصة زكريا ويحيى ـ عليهما السلام ـ وحدث لقاء بين يحيى وعيسى ينبغى أن نشير إليه . .

لقاء عيسى ويحيى :

نشأ يحيى فى ظل أبوين كبيرين ، استجاب الله دعوتهما ، وأوحى الى زكريا قائلاً :

« إن الله قد أجاب سؤالك وستلد امرأتك ولداً وتسميه يوحنا وتفرح به ويفرح به كثيرون لأنه يولد من بطن أمه ممتلئاً بالروح القدس ويرد بنى اسرائيل إلى ربهم ويتقدم بروح يليا « إلياس » وقوته »(٨١)

---

(٨٠) آل عمران ٤٨ : ٥٠

(٨١) انجيل لوقا

وقد سبق حديثنا عما جاء فى القرآن الكريم بشأن ذلك ، وماجاء فى الإنجيل لا يبعد عنه .

وظهر يحيى بدعوته ، ورآه الناس فى ثوب خشن من الوبر يلف حقويه بمنطقة من الجلد ، يصوم أكثر الأيام ، ويقتات من الجراد والعسل البرى ، ويهيب بالناس فى صوت قوى صارم : توبوا واستعدوا . .

واستنكر كما عرفنا ما فعله هيرودوس ودفع يحيى حياته ثمناً لهذا الاستنكار . ولم يستنكر الأحبار والرهبان ما فعله الملك بيحيى ، وكأن الملك شفى غيظهم منه لأنهم لم يسلموا من نقده لهم على سوء تصرفاتهم ، ولهذا قابلوا مقتل يحيى بشىء من الارتياح ، ولم لا ؟ وطالما كان يقول لهم :

« ياأولاد الأفاعى ، لا يهجس بأخلادكم أنكم تنتسبون إلى ابراهيم . . إنى أقول لكم إن الله قادر أن يخرج من هذه الحجارة أبناء لابراهيم [٨٢]

وقد التقى يحيى بعيسى على شاطىء نهر الأردن . . وكان يحيى يبشر تلاميذه بقدوم عيسى ، وكأنه كان ينتظره ليقوم بعده بما قام به . . وكان يقول عنه إنه كلمة الله .

وقد سبق أن أشرنا إلى أنهما حين التقيا طلب كل منهما إلى الآخر أن يستغفر له . . لقد عرف كل منهما فضل الآخر . .

قال العقاد : ولا يبعد أن يكون الصبى المبارك ، وكان فى الثانية عشرة من عمره قد وعى جميع الدروس التى يتعلمها الصغار فى مدارس القرى . . ويغلب على الظن أنه كان على صلة وثيقة بيوحنا المعمدان ، وأن يوحنا قد رآه وعرفه

---

(٨٢) عبقرية المسيح صـ ١١٥

وعرف فضله وطهارة سيرته قبل أن يلقاه فى الأردن عندما تصدى لرسالة التعميد ، وهى بطبيعتها رسالة إعداد وتمهيد .

ومن البديهى أن كلمات يوحنا للفتى لم تذهب بغير صدى فى نفسه الواعية ، فمن أهم آثارها فى مثل تلك النفس أن غرزت فيها الأمل ودعمت فيها اليقين وبعثتها على التأمل فيما خلقت له وفيما ترجوه ويرجى منها بين البشائر والنذر التى ترددت يومئذ فى كل مكان وعلى كل لسان (٨٣)

لقد كانت حياة المسيح قبل لقائه يوحنا على نهر الأردن تأهباً واستعداداً ، أما بعد لقائه فكانت رياضة وامتحاناً .

وما أن سمع عيسى بن مريم بأن يوحنا قد قتل حتى انصرف إلى الجليل ، وترك الناصرة وسكن كفر ناحوم ويدأ رسالته داعياً إلى التوبة والرجوع إلى الله .

عيسى يمضى فى الدعوة :

ومضى عيسى ـ عليه السلام ـ فى دعوته ، وكما كان لكل نبى أنصار ينصرونه ، فى دعوته كان لعيسى حواريون ذكرهم القرآن الكريم بقوله :

﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ۝٥٢ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٣ ﴾ (٨٤)

---

(٨٣) عبقرية المسيح صـ٢٠٣

(٨٤) آل عمران ٥٢ ، ٥٣

وأثنى عليهم بقوله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤) ﴾ (٨٥)

وقيل إن الحواريين قد سموا بذلك لبياض ثيابهم وكانوا يعملون بالصيد وقد آمنوا بعيسى واتبعوا تعاليمه . .

وقيل : كانوا قصارين يبيضون الثياب ، وذكر العلماء فى ذلك قصة ، قالوا : إن مريم دفعت ابنها الى قصارين وصباغين يعمل معهم ، فأراد معلمه السفر ، فقال له : هذه ثياب كثيرة مختلفة الألوان وقد علمتك الصباغة فاصبغها على حسب اللون المثبت عليها .

فوضعها عيسى فى حوض واحد وأدخل فيه جميع الثياب ، وقال : كونى بإذن الله على حسب ما أريد منك .

فقدم المعلم والثياب فى الجب ، فلما رآها ، قال له : قد أفسدتها . فأخرج له عيسى ثوباً أحمر ، وثوباً أصفر ، وثوباً أخضر إلى غير ذلك من الألوان التى كانت مثبتة على الثياب .

فعجب المعلم من ذلك ، وعلم أن ذلك من الله ، ودعا الناس اليه فآمنوا به (٨٦)

---

(٨٥) الصف ١٤

(٨٦) تفسير القرطبى حـ ٤ صـ ٥٧

وقيل إن لفظ الحواريين مأخوذ من بياض القلوب وصفائها فهى لا تحمل ضغناً ولا حقداً لأحد ، وفى ذلك كفاية عن شدة الإخلاص ، قال النبى - صلى الله عليه وسلم - : لكل نبى حوارى والزبير حواريى من أمتى وابن عمتى [٨٧]

لقد استقبل اليهود دعوة عيسى أسوأ استقبال ، على الرغم من أنه كان يتسم بالرفق واللين ومقابلة السيئة بالحسنة ، لم يكن عنيفاً فى مقابلة الكفر كما كان يفعل يحيى - عليه السلام -

ولم يكن نافراً عنهم كما نفر يحيى ، وقد عرفنا أنه كان يأنس إلى القفار ويعتزل بعيداً عن الناس فى البرارى ، ولكن عيسى كان يخالطهم ويشهد ولائمهم وأعراسهم ، ويجلس مع صالحيهم وضعفائهم - كان طبيباً يداوى المرضى ويأسو الجراح ويذيب بكلماته الرقيقة جلامد القلوب .

ومع ذلك فلم تلق دعوته القبول لأن القلوب كانت قاسية ، والمطامع كانت طاغية ، والشهوات كانت لاهية والثورة ضده كانت عاتية .

وتلقاه صناديد الشر بكل مكر ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله . . وأجمعوا أمرهم على التخلص منه حتى لا يعكر صفوهم بكلماته ، ولا يقرع أسماعهم بعظاته . .

ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين . .

---

(٨٧) مسند أحمد حـ ٥ صـ ٤ والطبرانى فى الكبير حـ ٢ صـ ١٢ وجمع الجوامع للسيوطى حـ ٣ صـ ٨٩٧

شريعة عيسى :

لقد قامت شريعة عيسى على الحب الخالص وإحياء الروح ، لأنها جاءت فى مجابهة قانون مادى عنيف تغالى فى قسوته وعنفه . . إن دعوته لم تدع إلى التوحيد فحسب ولا إلى تنزيه الله فقط ، بل كانت تدعو إلى أن يكون الله هو المحبوب الأسمى الذى يتجه إليه وجدان كل انسان ، فيتلاشى من قلبه حب كل معشوق

سواه ، ولا يبقى للحس سلطان على قلب ذلك المحب ، ولا للطقوس قيمة لأنه إذا حضر المحبوب لم يكن لتملى رسمه على الورق أو مناجاة طيفه معنى ، فكانت ديانة عيسى هى ديانة القلب الإنسانى الخالية من المراسم والطقوس كما خلت من تشريع المعاملات (٨٨)

إن المعاملات الانسانية تقوم عادة على المال والقصاص والأخلاق ، وقد اعتنى عيسى ـ عليه السلام ـ بالأخلاق ونأى بجانبه عن المال والقصاص . . بمعنى أنه دعا الى الزهد التام فى الدنيا ، ودعا إلى التسامح الأقصى بين الناس . .

انظر إليه يقول : « يعوزك شيء واحد ، اذهب بع كل مالك وأعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء »

« ماأعسر دخول ذوى الأموال إلى ملكوت الله . . مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من دخول غنى الى ملكوت الله (٨٩)

---

(٨٨) محمد الرسالة والرسول ٣٧

(٨٩) انجيل مرقس ـ الاصحاح العاشر ـ

وليس الزهد فى المال فحسب بل الزهد فى كل شىء من مظاهر الدنيا حتى التعلق بالأهل والولد . .

قال له أحد تلاميذه : أريد أن أتبعك ولكن ذرنى أياماً أودع من فى المنزل فقال له : ليس لأحد يقبض على دفة المحراث ثم ينظر إلى الوراء يستقيم خطه . .

وقال له رجل : أريد أن أتبعك ولكن أنظرنى حتى أدفن أبى لأنه يحتضر وعلى وشك الموت فقال له : دع الموتى يدفنون موتاهم . .

فهل هناك زهد فى الدنيا أوفى من هذا ؟
أما التسامح فقد بلغ أقصاه فى كلماته الآتية :

« أيها السامعون ، أحبوا أعداءكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، ادعوا لمن يسيئون إليكم من لطمك على خدك الأيمن فحول له الأيسر ، وكل من سألك فأعطه ، ومن أخذ مالى يدك فلا تطالبه وما تريدون أن يصنعه الناس لكم فاصنعوه لهم أنتم . . »(٩٠)

لقد أراد عيسى ـ عليه السلام ـ أن يستنقذ الخراف الضالة من وهدة المادة التى ألهتهم عن جمال الروح وصرفتهم عن التفكير فى أمر السعادة الأبدية فى الآخرة . فقامت دعوته على التزهيد الكامل لهم فى المتاع الفانى والاقبال الكامل على المتاع الباقى وضرب الأمثلة المتعددة لذلك حتى يقتنعوا بدعوته ويقبلوا على كلمته .

---

(٩٠) عبقرية المسيح صـ ١٠٩

معجـــــزاته :

وكانت معجزاته طريقاً له إلى قلوب الناس ، فكم أبرأ من مرضى ، ووهب الأبصار للعميان المكفوفين . .

قيل إنه مر بدير فيه عميان فقال : ما هؤلاء ؟ فقالوا : هؤلاء قوم طلبوا للقضاء فطمسوا أعينهم بأيديهم

فقال لهم : ما حملكم على ذلك ؟
فقالوا : خفنا عاقبة القضاء فصنعنا بأنفسنا ما ترى

فقال لهم : أنتم العلماء والحكماء ، امسحوا أعينكم بأيديكم وقولوا باسم الله ، ففعلوا ذلك فاذا هم جميعاً ينظرون[٩١]

وكان العاذر صديقاً له ، فأرسلت أخته إلى عيسى تقول له : إن أخاك العاذر يموت فاحضر إليه ، فلما جاءه كان قد مات ودفن منذ ثلاث . فجاء إلى قبره ودعاه فقام العاذر من قبره ، وعاش وولد له .

وصنع من الطين خفاشاً ، فطار ، ولكنه كان يطير حين يراه الناس ، ويسقط حين لا يرونه . .

وكان يخبر بني إسرائيل بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم . .
وهذه معجزات أيد الله بها عيسى ـ عليه السلام ـ بين قومه ، وقد كان قومه بارعين فى الطب ، فكانت معجزته من جنس ما برعوا فيه . .

---

(٩١) قصص الأنبياء للثعلبى صـ ٤٠٠

وكانت له معجزات أخرى غير هذه ذكرها العلماء فى كتبهم كالمشى على الماء وقلب الأعيان كتحويل التراب إلى ذهب وقطع المسافات الطويلة فى فترة وجيزة وتكثير القليل وغير ذلك .

وقد كانت لنبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ معجزات مادية شبيهة بمعجزة عيسى ـ عليه السلام ـ إلى جانب المعجزة المعنوية الخالدة الباقية وهى القرآن الكريم . .
وقد اعتنت كتب السيرة بتدوين هذه المعجزات النبوية الخارقة وهى معروفة مشهورة تناقلها الناس خلفاً عن سلف .

قصة المائدة :

قص القرآن الكريم ـ علينا قصة مائدة بنى إسرائيل وسمى سورة كاملة باسمها لما فيها من عبر وعظات .

وقصة ذلك كما رواها أهل التفسير : أن عيسى ـ عليه السلام ـ أمر الحواريين أن يصوموا ثلاثين يوماً ، فلما أتموها طلبوا من عيسى أن ينزل عليهم مائدة من السماء لا ينفد طعامها ، ويدركون منها أن الله قبل صومهم .

فقال لهم عيسى : اتقوا الله وأقبلوا عليه بصدق وإخلاص ، فالمؤمن لا يجرب ربه .

ولكنهم ألحوا عليه ، فدعا عيسى ربه ، قائلاً : اللهم أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين ،

واستجاب الله لدعاء عيسى ، فأنزل المائدة ، ولكنه حذرهم من الكفران بعد الاستجابة ،فإن عقاب المرتد أليم ، وعذابه لا يعذبه أحد من العالمين .

قال العلماء : ونزلت المائدة من السماء بين غمامتين إحداهما أعلاها والأخرى أسفلها ، والناس ينظرون إليها ، فلما دنت قال عيسى ـ عليه السلام ـ : اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها فتنة . .

وهبطت المائدة بين يدى عيسى ـ عليه السلام ـ عليها غطاء ، فخر عيسى ساجداً شكراً لله ـ تعالى ـ على نعمته وسجد الحواريون معه . .

وانبعثت رائحة طيبة من المائدة شوقت الحواريين إلى رؤية ما عليها من الطعام . .

فقال عيسى : أيكم أعبد لله وأجرأ على الله وأوثق بالله فليكشف عن هذه المائدة الغطاء ، حتى نأكل منها ونذكر اسم الله عليها ونحمد الله عليها .
فقال الحواريون : ياروح الله أنت أحق بذلك . .

فقام عيسى وتوضأ فأحسن الوضوء ، وجدد لله الصلاة ، ودعا الله بمحامد كثيرة وأحسن الثناء عليه ، ثم جلس إلى المائدة فكشف عنها الغطاء فإذا عليها سمكة مشوية ليس فيها شوك ، يسيل منها الدسم ، وقد نضد حولها من مختلف البقول ما عدا الكراث ، وعند رأسها ملح وخل ، وعند ذنبها خمسة أرغفة على واحد منها خمس رمانات ، وعلى الآخر تمرات ، وعلى الباقى زيتون .

وبلغ خبر المائدة اليهود فأقبلوا غماً وكيداً ينظرون فرأوا عجباً . .
قال شمعون ـ وهو رأس الحواريين ـ : ياروح الله أمن طعام الدنيا أم من طعام الجنة ؟

فقال عيسى : عليه السلام ـ أما آن لكم أن تعتبروا بما ترون وتنتهوا عن المسائل ؟

فقال شمعون : وإله بنى إسرائيل ماأردت بذلك سوءاً
ثم قال بعضهم : لو كان مع هذه الآية آية أخرى ؟
فقال عيسى عليه السلام : ياسمكة احيى بإذن الله ـ فاضطربت السمكة طرية تلمع عيناها ففزع الحواريون .

فقال عيسى ـ عليه السلام ـ : مالى أراكم تسألون عن الشيء فإذا أعطيتموه كرهتموه ؟ ماأخوفنى أن تعذبوا .

ثم قال عيسى : ياسمكة عودى كما كنت . . فعادت .
قال الحواريون : ياروح الله كن أول من يأكل منها .
فقال عيسى ـ عليه السلام ـ : معاذ الله إنما يأكل منها من طلبها وسألها .
فأبى الحواريون أن يأكلوا منها خشية أن تكون فتنة وعقوبة .

فلما رأى عيسى امتناعهم دعا الفقراء والمساكين والمرضى والزمنى والمقعدين وغيرهم وقال لهم : كلوا من رزق ربكم ودعوة نبيكم واحمدوا الله عليها .

فأكلوا منها وهم سبعة آلاف وثلثمائة نفس ، فبرىء كل سقيم ، واستغنى كل فقير . .

ورأى الناس بركة هذه المائدة وأثرها الطيب الملموس ، فتزاحموا عليها تزاحماً شديداً ، فما بقى صغير ولا كبير ولا غنى ولا فقير ، ولا شيخ ولا شاب إلا اقبلوا إليها يأكلون ، وجعل يضغط بعضهم بعضاً . .

فجعلها عيسى ـ عليه السلام ـ نوباً بينهم ، وكانت تنزل يوماً بعد يوم ، وظلت كذلك أربعين يوماً ، تنزل فى الضحا ، وتظل يتوافد إليها الناس يأكلون حتى

يفىء الفىء ، فإذا فرغ الناس من الطعام طارت محلقة إلى السماء والناس ينظرون إليها حتى تتوارى . .

ثم أوحى الله إلى عيسى : أن اجعل مائدتى للفقراء دون الأغنياء . . فتمارى الأغنياء فى ذلك وحقدوا على الفقراء وشككوا الناس ، فعذبهم الله

عذاباً لم يعذبه أحداً من العالمين وذلك بأن مسخهم خنازير يأكلون القذر من القمامات بعدما كانوا يأكلون الطعام الطيب الهابط من السماء ومكثوا كذلك أياماً حتى أهلكهم الله [٩٢] . .

وحول هذه القصة نزل قوله ـ تعالى ـ :

﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [٩٣]

---

(٩٢) تفسير القرطبى ـ سورة المائدة ـ

(٩٣) المائدة ١١٢ ، ١١٥

لقد قال الله ـ تعالى ـ إنى منزلها عليكم ، ومؤدى ذلك الخبر أنها نزلت فعلاً ، وأنه قد جرى من بعض من شاهدوها التكذيب والتغيير والتبديل فاستحقوا العذاب الذى أوعد الله به الكافرين . .

ونزول المائدة أمر حقيقى ، وليس كناية عن تكثير الطعام بين يدى عيسى ـ عليه السلام ـ فالمائدة النازلة من السماء شىء والبركة الحادثة فى الطعام شىء آخر . . وتأويل الشيخ النجار فى كتابه قصص الأنبياء حديث المائدة بذلك بعيد غاية البعد ، فقد ذكر فى كتابه أن قصة المائدة هى التى وردت فى انجيل متّى من أن تلاميذ المسيح ـ عليه السلام ـ وكانوا كثيرين طلبوا منه أن يسمح لهم بالنزول إلى القرى لابتياع الطعام ، فطلب ما معهم من الطعام ، وكان خمسة أرغفة وسمكتين ودعا عليه بالبركة ، فأكل منه الجميع وشبعوا . .

إنها محاولة منه واجتهاد فى التوفيق بين ما جاء فى القرآن الكريم وما جاء فى الانجيل . .

ولكن ليس كل ما ورد فى القرآن الكريم ورد نظيره فى الأناجيل أو العهد القديم ، وقد جاء نص القرآن الكريم صريحاً فى قوله :

﴿ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَـٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَـٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ

ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ (٩٤)

لقد كان طلب الحواريين من عيسى ـ عليه السلام ـ نزول المائدة صراحة كما ذكر القرآن : هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟

وفى إجابة الله دَعْوَةَ عيسى بقوله : « إنى منزلها عليكم » دليل لا شك فيه على نزول المائدة من السماء . .

وقد تم فعلاً وهو رأى جمهور المفسرين ، وليس فى ذلك غرابة ، فقد كان يحدث مثله لمريم حين كان زكريا يدخل عليها المحراب فيجد عندها رزقاً ، وكان يسألها عن مصدر ذلك فتقول : هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

قال ابن جرير الطبرى فيما أسنده إلى عمار بن ياسر ـ رضى الله عنه ـ أنه قال لرجل من بنى عجل : هل تدرى كيف كان شأن مائدة بنى إسرائيل ؟
قال : لا

قال : إنهم سألوا عيسى بن مريم مائدة يكون عليها طعام يأكلون منه لا ينفد . فقيل لهم : فإنها مقيمة لكم مالم تخبئوا أو تخونوا أو ترفعوا ، فإن فعلتم فإنى معذبكم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين .

---

(٩٤) المائدة ١٥ ، ١٦

قال : فما مضى يومهم حتى خبأوا ورفعوا وخانوا فعذبوا عذاباً لم يعذبه أحد من العالمين . . . وانكم معشر العرب كنتم تتبعون أذناب الابل والشاء ، فبعث الله فيكم رسولاً من أنفسكم ، تعرفون حسبه ونسبه ، وأخبركم أنكم ستظهرون على العجم ونهاكم أن تكتنزوا الذهب والفضة ، وأيم الله لا يذهب الليل والنهار حتى تكنزوها ويعذبكم الله عذاباً أليما[٩٥] . .

المؤامـــرة :

لقد كانت دعوة عيسى ـ عليه السلام ـ خطراً جسيماً على نفوذ الكهنة والفريسيين لأنه فضح نفاقهم المكشوف وورعهم الكاذب ، وعلى الرغم من أن دعوته كانت إلى المسالمة إلا أنها كانت أقوى فى مدلولها من سيوف المحاربين ورماح المجندين ، لأنه خاطب بها الضمائر الحية والقلوب النقية التى استجابت له بسرعة وتفتحت على مصاريعها أمام كلماته الصادقة الخالصة . .

كانت دعوته تسير فى خفاء ، فلم يخش هؤلاء الكهنة منها شراً ، ولكنها بدأت تعلن عن نفسها تلقائياً ، وازداد عدد المؤمنين به ، وكان لابد أن يرحلوا معه إلى بيت المقدس فى عيد الفصح جرياً على العادة . .

وتظاهر تلاميذه وهم داخلون بيت المقدس على نحو أحفظ الكهنة والأحبار ، ولكن المسيح ـ عليه السلام ـ كان قد أوصى تلاميذه باحترام هؤلاء الكهنة وعدم الإساءة إليهم ، قال لهم : « على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون ، فكل ماقالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه ، ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا لأنهم يقولون ما لايفعلون »

---

(٩٥) تفسير الطبرى ـ الأثر ١٣٠١١ ـ ١١ °٢٢٨ ـ تفسير ابن كثير حـ٣ صـ٢٢١

لقد حاول أن يلتزم السلام الذى جاء باسمه ، وعندما حاولوا أن يحرجوه مع السلطة قال لهم : أعطوا مالقيصر لقيصر ومالله لله ، إجابة ذكية وفيها لباقة وحياد .

وحاول المسيح ـ عليه السلام ـ أن يتشبث بالهدوء الذى التزم به والسلام الذى دعا إليه ، ولكن المؤامرة ضده من هيئة المنتفعين كانت تمضى فى طريقها محبوكة قوية .

لقد رسمت المؤامرة خطتها على أساس إحراجه بالأسئلة التى توغر إجابتها صدر السلطان ضده وتجر السلطان إلى إلقاء تهمة العصيان والتمرد على عيسى وتلاميذه . .

وتحولت الأسئلة إلى مناظرة حامية لم تلبث أن تطورت إلى معركة كلامية ثم وصلت إلى التشابك بالأيدى ، يقول العقاد : « ثم حدث مالابد أن يحدث ، بين أناس متنمرين وأناس متجردين لدعوة جديدة ، يتطوعون لنشرها ويتحمسون لصاحبها ، فاشتبك السيد المسيح وسماسرة الهيكل فى معركة أدبية لم تلبث أن

انقلبت إلى معركة يدوية بينهم وبين أنصاره ، وصاح السيد المسيح بسماسرة الهيكل يذكرهم أنهم فى بيت الله ، وأنهم نقلوه من معبد صلاة وطهارة إلى مغارة لصوص »[٩٦] . .

ورفع المتآمرون أمر المسيح إلى الحاكم ، بتهمة الرغبة فى الاستيلاء على الحكم . .

---

(٩٦) عبقرية المسيح صـ ٢١٣

ويالها من تهمة . . إنها التهمة التى لا يقبل الحاكم التثبت منها ، فهى ثابتة بدون أدلة سلفاً .

زينوا للحاكم أن عيسى يسعى لأن يكون ملكاً على اليهود وهم لا يقرون له بذلك . .

وسرعان ما أرسل الوالى جنداً للقبض على عيسى ، وكان الله قد أوحى إليه بما ائتمروا به ، ولعله قد رمز فى كلامه لتلاميذه بما يراد به . . وقد اهتم بذلك الأمر واستعد له . . وحين أحدق الجنود بالبيت الذى هو فيه تجلت عناية الله لإنقاذه فى اللحظة المناسبة .

لقد ألقى الله شبههُ على أحد الخونة الذين كانوا يندسون بين تلاميذه ويدعون الإخلاص له . وهو الذى قبض عليه الجنود وحاكموه وصلبوه .
أما عيسى فقد أنجاه الله ورفعه اليه . .

قيل : إن الذى ألقى عليه هذا الشبه هو يهوذا الأسخربوطى الذى تواطأ مع الكهنة ودل على المسيح نظير أجر دفعوه اليه . فوقع فى الحفرة التى حفرها بيده ، وتجرع الكأس التى أراد أن يذيقها لغيره .

جاء فى انجيل لوقا : « وقرب عيد الفطير الذى يقال له الفصح ، وكان رؤساء الكهنة والكتبة يطلبون كيف يقتلونه لأنهم خافوا الشعب ، فدخل الشيطان فى

يهوذا الأسخربوطى فمضى وتكلم مع رؤساء الكهنة وقواد الجند كيف يسلمه إليهم خلوا من جمع »[97] . .

---

(٩٧) الاصحاح الثالث والعشرون

وقد قص القرآن الكريم علينا قصة رفع المسيح - عليه السلام - فى قوله - تعالى - :

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[٩٨]

وفى قوله - تعالى - :

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾[٩٩]

جاء فى تفسير القرطبى فى قصة الرفع مايلى :

قال الضحاك : لما أرادوا قتل المسيح اجتمع الحواريون فى غرفة ، وهم اثنا عشر رجلاً ، فدخل عليهم المسيح من مشكاة الغرفة ، فأخبر إبليس جمع اليهود ، فركب منهم عدد كبير حتى وصلوا إلى مكانه ، فقال المسيح للحواريين ، أيكم يخرج ويقتل ويكون معى فى الجنة ؟ فقال رجل : أنا يانبى الله ، فألقى إليه مدرعة (ثوب من كتان) وعمامة من صوف وناوله عكازه ، وألقى عليه شبه عيسى فخرج على اليهود فقتلوه وصلبوه ..[١٠٠] ..

---

(٩٨) آل عمران ٥٥

(٩٩) النساء ١٥٧ ، ١٥٨

(١٠٠) تفسير القرطبى صـ ٩٩ والطبرى جـ ٦ صـ ١٠

ومؤدى هذه القصة أن هذا الشبيه شهيد ، لأنه فدى بنفسه عيسى ـ عليه السلام ـ وهذه فدائية واستبسال أما القصة السابقة فإن الشبيه فيها ليس بشهيد ولكنه خائن عوقب بنفس عمله ، وشرب الكأس التى أراد أن يسقيها لسيده ومعلمه . .

وحدث ابن جرير الطبرى فقال بعد أن ذكر الحوار الذى دار بين عيسى وأصحابه من الحواريين ليلة الحادث : فلما أصبح أتى أحد الحواريين إلى اليهود فقال : ما تجعلون لى إن دللتكم على المسيح ؟ فجعلوا له ثلاثين درهماً ، فأخذها ودلهم عليه ، فألقى الله شبه عيسى على ذلك المنافق فقتلوه وصلبوه وهم يظنون أنه عيسى ، ثم اختلفوا فقال بعضهم إنه إله لايصح قتله ، وقال بعضهم إنه قتل وصلب وقال بعضهم : إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا ؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى ؟ وقال بعضهم رفع إلى السماء ، وقال بعضهم : الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا[١٠١] . .

جزع مريم عليه :

وأقبلت مريم فى جزع شديد لترى ذلك المصلوب وهى تحسبه ابنها لما ألقى من شبهه عليه وسألت الموكلين به أن ينزلوه فاستجابوا لها فانزلوه ودفنوه . .

ثم إنها اصطحبت أختها أم يحيى لزيارة قبره ، فرأت رجلاً عند القبر ، ولم تره أختها ، فقالت مريم : ألا تستترين ؟ فقالت : وممن استتر ؟

قالت مريم : من ذلك الرجل الواقف عند القبر .

فقالت لها أختها : إنى لاأرى أحداً . .

---

(١٠١) انظر الكشاف حـ١ ص ٥٨٠

فعلمت مريم أنه ملَك ، وتقدمت إليه ، فإذا به جبريل ـ عليه السلام ـ
فقال لها جبريل : يا مريم ، أين تريدين ؟

فقالت : أزور قبر المسيح ، وأسلم عليه ، وأجدد عهداً به .
فقال لها : إن هذا ليس المسيح ، إن الله قد رفع المسيح وطهره من الذين

كفروا وإنما هذا فتى ألقى الله شبه المسيح عليه فقتل وصلب بدلاً منه ، وعلامة ذلك أن أهله فقدوه فلا يدرون مافعل به فهم يبكون عليه .

ثم قال لها : إذا كان يوم كذا فأت فإنك تلقين المسيح ..
وجاءت فى اليوم الذى حدده لها ،فوجدت ابنها ، فأسرع إليها وقبل رأسها وأكب عليها كما كان يفعل ، وجعل يدعو لها ..

وقال لها : أمه إن القوم لم يقتلونى ولكن رفعنى الله إليه وأذن لى فى لقائك والموت يأتيك قريباً فاصبرى واذكرى الله كثيراً .
وصعد عيسى ـ عليه السلام ـ ولم تلقه إلا تلك المرة

وماتت بعده بخمس سنين ولها من العمر ثلاث وخمسون سنة[١٠٢] ..
وكان عمر عيسى يوم رفع ثلاثاً وثلاثين سنة .. وهو أصح الأقوال فى سنه ..

فضائل عيسى ـ عليه السلام ـ :

أثنى الله على نبيه عيسى ـ عليه السلام ـ فى القرآن الكريم ثناءً مستطاباً ، وذكر اسمه فى مواضع متفرقة بلغت خمسة وعشرين موضعاً .

---

(١٠٢) قصص الأنبياء لابن كثير صـ٦١٦

وذكره بلقبه « المسيح » إحدى عشرة مرة
وذكر اسم أمه مريم أربعاً وثلاثين مرة .

وتحدث عن الحواريين خمس مرات ، وذكر الحواريين له علاقة بعيسى بن مريم فهم الذين ناصروه ونشروا رسالته من بعده وظلوا على عهده إلا من غير منهم . .

وقد لقبه الله بالمسيح لأنه كان يمسح الأرض بسياحته الكثيرة ، فقد كان ينتقل فاراً بدينه من مكان إلى مكان قبل أن يستقر به الأمر فى الجليل تبليغاً للرسالة وهو فى سن الثلاثين من عمره .

وقيل لقب بالمسيح لأنه كان ممسوح القدمين . .
وقيل لأنه كان يمسح بيده على المريض فيشفى بقدرة الله بعد أن يغمسها فى الزيت الطيب زيت الزيتون . .

ووصف القرآن الكريم مريم بأنها صديقة وكرمها وطهرها واصطفاها على نساء العالمين وزكاها أعظم تزكية حين قال فى حقها

﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ۝١٢ ﴾ (١٠٣)

وعصم مريم وابنها من الشيطان استجابة لدعوة أمها حين قالت : وإنى أعيذها

---

(١٠٣) التحريم ١٢

بك وذريتها من الشيطان الرجيم ، فاستجاب لها « فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا » .

وتكريم الأم تكريم للولد . .

وقد أثنى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ أحسن الثناء واختصه بالذكر فى حديث ـ من له أجران فى الجنة ـ قال أبو موسى الأشعرى : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إذا أدب الرجل أمته فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها كان له أجران ،وإذا آمن بعيسى بن مريم ثم آمن بى فله أجران ، والعبد إذا اتقى ربه وأطاع مواليه فله أجران »[١٠٤] . .

واعتبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفسه أولى الناس بعيسى بن مريم فقال فى ذلك : « الأنبياء أخوة ودينهم واحد وأمهاتهم شتى ، وأنا أولى الناس بعيسى بن مريم لأنه لم يكن بينى وبينه نبى »

وقد اختصه الله بالرفع بنص القرآن الكريم حين قال : « بل رفعه الله إليه » وبقوله : « إنى متوفيك ورافعك إلى »

ولا خلاف بين العلماء بخصوص ذلك كما اختلفوا فى شأن رفع إدريس والياس ـ عليهما السلام ـ واختصه بمزية أخرى هى مزية النزول إلى الأرض بعد ذلك فى آخر الزمان فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية . .

---

(١٠٤) أخرجه البخارى فى الجهاد برقم ١٤٥ وفى باب العلم برقم ٣١ وفى باب العتق برقم ١٦ وأخرجه مسلم فى باب الايمان والترمذى فى باب النكاح . .

وقد ذكر بعض العلماء أن القرآن الكريم قد أشار إلى هذا النزول فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ (١٠٥)

قال ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدى وقتادة : إنه خروج عيسى ـ عليه السلام ـ وذلك من أعلام الساعة لأن الله ينزله من السماء قبيل قيام الساعة (١٠٦) . .

ومما يشير إلى نزوله أيضاً قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (١٠٧)

فإن كلامه فى المهد معجزة ، فكيف يكون كلامه كهلًا معجزة ؟ لا يكون ذلك إلا عند نزوله مرة أخرى بعد رفعه إلى السماء ، فإن كلامه فى هذا الحين أمر خارق للعادة يثير العجب ، حيث يقول الناس : هذا هو عيسى بن مريم الذى رفعه الله إلى السماء عاد إلى الأرض مرة أخرى يكلم الناس . .

وهذا من خصائصه التى خصه الله بها . .

لقد كان عيسى معجزة فى خلقه ومعجزة فى ولادته ومعجزة فى تعلمه ومعجزة فى رفعه ومعجزة فى كثير من مراحل حياته . .

---

(١٠٥) الزخرف ٦١

(١٠٦) تفسير القرطبى ـ سورة الزخرف ـ

(١٠٧) آل عمران ٤٦

كانت مدة رسالته لا تزيد على ثلاث سنين ولكنها أثمرت ثماراً بالغة ملأت الأرض بنورها وتركت علامات واضحة على الطريق . وغيرت مسار كثير من التائهين ووضعت أقدامهم على الطريق الصحيح فترة من الزمن قبل أن يغير الناس ويبدلوا ويضلوا عن سواء السبيل . .

أما أخلاق عيسى ـ عليه السلام ـ فهى أخلاق الأنبياء الذين عصمهم الله من الرجس ، وطهرهم من الرذائل وحفظهم من الكذب والخيانة وقول الزور ، وكان عيسى آية فى الوداعة والعفو عند المقدرة والسماحة ولين الجانب والاستسلام لقضاء الله . . إلى غير ذلك من محاسن الأخلاق ومحاسن الصفات ـ فصلى الله على نبينا وعليه وسلم تسليماً كثيراً . .

محاورة بين النبى - ﷺ - ونصارى نجران :

وقد قص الله علينا فى القرآن الكريم قصة المحاجة التى تمت بين النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونصارى نجران فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾ (١٠٨)

---

(١٠٨) آل عمران ٥٩ ـ ٦٣

وسرد أصحاب السنن والسيرة قصة لقاء هذا الوفد بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمحاورة التي دارت ونلخصها فيما يلي :

جاء وفد نجران إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلى رأسهم شرحبيل بن وداعة الهمداني ، وعبد الله بن شرحبيل الأصبحي ، وجبار بن فيض الحارثي .

وسألوا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلين : من أبو عيسى ؟ يريدون بذلك تعجيز النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأنزل الله عليه قوله ـ تعالى ـ :
« ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون »
فقرأ ذلك عليهم ـ ثم قال لهم :

ألستم تعلمون أن الله حي لا يموت وأن عيسى يأتي عليه الفناء ؟
قالوا : بلى
قال : ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه ؟
قالوا : بلى
قال : فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً ؟
قالوا : لا

قال : ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ؟
قالوا : بلى .
قال : فهل يعلم عيسى من ذلك شيئاً إلا ما علّم ؟
قالوا : لا يعلم شيئاً إلا ما علم

قال : ألستم تعلمون أن ربنا صور عيسى في الرحم كيف يشاء ؟ وأن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث ؟
قالوا : بلى

قال : ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ، ثم غذى كما يغذى الصبى ، ثم كان يأكل الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث ؟

قالوا : بلى

قال : فكيف يكون كما زعمتم ؟[١٠٩] ..

فقطعهم بذلك ، ولكنهم أصروا على كفرهم ـ فلما أصبح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أقبل مشتملاً على الحسن والحسين وفاطمة أمهما .. ودعاهم للملاعنة ..

فقال شرحبيل لصاحبيه : قد علمتما أن الوادى إذا اجتمع أعلاه وأسفله لم يردوا ولم يصدروا إلا عن رأيى ، وإنى والله أرى أمراً ثقيلاً ..
لئن كان هذا الرجل نبياً مرسلاً فلاعناه لا يبقى على وجه الأرض منا شعر ولا ظفر إلا هلك .

وإنا لأدنى العرب منه ومن أصحابه جواراً ..
فقال له صاحباه : يا أبا مريم ، فما الرأى ؟
قال : أرى أن أحكمه ، فإنى أراه رجلا لا يحكم شططاً أبداً .
فقالا له : أنت وذاك ..

فلقى شرحبيل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له : إنى قد رأيت خيراً من ملاعنتك
فقال : وماهو ؟

قال : حكمك اليوم إلى الليل وليلتك إلى الصباح ، فمهما حكمت فينا فهو جائز .

---

(١٠٩) الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لسعيد حوا جـ ١ صـ ١٢٥

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لعل وراءك أحداً يُثَرِّبُ عليك ـ أى يخطئك ويلومك ؟

فقال شرحبيل : سل صاحبى ، فسألهما فاقرا بما قال .

فلما كان الغد قبل منهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الجزية وتركهم ومايدينون (١١٠) . .

آيات وعبر :

أما قصة عيسى ـ عليه السلام ـ فمليئة بالعبر وحافلة بالآيات ، ويكفى من ذلك دلالتها الوافية على تمام قدرة الله ـ تعالى ـ الذى يقول للشىء كن فيكون . .

وقد ظهرت دلائل القدرة فى مواضع متعددة منها :

- الرزق المكفول لمريم بدون أسباب
- حمل مريم بدون نكاح وولادة عيسى من غير أب
- حديث عيسى فى المهد
- رفعه إلى السماء والقاء شبهه على من أرشد عليه .

وفى القصة من مواضع العبرة أيضاً ما يدفع إلى التضحية والفداء فى سبيل الحق ، وأن الاستشهاد فى سبيل الله حياة وبقاء ، وأن الباطل مهما اشتد فلابد له من نهاية . .

لقد حاول أعداء عيسى أن يقهروه فقهروا أنفسهم ،ونفذت دعوته بالرغم من الحصار الذى ضربوه حوله وحول تلاميذه فملأت الآفاق .

ومن دلائل العبرة الباقية ما تكشف عنه القصة من مؤامرات اليهود ضد الحق .

---

(١١٠) دلائل النبوة للبيهقى . وتفسير ابن كثير حـ ٢ صـ ٤٣

ومحاولاتهم المستمرة فى إطفاء شعلة النور الوهاجة بما يرسمونه من خطط ومكائد وحيلولتهم دون الحق وأهله ، ولكن ذلك كله مصيره الفشل مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ (١١١)

وآية الآيات فى قصة عيسى التى أوردها القرآن الكريم أنها تخلو من الوثنية والشرك ، وأنها توضح عبودية عيسى لله ـ سبحانه وتعالى ـ وتثبت قدرة الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن كفواً أحد .

وقد أقر عيسى أنه برىء من كل الذين اتخذوه إلها من دون الله ، كما أقر بعبوديته لله وأنه لا يزيد على أنه عبد الله ورسوله ، قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ (١١٢)

وقد وجه القرآن الكريم نظر أهل الكتاب إلى العقيدة الصحيحة وبين لهم ما يجب أن يعرفوه من فرق بين الخالق والمخلوق ، حتى لا يخلطوا بين صفات كل منهما ، وكمال الله يقتضى تنزيهه عن الشبيه والصاحبة والولد ، وكل مشابهة لله بالخلق تقتضى النقص فى حق الخالق وقد تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . .

---

(١١١) آل عمران ٥٤

(١١٢) المائدة ١١٦ ، ١١٧

قال تعالى :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۘ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (171) لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (172) ﴾ (113)

ويضع القرآن الكريم عيسى وأمه فى موضعهما الصحيح فما هما إلا بشران كغيرهما من البشر يأكلان ويشربان وينامان إلا أن الله ميزهما بصفات الكمال كما ميز الرسل والأطهار قال تعالى :

﴿ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (75) ﴾ (114)

ونفى عن المسيح تسلط اليهود عليه ودعواهم أنهم قتلوه وصلبوه فقال القرآن الكريم فى ذلك :

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (157) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (158) ﴾ (115)

وهذا منتهى التكريم لرسول اعتنت به القدرة الإلهية فردت على مكر الأعداء بمثله بل بما هو أكبر منه

---

(113) النساء ١٧١ ، ١٧٢

(114) المائدة ٧٥

(115) النساء ١٥٧ ، ١٥٨

﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ (١١٦)

المسيح والتبشير بمحمد :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ (١١٧)

وهذه الآية تشير صراحة إلى أن عيسى ـ عليه السلام ـ قد بشر برسالة النبى ـ صلى الله عليه وسلم كما بشر به الأنبياء الذين سبقوه ، وقد ورد فى الأناجيل المتعددة كما ورد فى أسفار العهد القديم عبارات كثيرة تشير إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورسالته الخاتمة ، ولكن أسىء فهمها وترجمتها أو حُرِّف لفظها ومع ذلك فقد بقيت عبارات لايخفى مرماها تدل على التبشير بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ، وأنه خاتم المرسلين ، ودينه الاسلام خاتم الأديان وأنه أرسل إلى الخلق جميعاً .

عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من قال : رضيت بالله تعالى ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ رسولا وجبت له الجنة » (١١٨) .

المسيح والسلام :

من المفارقات اللافتة للنظر مايزعمه الذين ينسبون أنفسهم إلى ديانة المسيح من

---

(١١٦) آل عمران ٥٤

(١١٧) الصف ٦

(١١٨) أخرجه ابوداود . وانظر فى ذلك الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ص ٢٨٧ لسعيد

أن الإسلام تتنافى دعوته مع السلام ، وأن ديانة السلام حقا هى ديانة المسيح - عليه السلام .

وقد استندوا فى ذلك إلى ماجاء على لسان المسيح - عليه السلام - من دعوة إلى السلام ودعوة إلى المحبة ودعوة إلى العفو والرحمة . .

ونحن لانشك فيما قاله المسيح ولكن الذى يدعو إلى التساؤل هو سلوك بعض من يزعمون أنهم يتبعون المسيح وهم إلى الوحشية أقرب منهم إلى الآدمية . .

ونظرة إلى أفاعيل هؤلاء الذين ينتسبون زورا إلى المسيح - عليه السلام - نجد أنهم دعاة حرب وإبادة ، وتاريخهم منذ أقدم العصور يشهد بذلك ، وهذه هى الحروب الصليبية كان السبب فى إشعالها هؤلاء الذين يزعمون زورا أنهم يدافعون عن المسيح وقد استمرت بضعة قرون وقوضت فى طريقها معالم حضارية وقيما روحية وآثارا علمية وأزهقت الآلاف المؤلفة من الأرواح البريئة بصورة وحشية ، تدل دلالة قاطعة على أن هؤلاء لايعرفون عن المسيح شيئا ، وأن دعوته التى جاء بها تتبرأ منهم ومن أفعالهم التى قاموا بها ضد الاسلام والمسلمين . .

لقد ضرب الصليبيون خلال الحرب الصليبية الأمثلة للتعصب وأتوا من الفظائع والمذابح والكبائر ماتقشعر منه الأبدان ، وقد اعترف بذلك معظم الكتاب والمؤرخين الأوروبيين ، ومن هؤلاء المؤرخين (ميشو) فى كتابه (الحروب الصليبية) الذى ذكر أن الصليبيين حين فتحوا « معرة النعمان » قد قتلوا جميع من كان فيها من المسلمين اللاجئين إلى الجوامع والمختبئين فى السراديب ، فأهلكوا عشرات الآلاف من النفوس البشرية ودمروا كل مظاهر الحياة ، وكانت المعرة من أعظم مدن الشام ، وفتح الصليبيون القدس بعد أن أفحشوا القتل فى المسلمين حتى هلك منهم عشرات الألوف ، فيهم جماعة من الأئمة والعلماء والعباد

والزهاد ، وارتكب الصليبيون كل محرم فى دينهم مع المسلمين واليهود وحتى مع المسيحيين الذين يقيمون فى تلك المدن . .

وقال : « كان تعصب الصليبيين فى القدس تعصبا أعمى لم يسبق له نظير ، حتى شكا من ذلك المنصفون من المؤرخين ، فقد كانوا يكرهون المسلمين على إلقاء أنفسهم من أعالى البروج والبيوت ، ويجعلونهم طعاما للنيران ، ودام الذبح فى المسلمين أسبوعا حتى بلغ عدد القتلى على حسب ماذكرت بعض الروايات سبعين ألف نسمة ، ولم ينج اليهود كما لم ينج العرب من الذبح .

« وقال المؤرخ روبرت : كان قومنا يجوبون الشوارع والميادين وسطوح البيوت ليرووا غليلهم من التقتيل ، يذبحون الأولاد والشبان والشيوخ ويقطعونهم إربا إربا ، وكانوا لايستبقون إنسانا ، وكانوا يشنقون أناسا كثيرين بحبل واحد بُغية السرعة . . وكانت الدماء تسيل أنهارا فى طرق المدينة المغطاة بالجثث ، ويبحثون عن الذهب فى كل مكان بل كانوا يقطعون أصابع وأيادى القتلى من النساء طلباً له (١١٩)

ومن العجيب أن يفعل ذلك باسم المسيح ـ المسيح الذى جاء بدعوة السلام . . والحب . . والتسامح . . ومازال هؤلاء حتى الآن يمارسون هذه الجرائم بصور وأساليب مختلفة ، ومازالت فظائع الصليبيين تقوم بمسميات أخرى هى التبشير والاحتلال وحرمان الناس من حقوقهم . فى كثير من بقاع الدول الإسلامية .

وقد فعل بعض رجال الدين المسيحى المتعصبين فعلهم فى نفوس أتباعهم حتى أوهموهم أن قتل المخالفين لهم هو الطريق إلى الجنة ، وأن سفك دماء الأبرياء .

---

(١١٩) الاسلام وخرافة السيف د . عبدالودود شلبى ص ١٦٤ .

هو جواز المرور إلى الفردوس الأعلى واقرأ هذا النشيد الذى يردده جندى إيطالى فى أثناء هجوم الطليان على طرابلس الغرب :

« صلى ياأماه ولاتبكى .. بل اضحكى وتأملى

« ألا تعلمين أن إيطاليا تدعونى وأنا ذاهب الى طرابلسْ فرحا مسرورا ..

« لابذل دمى فى سبيل سحق الأمة الملعونة ولأحارب الديانة الاسلامية .. « سأحارب بكل قوتى لمحو القرآن ... »[١٢٠].

ومازال التبشير قائما من هؤلاء المتعصبين على قدم وساق فى مختلف الديار الإسلامية .

والذى يدعو إلى التساؤل حقا : إلام تدعو المسيحية ؟ أليست فى حقيقتها ـ كما جاء بها المسيح ـ عليه السلام ـ تدعو إلى عبادة إله واحد لاشريك له ؟ .

وهل ابتعدت دعوة الإسلام عن هذا الخط ؟ أو هل انحرفت عن هذه الدعوة ؟ .

فلماذا يحاول بعض من يدعون أنهم اتباع المسيح ـ الذى يدعو إلى السلام ـ ارتكاب الفظائع ضد بعض المسلمين ليجبروهم على تغيير دينهم واعتناق المسيحية ؟

لقد انحرف هؤلاء عن دعوة المسيح ..

لقد نسى هؤلاء قول المسيح : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الايسر .. من نازعك الثوب فأعطه الرداء أيضا .. أحبوا مبغضيكم ، اغفروا للمسيئين إليكم .. إلى غير ذلك من نصوص تشهد بحسن المعاملة وجميل العفو وعظمة المغفرة .

---

(١٢٠) المرجع السابق ص ٢٤٤ .

حقا لقد كان المسيح داعية سلام ..

ولكن بعض من يزعمون أنهم أتباعه ـ بكل اسف ـ أبعد الناس عن السلام .

إنهم دعاة حرب وصنّاع دمار ومصاصو دماء وأصحاب شر ..

لقد ابتعد هؤلاء عن ديانة المسيح ، وكما حرفوا ماجاء به المسيح ـ عليه السلام ـ من كلمات ، حرفوا المنهج الذى سار عليه وابتعدوا عن تعاليمه ، وزينوا للناس الباطل وأوهموا الأبرياء أنهم لن يكونوا قريبين من الملكوت إلا إذا صبغوا أيديهم بدماء الأبرياء الذين يشهدون أن لا اله إلا الله وان محمدا وعيسى وموسى رسل الله .

أما دعوة الإسلام إلى السلام فهى حقيقة لايمكن أن يغيرها الزيف ولايستطيع البهتان ،مهما أوتى من قوة أن يتطاول عليها ..

أصحاب القرية

وصية عيسى لرسله :

أرسل عيسى ـ عليه السلام ـ تلاميذه وحوارييه يبشرون بدعوته فى الآفاق ، وكان له اثنا عشر حواريا منهم من أخلص فى دعوته وتفانى فى خدمته ، ومنهم من نافق وتخلى عنه ووشى به لقاء دراهم معدودات ، وقد ذكرهم متّى فى إنجيله فى الإصحاح العاشر ، كما ذكر وصيته لهم التى تدور حول الإخلاص فى المهمة التى أرسلوا من أجلها ، وهى التبشير بالدعوة وهداية الناس إلى الطريق الحق ، وأعلمهم أن الله أمدهم بما أمده به من القدرة على شفاء المرضى وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وإبعاد الشياطين ، وأمرهم بألا يأخذوا أجرا على ذلك وحذرهم من الاكتناز واقتناء الذهب والفضة والنحاس وعليهم أن يأخذوا الأهبة للسفر دائما ، وأن يتخففوا من الأحمال فى رحلاتهم ، إنهم منقطعون لله ، فالله يتكفل بهم .. فليس لهم أن يكثروا من الزاد أو الثياب .. إنهم خرجوا فى سبيل الله فهم فى كفالته وحفظه .

وأمرهم أن يلقوا السلام على أهل القرية أو المدينة التى يدخلونها ، وإن قبلوا كلامهم أقاموا معهم وإلا فعليهم أن يغادروا القرية وينفضوا غبار أرجلهم الذى علق بها . . إنهم غنم وسط ذئاب فعليهم أن يكونوا حكماء . . وأخبرهم أن الله سيلهمهم الجواب الذى يجيبون به على من يحاورهم ويجادلهم . .

هذه بعض وصايا عيسى ـ عليه السلام ـ لتلاميذه ، وكانوا يسيرون عليها وينفذونها ، وكانوا لايبالون بما يعترضهم فى طريقهم من عقبات ، وبعضهم كانوا يستشهدون فى سبيل الدعوة إلى الله ، وقد قص القرآن الكريم علينا طرفا من ذلك ، لأن الطريق إلى الله واحدة ، وكلمته واحدة على لسان أنبيائه ورسله ، ولاتفرقة فى منطق الإسلام بين رسول ورسول . . . ومن الأسس التى بنيت عليها عقيدة المسلم عدم التفرقة بين الرسل . .

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ (٢٨٥) ﴾ (١٢١)

الرسل فى أنطاكية :

وأرسل عيسى فيمن أرسل من رسله رسولين إلى أنطاكية . .

وأنطاكية مدينة فى شمالى سوريا ، وسط سهل خصب جميل فى الحوض الأدنى لنهر العاصى وكان اسمها « أنطوخيا » عند القدماء .

يقال إن الذى بناها هو سلوق الأول سنة ٣٠٠ قبل الميلاد مكان مستعمرتين قليلتى الشأن لليونان ، وكانت مقرا لحكام يحبون الفن ومركزا هاما للتجارة ثم لم تلبث أن أصبحت حاضرة لسوريا ، وصارت بعد ذلك أهم مدن الأمبراطورية الرومانية بأسرها وأكثرها سكانا بعد رومية والإسكندرية ، كما كانت تعد حاضرة الولايات الآسيوية قاطبة .

---

(١٢١) البقرة ٢٨٥ .

وتقع أنطاكية الحديثة وسط سهل على الشاطىء الجنوبى لنهر العاصى وتمتد إلى سفح جبل حبيب النجار على ارتفاع ١٥٢٥ قدما عن سطح البحر . (١٢٢) .

ويذكر القرطبى أن الذى بناها « أنطبيس » وقد عربت إلى أنطاكية وقد تبدل بالطاء التاء . .

وكان ملكها على ماحكاه القرطبى اسمه « أنطخيس » وكان يعبد الأصنام وهو ماذكره ابن جرير الطبرى أيضا فى « تاريخ الأمم والملوك » (١٢٣) .

وقد ورد فى قصة أصحاب القرية روايتان :

أما الأولى فهى أن عيسى ـ عليه السلام ـ أرسل رسولين من حوارييه إلى أهل أنطاكية ، وحين اقتربا من المدينة لقيهما شيخ يرعى غنيمات له يقال له حبيب النجار ، فسألهما عن قصدهما .

فأجاباه بقولهما : نحن رسولا عيسى بن مريم إلى أهل هذه القرية ندعوهم إلى عبادة الله وحده وعدم الإشراك به .

فقاله لهما : وهل معكما من آية ؟

قالا : نعم ، نبرىء الأكمة والأبرص ونحيى الموتى بإذن الله .

وكان لهذا الرجل ابن مريض مقعد ، فطلب إليهما أن يشفياه إن كان مايقولانه حقا . .

فأقبلا على الغلام ، ودعوا الله ربهما ومسحاه بأيديهما ، فقام يسعى بين أيدى القوم كأن لم يكن به ضر فآمن بهما حبيب ، وفشا الخبر فى القرية ، فآمن بهما خلق كثير . .

---

(١٢٢) دائرة المعارف الاسلامية ص ٨٧

(١٢٣) تاريخ الأمم والملوك ح ٢ ص ٤٧ .

ووصل الخبر إلى الملك ، وخشى أمرهما ـ كما تخشى الملوك على عروشها ـ فدعاهما إليه ، وسألهما عن أمرهما وعما يدعوان إليه .

فقالا : نحن ندعو إلى إله واحد لاشريك له . .

فقال لهما : ألكما إله غير آلهتنا ؟ .

قالا : نعم ، هو الذى أوجدك وأوجد آلهتك . .

فقال : اذهبا حتى أنظر فى أمركما . .

ولكنه أغرى بهما من اعتدى عليهما ، فقد قيل ـ كما يروى الزمخشرى فى تفسيره : ان الناس تبعوهما وضربوهما . . (١٢٤) .

وقيل إن الملك حبسهما . .

فلم يلبث عيسى ـ عليه السلام ـ حين أبطأ عليه رجوعهما أن أرسل بثالث يعززهما فى دعوتهما . .

كان هذا الثالث رجل حكمة وسياسة فلم يفاجىء الناس بدعوته ، ولكنه تلطف حتى وصل إلى حاشية الملك وخالطهم ، وكان اسمه « شمعون » .

ورأوا من فضائله ماجعلهم يرفعون أمره إلى الملك ، فقربه إليه ، وأنس به حتى صار لايصبر عنه

وفى يوم قال للملك : بلغنى أنك حبست رجلين عندك فهل سمعت مايقولانه ؟ .

قال الملك : لقد حال الغضب بينى وبين ذلك .

فقال شمعون : فهلا دعوتهما إليك لنسمع مايدعوان إليه ؟ .

فأرسل الملك فى طلبهما ، فلما حضرا ، قال لهما شمعون : من أنتما ؟ وماشأنكما ؟ ومن أرسلكما ؟ وماآيتكما ؟ .

فقال الرسولان : نحن قوم آمنا بالله ودعونا إليه ، والذى أرسلنا رسول الله

---

(١٢٤) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧

عيسى بن مريم لنبشر بدين الواحد الأحد الفرد الصمد . . أما آيتنا فإنا نبرىء الأكمة والأبرص ونحيى الموتى بإذن الله .

فدعا الملك بغلام أكمه مطموس العينين ، فدعوا الله فشق له عينين ، فأتيا ببندقتين وضعاهما فى حدقتيه فكانتا مقلتين ينظر بهما . .

فعجب الملك ومن معه مما رأوا . . ومالوا إلى الرجلين . .

فأراد شمعون أن يزيد فى يقينهم فالتفت إلى الملك وقال له :

أرأيت لو سألت إلهك حتى يصنع مثل هذا فيكون لك وله الشرف ؟ .

فقال الملك : ليس لى عنك سر : إن إلهنا لايبصر ولايسمع ، ولايضر ولاينفع . .

وكان شمعون يدخل مع الملك وحاشيته بيت أصنامهم ، وكان ينظر إليهم وهم يتضرعون إلى هذه الأصنام الصماء ويعجب من غفلتهم ، وكان هو يناجى ربه فى سره ، ويدعوه فى صمت ، وكانوا يرون شفتيه تتحركان فيظنون أنه يناجى آلهتهم ، فلم يشكوا أنه منهم . . ومن أجل ذلك قال له الملك ماقال :

ثم التفت شمعون إلى الرسولين وقال لهما : إن قدر إلهكما على إحياء الميت آمنا به جميعا . وأمَّنَ الملك على كلامه . . ثم ذهبوا إلى مكان غلام قد مات منذ سبعة أيام وقد تغيرت رائحته ، ووضعوه أمام الرسولين ، فدعوا الله فقام الغلام مستويا على قدميه . . وقال : إنى دخلت سبعة أودية من النار وأنا أحذركم ما أنتم فيه ، فآمنُوا ، وقال : فتحت أبواب السماء فرأيت شابا حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة .

فقال الملك : ومن هؤلاء الثلاثة ؟ .

قال : هذا وأشار إلى شمعون ، وهذان وأشار إلى الرسولين . .

فتعجب الملك مما سمع .

ولما رأى شمعون أن قوله قد أثر فى الملك نصحه ودعاه إلى الإيمان فآمن ، وآمن قوم معه ومن لم يؤمن أرسل الله عليهم صيحة فهلكوا .

أما الرواية الأخرى : فتذكر أن الرسولين حين جاءا إلى أنطاكية ولقيا ملكها أنكر قولهما إنكارا شديدا وعذبهما عذابا نكرا ، فعززهما الله برجلٍ ثالث يؤازرهما فى دعوتهما .. والتقى الثلاثة بأهل القرية ، ودعوهم إلى الله .. ولكن أهل القرية لقوهم بالإعراض ، وصدوا عنهم ، وقالوا لهم ، إنا تطيرنا بكم ، أى تشاءمنا منكم ، وهددوهم بالرجم والقتل ..

فرد عليهم الرسل قائلين : إن شؤمكم منكم وليس منا ، فإن الكفر والشرك هو الذى يثير الشؤم على صاحبه ، أما الإيمان فهو يبعث الطمأنينة فى القلب ويرسل الأمان إلى النفس .. لقد أسرفتم على أنفسكم حين صددتم عن دعوة الله ، وأغلقتم قلوبكم دونها ..

ومازال الرسل يذكِّرون الناس بالله ويدعونهم إلى الإيمانَ به حتى ضاق الناس ذرعا بهم وهموا بقتلهم .

فأقبل حبيب النجار وكان قد آمن بهم من قبل ، وكان يقطن فى أقصى المدينة . أقبل على قومه يذكرهم بالله ويدعوهم إلى اتباع هؤلاء المرسلين الذى لايسألونهم أجرا على هدايتهم ..

ولكن قومه تغيظوا عليه فأقبلوا عليه فقتلوه شر قتلة ، قيل : إنهم داسوه بأرجلهم حتى أخرجوا أمعاءه ..

ولكن الله سبحانه وتعالى ـ أكرمه بالشهادة ، وأدخله الجنة ينعم بها ، وحين عاين مافيها من نعيم مقيم وخير عميم اتجه إلى قومه بلسان حاله يخاطبهم : ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين ..

لقد شق على هؤلاء القوم أن ينصحهم هذا الرجل الفقير الضعيف الذى لايأبه به أحد . . ومايدرون أن منزلته عند الله أرفع شأنا وأعلى مقاما من أولئك الملوك الذين لايساوون عند الله جناح بعوضة . .

ونزلت نقمة الله على هؤلاء القوم فورا ودون استبطاء ، فقد أخذتهم الصيحة من السماء فأصبحوا خامدين . .

يقول بعض العلماء : إن هذا الرجل نطق بعد أن مات قائلا : ياليت قومى يعلمون . . بصوت سمعه كل من شارك فى قتله ، فكان ذلك كرامة له .

قال الدميرى : [١٢٥] ومن الذين تكلموا بعد الموت أيضا : يحيى بن زكريا حين ذبح ، وحبيب النجار حين قال : « ياليب قومى يعلمون » وجعفر الطيار حين تلا قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [١٢٦]

ونُطق حبيب النجار بعد موته كرامة له من غير شك ، ولكن لاينبغى المبالغة فى تصوير هذه الكرامة إلى درجة مايقوله بعضهم فى رواية رواها كاتب مادة حبيب النجار فى دائرة المعارف الإسلامية : إن حبيبا بعد أن قتل أخذ رأسه المقطوع بشماله ووضعه على يمينه ومشى ثلاثة أيام بلياليها على هذا الوضع ولسانه يرتل الآيات التى نزلت فى قصته بصوت مرتفع [١٢٧] .

وقد اعترف كاتب هذه المادة بأن هذه القصة من نسج الخيال ، وماكان أغناه عن ذكرها . .

وقد قص الله ـ سبحانه وتعالى ـ علينا هذه القصة بقوله : ـ

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ

---

(١٢٥)انظر حياة الحيوان حـ ١ ص ١٠٤

(١٢٦) آل عمران ١٦٩ .

(١٢٧) دائرة المعارف الاسلامية حـ ١٣صـ ٣١٨ .

ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا
بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ
إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ
لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ
أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ
قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم
مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ
ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ
﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ
ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ
ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا
مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ (١٢٨)

وظاهر الآيات أن الذى قتل هو حبيب النجار فقط ، ولكن بعض العلماء يقولون : إن القتل شمل الرسل الثلاثة أيضا . .

ولعل هذا هو الأنسب بحال هؤلاء الجاحدين الذين أخذتهم صيحة السماء فلم تُبق منهم أحدا . .

ولقد استحق حبيب النجار كرامة ربه ، لأنه صدق فى إيمانه ، ولم يتزحزح عن

---

(١٢٨) يس ١٣ : ٢٩

يقينه ، وقد أخبر النبى ـ صلى الله عليه وسالم ـ عنه قائلا : ﴿ **سباق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين ، حزقيل مؤمن آل فرعون ، وحبيب النجار مؤمن آل يس وعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه وهو أفضلهم** ﴾ (١٢٩) .

وفى حديث مرفوع ذكره الزمخشرى فى تفسيره يبين فيه منزلة حبيب النجار قال : قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنه : « نصح أهله حيا وميتا » .

وورد ذلك فى قصة عروة بن مسعود الثقفى الذى قتله قومه وهو يدعوهم إلى الإيمان بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد أن كان سيدا مطاعا فيهم فكان يقول وهو فى النزع : يامعشر ثقيف اذهبوا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاطلبوا منه الأمان ، قبل أن يبلغه موتى فيكم فيغزوكم ، فلم يزل كذلك حتى مات ، فبلغ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : لقد نصح قومه حيا وميتا وإن مثله فى قومه كمثل صاحب آل يسن .

وقد خلد ذكر حبيب النجار ، وذكره الناس بالتقدير والتبجيل ، فهو شهيد بذل روحه فى سبيل الله وإعلاء كلمته . .

وقد سمى العرب باسمه جبل « سلبيوس » لأن به قبره حيث دفن ، وهذا القبر يزار كثيرا ـ كما تقول دائرة المعارف الإسلامية (١٣١) .

وقد ذكر السُهيلى نسب حبيب النجار بأنه حبيب بن حرى بن حريق وذكر أنه كان نجارا وأنه كان مجذوما شفاه الله بدعوة الرسل . . (١٣٢) .

أما الرسل فهم يحيى وبولس وشمعون وقد أرسلهم عيسى بن مريم بإذن من الله ـ تعالى ـ ولذلك نسبهم الله إليه فى قوله تعالى : ﴿ **إذ أرسلنا اليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث** ﴾ .

والله أعلم .

---

(١٢٩) قصص الأنبياء للثعلبى حـ ٤١٥

(١٣٠) تفسير الكشاف واسد الغابة حـ ٥ ص ٣٣ وأخرجه ابن مردويه من حديث المغيرة بن شعبة .

(١٣١) دائرة المعارف الاسلامية حـ ١٣ ص ٣١٨ .

(١٣٢) التعريف والاعلام للسهيلى صـ ١٨ .

أهـل الكـهـف

سبب نزول هذه القصة فى القرآن :

نزلت سورة الكهف تحمل هذا الاسم ، الذى يشير إلى ذلك الكهف الذى أوى إليه فتية آمنوا بربهم وزادهم الله هدى . . وقص الله قصتهم فى القرآن الكريم لتكون عبرة للمؤمنين وموعظة للمتذكرين . . وقد أشار الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى صدر هذه القصة إلى الهدف من ذكرها ، وهو إثبات البعث والتذكير بالحساب والإيمان باليوم الأخر الذى لن ينجو فيه إلا من آمن بالله كهؤلاء الفتية . .

وقد ذكر العلماء فى أسباب نزول هذه القصة مايلى.:

أخرج ابن جرير من طريق ابن اسحاق عن شيخ من أهل مصر عن عكرمة عن ابن عباس قال : بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة فقالوا لهم : سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله . فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم ماليس عندنا من علم الأنبياء . فخرجا حتى أتيا المدينة فسألوا أحبار اليهود عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ووصفوا لهم أمره وبعض قوله . . فقال لهم أحبار اليهود : سلوه عن ثلاثة فإن أخبركم بها فهو نبى مرسل وإن لم يفعل فالرجل متقول . سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ماكان أمرهم ؟ فانه كان لهم أمر عجيب .

وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ماكان أمره .

وسلوه عن الروح ماهو ؟ .

فأقبلا حتى قدما على قريش فقالا لهم : قد جئناكم بفصل مابينكم وبين محمد . فجاءوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسألوه ، فقال : أخبركم غدا

بما سألتم عنه ، ولم يستثن [1] فانصرفوا ، ومكث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خمس عشرة ليلة لاينزل عليه الوحى ، ولايأتيه جبريل ، حتى أرجف أهل مكة ، وحتى حزن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لتأخر الوحى عنه ، وشق عليه مايتكلم به أهل مكة .

ثم جاءه جبريل من الله بسورة الكهف فيها معاتبته إياه ، وخبر ماسألوه عنه من أمر الفتية ، والرجل الطواف كما أنزل عليه قوله تعالى : ﴿ **ويسألونك عن الروح** ﴾ [2] .

متى حدثت هذه القصة ؟ :

وقد اختلف العلماء فى زمن حدوث هذه القصة ، وهل كانت قبل مولد المسيح أو بعده ؟ كما اختلفوا فى مكان الكهف . .

وحاول بعضهم إلقاء الضوء حول الزمان والمكان بذكر بعض القرائن التى تشير إلى ذلك .

وقد أورد كتاب المنتخب من التفسير الذى أصدره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بعض هذه الاجتهادات فقال :

لما كان القرآن الكريم قد نص على أنهم فتية آمنوا بربهم فلابد أنهم قد تعرضوا لاضطهاد دينى رأى معه هؤلاء الفتية الاعتصام بالكهف .

والتاريخ القديم يشير إلى وقوع اضطهادات دينية فى الشرق القديم حدثت فى أوقات مختلفة . . نذكر منها اضطهادين قد يكون أحدهما مناسبا للمقام .

---

(١) اى نسى ان يقول : ان شاء الله .

(٢) اسباب النزول للسيوطى صـ ١١٥

أما أولها فقد حدث فى عهد الملك السلوقى « أنيثوخوس » الرابع الملقب « بنابيقانيس » حوالى سنة ١٧٦ - ٨٤ قبل الميلاد . كان هذا الملك مولعا بالثقافة الإغريقية وحين أحكم قبضته على سوريا أشاع الوثنية ، ووضع تمثال « زوس » معبود الإغريق الأعظم على المذبح ، وقدم الخنازير قربانا له ، وأحرق التوراة .

وربما كان هؤلاء الفتية يهودا وكان مقرهم فلسطين أو أورشليم ففروا بدينهم من اضطهاد هذا الملك ، وآواهم الكهف حتى بعثوا حوالى سنة ١٢٦ م إبان حكم الروم للشرق أى قبل مولد النبى - صلى الله عليه وسلم - بحوالى ٤٤٥ سنة تقريبا .

أما الاضطهاد الثانى فقد حدث فى عهد الأمبراطور الرومانى « هادريانوس » سنة ١١٧ - ١٣٨ م فقد فعل هذا الأمبراطور باليهود مثلما فعل الملك السلوقى السابق ، فقد أعلن اليهود فى عهده العصيان على الامبراطورية الرومانية حتى قمع ثورتهم هذا الإمبراطور وأخضعهم تماما ، وقضى على قوميتهم وباعهم فى سوق النخاسة . . فربما يكون فى هذا العهد قد فر هؤلاء الفتية بدينهم من وجه هذا الامبراطور وأووا إلى الكهف وظلوا به حتى بعثوا حوالى سنة ٤٣٥ م أى قبل مولد النبى - صلى الله عليه وسلم - بمائة وثلاثين سنة تقريبا .

ويبدو أن الاضطهاد الأول أكثر تلاؤما مع أصحاب الكهف لأنه كان أشد قوة [٣] .

ومعنى ذلك أن هؤلاء الفتية يهود فروا بدينهم من وجه البطش والطغيان ، ولكن كثيرا من المفسرين يرون أن هؤلاء كانوا على دين المسيح - عليه السلام - وقد ذكر ابن جرير الطبرى فى كتابه « تاريخ الملوك » [٤] . قال : كان الفتية على دين عيسى بن مريم - عليه السلام - وكان ملكهم كافرا .

---

(٣) المنتخب من التفسير - سورة الكهف .

(٤) تاريخ الملوك حـ ٢ صـ ٤٠ .

قال : ولكن البعض يزعم أن أمرهم ومصيرهم إلى الكهف كان قبل المسيح وأن المسيح أخبر قومه خبرهم ، وأن الله عز وجل ـ ابتعثهم من رقدتهم بعدما رفع المسيح فى الفترة بينه وبين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأما الذى عليه علماء أهل الإسلام فهو أن أمرهم كان بعد المسيح ، فاما أنه كان فى أيام ملوك الطوائف فان ذلك مما لايدفعه دافع من أهل العلم بأخبار الناس القديمة .

ويذكر المسعودى أن أهل الكهف فروا بدينهم من « دقيوس » ملك الروم الوثنى ، وكان ملكه قد طال وظل يعبد الأوثان ستين عاما وأمعن فى قتل النصارى وطلبهم ، ولكنه أشار إلى أن هناك من يرى أن أهل الكهف غير أهل الرقيم . . وان كان كلاهما فى بلاد الروم [٥] .

قصة أصحاب الرقيم :

أما قصة أصحاب الرقيم فقد ذكرها الدميرى نقلا عن وهب الذى رواها عن النعمان بن بشير عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم .

قال : إن ثلاثة نفر خرجوا مرتادين لأهلهم ، فبينما هم يمشون أصابتهم السماء فأووا الى كهف فانحطت صخرة من الجبل ، فانطبقت على باب الكهف فأوصد عليهم ، فقال قائل منهم : اذكروا أيكم عمل عملا حسنا لعل الله برحمته أن يرحمنا .

فقال رجل منهم : كان لى أجراء يعملون لى عملا بأجرة معلومة ، فجاءنى رجل منهم ذات يوم وسط النهار ، فاستأجرته بشطر أجرة أصحابه ، فعمل فى بقية نهاره كما عمل رجل منهم فى نهاره كله ، فرأيت لما علىَّ من الذمام ألا أنقصه عن أصحابه .

فقال رجل منهم : أتعطى هذا مثلما أعطيتنى ولم يعمل إلا وسط النهار ؟ .
فقلت له : ياعبد الله ، لم أبخسك شيئا من شرطك ، وإنما هو مالى أحكم فيه بما شئت .

---

(٥) راجع مروج الذهب للمسعودى حـ ١ صـ ٢٣٧ .

فغضب وترك أجره ، فوضعت حقه فى جانب ، وثمرُته له ، فبلغ ماشاء الله أن يبلغ ، حتى جاءنى بعد حين وهو شيخ كبير فقال لى : إن لى عندك حقا ، فذكرنيه حتى عرفته .

فقلت له : إياك أبغى ، وهذا حقك ..

فقال لى : ياعبد الله لاتسخر بى ، فقلت : والله ما أسخر بك . وإنما هو حقك .. فدفعته إليه ثم دعا الله قائلا : اللهم إن كنت تعلم أن هذا شىء يرضيك ففرج عنا مانحن فيه ، فانفرجت الصخرة قليلا ..

ثم قال الآخر كان لى فضل وأصابت الناس شدة ، فجاءتنى امرأة تطلب منى معروفا ، فقلت لها : ماهو دون نفسك ، فأبت علىَّ وذهبَتْ ، ثم رجعت فذكرتنى بالله تعالى ، فأبيت عليها وقلت : ماهو دون نفسك ، فأبت على وذهبت . ثم رجعت مرة ثالثة مستسلمة ، فلما دنوت منها ارتعدت . فقلت لها : ماشأنك قالت : إنى أخاف الله رب العالمين .

فقلت : خفت الله فى الشدة ولم أخفه فى الرخاء ؟ .

وتركتها وأعطيتها ماشاءت .

ودعا الله قائلا : اللهم إن كنت فعلت ذلك لوجهك ففرج عنا مانحن فيه فانفرجت الصخرة قليلا . ولكنهم لم يستطيعوا أن يخرجوا .

فقال الثالث : كان لى أبوان شيخان كبيران ، وكان لى غنم فكنت أحلب لهما واسقيهما قبل أن يناما .. فاصابنى يوما غيث حبسنى حتى أمسيت ، فأتيت أهلى وأخذت محلبى ثم حلبت غنمى وتركتها قائمة ومضيت إلى أبوى فوجدتهما نائمين ، فشق علىَّ أن أوقظهما وشق على أن أترك غنمى ، فما برحت قائما ومحلبى على يدى مترددا ماذا أفعل حتى أيقظهما الصبح فسقيتهما .

اللهم إن كنت تعلم أن فعلت هذا لوجهك ففرج عنا ما نحن فيه ففرج الله عنهم فخرجوا . . (٦) .

وهذه القصة مشهورة فى كتب الحديث وهى معروفة بحديث أصحاب الغار .

ولكن جمهور المفسرين يرى أن قصة أصحاب الكهف والرقيم قصة واحدة . . والرقيم إما أن يكون لوحا من حجارة أو رصاص كتبت فيه أسماؤهم أو قصتهم ، أو هو اسم الكهف الذى آووا إليه . .

قصة أهل الكهف :

قال الرواة عن ابن إسحاق : انحرف أهل الإنجيل وكثرت فيهم الخطايا وعظمت الذنوب وطغت فيهم الملوك ، حتى عبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت ، وفيهم بقايا على دين المسيح عيسى بن مريم متمسكين بعبادة الله وتوحيده .

وكان من طغاة ملوكهم « دقيانوس » الذى اضطهد المؤمنين وعذبهم ، وكان ينزل قرى الروم فلا يرى مؤمنا إلا فتنه عن دينه لايتركه إلا إذا عبد الأصنام وذبح لها . . ومازال كذلك حتى نزل مدينة « أفسوس » ذات يوم وهى المدينة التى كان يقيم فيها أهل الكهف ، وهى التى تسمى « طرطوس » على ساحل البحر الأبيض فى سوريا .

وحين نزل بها اختبأوا منه وهربوا فى كل جهة . . فأخذت شرطته وهم على دينه تتبع المؤمنين فى كل مكان ويأتون بهم إليه ، فيخيرهم بين القتل أو عبادة الأصنام . . فمنهم من يثبت على دينه ومنهم من يؤثر الحياة الدنيا على الآخرة .

وكان هناك فتية يتصافون فيما بينهم ، جمعت بينهم خلة الدين ، وألفت بين قلوبهم وشيجة الإيمان وكانوا من أشراف الروم ، وهم ثمانية . . رأى هؤلاء

---

(٦) حياة الحيوان للدميرى جـ ٢ ص ٥٠٦ .

الفتية ماحل بأهلهم فحزنوا حزنا شديدا ، وأقبلوا على الله بالتضرع والدعاء وكان فيما قالوه : « ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذا شططا . اللهم اكشف عن عبادك المؤمنين هذه الفتنة ، وادفع البلاء والغم عن عبادك الذين آمنوا بك حتى يعلنوا عبادتهم إياك » .

ورفع الشرطة أمر هؤلاء إلى الملك ، فاستدعاهم . . وعرض عليهم أن يفعلوا مثلما يفعل الناس من عبادة الأصنام وذبح القرابين لها .

ولكنهم أبوا . . وهمَّ الملك بقتلهم ولكنه نظر إلى شرفهم فى قومهم فالتفت إليهم قائلا : مايمنعنى أن أعجل عليكم بالعقوبة إلا أنى أراكم شبابا صغار السن ، فلا أحب أن أهلككم حتى أجعل لكم أجلا تتذكرون فيه عقولكم وتراجعون أمركم .

وترك دقيانوس المدينة إلى مدينة أخرى يواصل فيها فتنته وأمهلهم حتى يعود . .

فلما علم الفتية بخروجه فكروا فى أمرهم ، وخافوا اذا عاد أن يقتلهم فاجتمع رأيهم على أن يفروا بدينهم من وجهه ، وأخذ كل منهم بعض الزاد وانطلقوا فى طريقهم يبحثون عن مكان يأوون إليه ويعبدون الله فيه دون أن يغير عليهم أحد .

وفى طريقهم مروا براع تبعهم على دينهم ومعه كلبه .

وحل بهم المساء ، فأووا إلى كهف فى جبل . .

وضرب الله على آذانهم فى الكهف فناموا . .

ومرت أيام ، وعاد « دقيانوس » إلى مدينة أفسوس ، ولاهمَّ له إلا هؤلاء الفتية ، فلما علم بفرارهم جن جنونه ، وأمر بالبحث عنهم فى كل مكان . . فجد جنوده فى البحث عنهم وتتبع آثارهم حتى عثروا عليهم نائمين فى الكهف .

وكأنما عثر هؤلاء على كل كنوز الدنيا ، فأسرعوا يبلغون « دقيانوس » بنبأ العثور على هؤلاء « المارقين » وخرج « دقيانوس » بنفسه وراءهم ، واطلع عليهم فى كهفهم ، فقال : ماكنت معاقبهم بشىء أكبر مما عاقبوا أنفسهم به ، سدوا عليهم باب الغار بالحجارة حتى يموتوا جوعا وعطشا وخنقا . . وحتى يكون كهفهم قبرا لهم . لقد ظن أنهم أحياء يشعرون به ولم يدرك أن الله قد ضرب على آذانهم ، وأنه ادخر يقظتهم لأجل معلوم وحكمة بالغة .

وكان فى هذا الكهف فتحة متجهة الى الشمال يجيئهم منها النسيم العليل ، وإذا طلعت الشمس من الشرق عن يمينهم مالت أشعتها عنهم ، واذا غربت عن يسارهم تجاوزتهم ولم تدخل أشعتها فى كهفهم ، فحرارة الشمس لاتؤذيهم ونسيم الهواء يأتيهم ، وذلك كله من دلائل قدرة الله ورحمته الواسعة .

لقد كان من ينظر إليهم لأول وهلة يظن أنهم متيقظون ولكنهم فى واقع الأمر نائمون نوما عميقا ، وكانوا يتقلبون ذات اليمين وذات الشمال حتى تسلم أجسامهم من تأثير الأرض .

أما الكلب الذى تبعهم فقد مد ذراعيه على عتبة الغار ، وظهرت عليه علامات اليقظة وهو نائم أيضا . . وألقى الله الهيبة فى قلوب الناظر إليهم . .

وألهم الله رجلين مؤمنين كانا فى بيت الملك قيل : إن أحدهما اسمه « مندروس » والآخر اسمه « دوماس » أن يدونا قصة هؤلاء الفتية فاتفقا على أن يكتبا أسماءهم وأنسابهم وخبرهم فى لوح وجعلاه فى البناء الذى وضع أمام الكهف ، وقالا : لعل الله يهىء لهؤلاء الفتية قوما مؤمنين قبل يوم القيامة ، فيعلم من فتح عليهم خبرهم حين يقرأ هذا الكتاب .

ومرت الأيام وهلك « دقيانوس » فيمن هلك ومضت بعده قرون ، وبدل الله الأرض خيرا ممن كانوا فيها وأراد الله إظهار أمر هؤلاء الفتية ، فهيأ الأسباب لذلك . .

فقد كان هناك راع يرعى غنمة حول الكهف ، فحدثته نفسه أن يبنى حظيرة تأوى إليها غنمه ويلجأ إليها إذا أخذتهم السماء فاستأجر لذلك عمالا جعلوا ينزعون الأحجار التى سد بها باب الغار ويبنون بها الحظيرة .

وكان الملك الذى يتولى أمر هذه البلاد فى ذلك الوقت صالحا اسمه « باودوسيوس » وملك ثمانية وثمانين عاما وتحزب الناس فى عصره أحزابا ، وحدث بينهم مراء فى أمر الساعة بين مصدق ومكذب .

وكبر ذلك على الملك الصالح وتضرع إلى الله أن يهدى الناس إلى الحق وأن يحفظهم من تشكيك أهل الباطل الذين يقولون ماهى إلا حياتنا الدنيا ومايهلكنا إلا الدهر . .

وقبل الله ضراعه هذا الملك الصالح .

وكان الراعى قد نجح فى إزالة الأحجار التى تسد فم الغار بواسطة من استأجرهم لذلك . .

وأذن الله لهؤلاء الفتية أن يستيقظوا من سباتهم العميق ، وأن يهبوا من نومهم جالسين ، وقد كانت وجوههم مستبشرة وقلوبهم مطمئنة لم يشعروا بأنهم قد قضوا فى رقدتهم هذه أكثر من يوم أو بعض يوم . . فقد استيقظوا فى الوقت الذى كانوا قد تعودوا القيام فيه . .

كانوا كهيئتهم يوم ناموا ، لم تطل أظفارهم ولاشعورهم ، ولم تتغير ملامحهم ولا ألوانهم . . لئن كان حدث شيء من ذلك لأدركوا أنهم قضوا فى نومهم وقتا طويلا ، ولكنهم أدركوا أن فترة النوم قد طالت أكثر من المعتاد قليلا فأقبلوا فيما بينهم يتساءلون كم لبثتم ؟ قالوا لبعضهم البعض : لبثنا يوما أو بعض يوم . . ولكنهم كدأب المؤمنين فوضوا الأمر فى ذلك لله قائلين ربكم أعلم بما لبثتم . .

ودب الجوع فى أمعائهم .. وشعروا بحاجتهم إلى الطعام ..

وتلفتوا حولهم فلم يجدوا شيئا يؤكل .. لقد فنى مامعهم من طعام قبل أن يناموا نومتهم الأخيرة ، وكانوا قد عزموا على أن يبعثوا واحدا منهم فى الصباح ليمتار لهم .

واستعادوا معا حديثهم الذى قطعه النوم منذ قرون وكأنه لم ينقطع إلا منذ ساعات فتذاكروا أمر الهروب من « دقيانوس » واستشعروا الطلب الذى لايمكن أن يسكت عنهم ، وأن القبض عليهم وشيك وسوف يعقب القبض عليهم القتل بدون محاكمة أو رحمة .. « فدقيانوس » رجل لاتعرف الرحمة سبيلا إلى قلبه .. وكيف والرحمة قرينة الايمان ؟ فمتى فُقِدَ الإيمان فقدت الرحمة ..

ولكنهم لم يلبثوا أن فوضوا الأمر لله ، ووثقوا بحفظه ورعايته ..

وطلبوا من « تمليخا » وهو صاحب نفقتهم أن ينطلق إلى المدينة ، فيأتى لهم بطعام كثير طيب ويتسمع لهم الأخبار .. وأمروه أن يتلطف فى دخوله ويترفق فى سؤاله حتى لايشعر به أحد ..

وفعل « تمليخا » كما كان يفعل ، وخرج ووضع ثيابه ، وأخذ الثياب التى كان يتنكر فيها ، وحمل معه ورقا - فضة - من التى كانت معهم للنفقة ..

وسار فى طريقه نحو المدينة فى حذر ورفق ..

هذه الأحداث ذكرها القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ

قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ (٧)

ذيوع أمرهم :

وخرج تمليخا من باب الكهف فوجد حجارة مبعثرة هنا وهناك ، إنها لم تكن موجودة بالأمس ، فعجب من ذلك ، ومشى فى طريقه إلى المدينة ، ولاشك فى أنه وجد تغيرا ماقد طرأ على الطريق ، ولكنه لم يلق لذلك بالا . أما الذى استرعى انتباهه حقا فهو باب المدينة .

---

(٧) الكهف ٩ : ٢٠ .

لقد وجد على باب المدينة علامات تدل على أن هناك إيمانا يعمرها . . فقد اختفت علامات الوثنية التى كانت تعلو الباب بالأمس . . وحاور نفسه : أهكذا تنقلب المدينة من الكفر إلى الايمان بين عشية وضحاها ؟

ومع ذلك لم يصدق عينيه ، وسار متخفيا فى طرقات المدينة ينظر ذات اليمين وذات الشمال ، تخوفا من أن يراه أحد فيشى به إلى « دقيانوس » الذى يتوعده ويتوعد رفاقه . .

ولو كان الأمر متعلقا به لهان الأمر ، ولكنه متعلق به وباخوانه الذين تركهم فى الكهف ينتظرون عودته وهم يتضورون جوعا .

بل وربما كان فى هلاكهم ضياع لهذا الدين الذى فروا به حفاظا عليه ، وهم يعلمون أنه لايوجد على عقيدتهم أحد سواهم . . فلو كان معهم أحد لشاركهم الفرار من الكفر وخرج معهم مهاجرا بدينه إلى الله . .

لقد راودته هذه الأحاسيس وهو يجوس طرقات المدينة . . وهاله أنه لم ير أحدا يعرفه من الناس . . لقد تغيرت الأشكال والشارات والملابس ، وتغيرت هيئات البيوت ونظام الأبنية . .

قفز إلى ذهنه خاطر : إن هذه المدينة ليست « أفسوس » ، أجل ، ليست هى ، فلو كانت هى لتعرف على أى أحد فيها ، ولرأى المنازل والأبنية والطرقات التى يعرفها . .

وغلبته الحيرة ، وترك الباب الذى دخل منه إلى باب آخر ، فلم يضف إلى

دائرة تعرفه على المدينة شيئا ، فعاد إلى الباب الأول الذى دخله بادىء ذى بدء ، وأخذ يتفرس فى واجهات المنازل فاذا به يقرأ عبارات تشير إلى التوحيد . . وازداد عجبه ، لقد كان بالأمس يُقْتل كل من تصدر من لسانه لفظة تشير إلى الايمان . . فاذا بهذه الكلمات الايمانية تكتب بلغة واضحة فوق الجدران .

وقال فى نفسه : لعلى فى حلم . فجعل يختبر نفسه فاذا به فى منتهى اليقظة ، وليس نائما . . ودخل السوق ، فرأى ناسا يذكرون اسم عيسى بن مريم ويحلفون به ، فازداد عجبه ولعل التعب قد أدركه ، فجلس وأسند ظهره إلى جدار وقال فى نفسه : والله ما أدرى ماهذا . عشية أمس لم يكن على وجه هذه الأرض إنسان يذكر عيسى بن مريم إلا قتل ، أما الآن فيذكر الناس اسم عيسى ولايخافون .

وربما خالجه الشك مرة أخرى فى أمر هذه المدينة ، وغلب الظن على نفسه أنها ليست « أفوس » ولكنه عاد يقول لنفسه : والله ما أعلم مدينة أقرب إلى الكهف الذى كنت فيه من مدينتنا وماخلفتها إلا بالأمس . . فهل يخفى علىَّ أمر هذه المدينة أو أضل الطريق إليها فى ساعات معدودة ؟

وقام كالحيران ، فلقى فتى من أهل المدينة فسأله قائلا : ماسم هذه المدينة ؟ فقال له الفتى : إنها أفسوس . .

فقال فى نفسه : لعل بى مسا ، أو أمرا أذهب عقلى . وإنه لجدير بى أن أخرج سريعا قبل أن يصيبنى سوء فأهلك . .

ولعله حدث نفسه قائلا : لئن خرجت قبل أن يفطن لى أحد لكان أكيس . .
ودنا من تاجر يبيع الطعام ، فأخرج مامعه من الورق ـ الفضة ـ فأعطاها إياه وقال : بعنى بهذه الدراهم طعاما . .

وتناول صاحب الطعام الدراهم ، ونظر إليها فى دهش . . إن نقشها وضربها يخالف دراهم اليوم . . لقد مر على هذه العملة الفضية مئات السنين . .

وأعطى الدراهم إلى رجل من أصحابه فنظر إليها فعجب كما عجب صاحب الطعام وظل الناس القريبون يتطارحون الدراهم وينظرون اليها . . وقال واحد منهم : ان هذه الدراهم من كنز عثر عليه هذا الرجل . .

ونظر « تمليخا » إليهم وهم يتطارحون الدراهم ويتهامسون فيما بينهم فأصابه ذعر شديد . وأدرك أنهم فطنوا إليه وعرفوه ، فهم بالفرار ولكنه تماسك وفوض أمره إلى الله . .

ونظر إلى صاحب الطعام قائلا : أعطنى ما أريد فقد أخذت دراهمى ، وإلا فرد إلىّ الدراهم فلاحاجة بى إلى طعامك . .

فقال رجل منهم من أنت يافتى ؟ وماشأنك والله لقد وجدت كنزا من كنوز الأولين وأنت تريد أن تخفيه عنا ، فانطلق معنا وشاركنا فيه وإلا رفعنا أمرك إلى السلطان ليقضى فى أمرك بما يريد . .

فلما سمع « تمليخا » قولهم قال فى نفسه : لقد وقع ماكنت أحذر منه وسكت ، فلما رأوا سكوته ازداد ريبة فيه ، فقال رجل آخر : والله إنك لاتستطيع أن تكتم شيئا مما وجدته ولاتظن فى نفسك أنك تنجو منا . .

وتملكت « تمليخا » الحيرة وأسقط فى يده فما استطاع أن يحير جواباً أو ينطق بكلمة .

فلما رأوه لا يتكلم أخذوا كساءه وطوقوه به فى عنقه وجعلوا يقودونه فى سكك المدينة فى طريقهم إلى الحاكم . .

وتسامع الناس فى كل مكان فى سرعة البرق ، فأقبلوا ينظرون إلى رجل عثر على كنز دفين وهو يضن به على السلطان . .

وأخذوا يتفرسون فيه ويقولون : والله ما هذا الفتى من أهل المدينة ، وما رأيناه قط ولا نعرفه .

ولما اجتمع الناس حوله ازداد حيرة وخوفاً ، وازداد سكوته فلم ينطق ببنت شفة ، ولو قال إنه من أهل هذه المدينة لم يصدقه أحد بعد ما سمعه من إنكارهم معرفته . .

وكان مستيقناً أن أباه وإخوته وهم من أهل هذه المدينة لابد أن يحضروا ويروه ويعرفوه وربما دفعوا عنه بعض الشر الذى يحيط به .

ولكن أحداً من هؤلاء الذين كان ينتظر حضورهم لم يحضر . .

وسيق « تمليخا » إلى السلطان . .

وكان يظن أنه يقاد إلى « دقيانوس » فأعد نفسه للاستشهاد ، وأخذ يرفع رأسه تضرعاً إلى الله فى رجاء واشفاق . . والناس يسخرون به من حوله ولا يعرفون من حقيقة أمره شيئاً .

وخاطب « تمليخا » ربه بلسان الذل والانكسار قائلاً : « اللهم إله السماء وإله الأرض أفرغ علىّ اليوم صبراً ، وأولج معى روحاً منك تؤيدنى عند هذا الملك الجبار »

وجعل يبكى ويقول فى نفسه : فُرِّقَ بينى وبين اخوتى ، ياليتهم يعلمون مالقيت وأين يُذْهَب بى ، فلو أنهم علموا ما أصابنى لأتوا إلىّ فوقفنا معاً بين يدى هذا الجبار الذى أساق الآن إليه ، لأننا اتفقنا أن نكون معاً على الإيمان لا نكفر بالله ولا نشرك به شيئاً .. ولكنى الآن وحدى وهم لا يعلمون من أمرى شيئاً ..

وأخيراً وصلوا به إلى قصر الحكم .. ولكنه لم ير « دقيانوس » ..
بل رأى وجوهاً يعلوها الإيمان وتكسوها الرحمة ورأى من بين هذه الوجوه وجهى رجلين صالحين قيل إنهما هما اللذان يحكمان المدينة نيابة عن الملك ، وهما « آرموس » و« آصطفوس » .

ونظر إليه أحدهما وقال له : أين الكنز الذى وجدته يا فتى ، فإن هذه الدراهم التى معك تشهد أنك أصبت كنزاً .؟

فقال تمليخا وقد ذهب روعه واستعاد هدوءه .. ماوجدت كنزاً ، ولكن هذه الورق نقود آبائى وهى نقش هذه المدينة وضربها ، ولكنى ما أدرى والله ما شأنى ، وما أدرى ما أقوله لكم ..

فقال له الآخر : من أنت أيها الفتى ؟

فقال : كل ما أعرفه أنى كنت من أهل هذه المدينة حتى أمس ..
فقالوا له : من أبوك ؟ ومن يعرفك هنا ؟

فأخبرهم باسم أبيه وجده ، فلم يعرفه أحد منهم ..
فقال رجل فى أقصى المجلس : أنت رجل كذاب لا تخبر بالحق ..
فنكس « تمليخا » رأسه فى الأرض وبكى ..
فقال أحدهم : إنه رجل مجنون ..

وقال آخر : إنه ليس بمجنون ولكنه يتصنع الجنون ليفلت بالغنيمة التي عثر عليها . .

وقال أحد الحاكمين : وقد نظر إلى تمليخا بامعان : أتظن أنا نتركك ونصدقك أن هذا مال أبيك . . إن نقش هذا الورق وضربها يخبر بأن لها أكثر من ثلثمائة سنة وأنت غلام شاب ؟ أتظن أنك تأفكنا وتسخر منا وحولك سراة المدينة وولاة أمرها ؟ وأن خزائن هذه البلدة بأيدينا ، وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار ؟

قل الحق وإلا سآمر بك فتضرب وتعذب عذاباً شديداً ، ثم أوثقك حتى تُقِر بهذا الكنز الذى وجدت . .

فلما قال ذلك أجاب تمليخا . .

أنبئونى عن شىء أسألكم عنه ، فإن فعلتم صدقتكم ما عندى .

قالوا : سل فإنا لا نكتمك شيئاً .

قال : فما فعل الملك « دقيانوس » ؟

فقالوا : لسنا نعرف اليوم على وجه الأرض ملكاً يسمى « دقيانوس » ولم يكن بهذا الإسم إلا ملك هلك من زمن طويل ، وقد هلكت بعده قرون كثيرة . .

فقال لهم تمليخا : فوالله ما يصدقنى أحد من الناس فيما أقول ، لقد كنا فتية عشنا فى عهد هذا الملك وإنه أكرهنا على عبادة الأوثان والذبح للطواغيث ، فهربنا منه عشية أمس فنمنا ، فلما انتبهنا خرجت لأشترى لأصحابى طعاماً وأتحسس لهم الأخبار ، فإذا أنا كما ترون ، فانطلقوا معى إلى الكهف الذى فى جبل « منحلوس » أريكم أصحابى . .

الفتية فى انتظار صاحبهم :

وانطلقوا جميعاً وأمامهم « تمليخا » فى طريقهم إلى الغار ..

أما الفتية فى الكهف فقد كانوا ينتظرون « تمليخا » وبطونهم خاوية من الجوع ، فلما طال انتظارهم ظنوا أنه قد ذهب به إلى « دقيانوس » وتوجسوا خيفة وتوقعوا أن يحيط بهم الجند وشيكا .

وبينما هم يظنون ذلك ويتوجسونه إذ سمعوا أصواتاً وجلبة فى الجبل مصعدة نحوهم ، فتيقنوا أنهم رسل « دقيانوس » إليهم ، ففزعُوا إلى الصلاة وسلم بعضهم على بعض ، واستعدوا للاستشهاد ..

ووقف القوم على الفتية ، وكان قد سبقهم « تمليخا » إليهم ، ودخل عليهم وهو يبكى ، فلما رأوه يبكى بكوا معه ، ثم سألوه عن شأنه فأخبرهم بخبره وقص عليهم المسألة ، فعرفوا أنهم كانوا نياماً بإذن الله تعالى ذلك الزمان كله ، وإنما أيقظهم الله ليكونوا آية للناس وتصديقاً للبعث ، وقطعاً لدابر الشك الذى ساور الناس فى أمره ، واستجابة لدعوة الملك الحالى الذى تضرع إلى الله أن يهدى الناس إلى الحق ، وينصرهم على باطل الذين يزعمون أنه لا حياة إلا هذه الدنيا ، وأنه لا بعث فى الآخرة ولا حساب ولا ثواب ولا عقاب ..

فى انتظار الملك :

ودخل القوم على الفتية فى أثر « تمليخا » ووجدوا قريباً منهم على باب الكهف لوحاً مكتوباً فيه مايلى :

« إن مكسمينا ، وأمليخا ـ أو تمليخا ـ ، ومرطوكش ، ونوالس ، وسانيوس ، ويطنيوس ، وكشفوط ، كانوا فتية هربوا من ملكهم « دقيانوس » الجبار مخافة أن

يفتنهم عن دينهم ، فدخلوا هذا الكهف فسد عليهم بالحجارة ، وإنا كتبنا شأنهم وخبرهم ليعلم من بعدهم أمرهم إذا عثر عليهم »

فلما قرأ القوم هذا اللوح عجبوا وحمدوا الله ـ عز وجل ـ أن أراهم آية البعث فيهم ، ثم رفعوا أصواتهم بحمد الله وتسبيحه .

ودخلوا على الفتية فوجدوهم جالسين وقد أشرقت أساريرهم فى ثياب لم تبل وشعور لم تَشِب ، إنهم شباب لم يتخطوا الحلقة الثالثة من العمر ، فى مقتبل الحياة ، نَوَّرَ الإيمان قلوبهم وجَمَّلَ نوره وجوههم ..
فخر القوم على وجوههم ساجدين شكراً لله ..
وحدَّث الفتية عما لقوا من « دقيانوس » ..

وأرسل القوم إلى ملكهم أن يعجل بالحضور ليرى آية الله التى استجاب بها دعوته وجعلها نوراً وضياءً وتصديقاً بالبعث ، حيث بعث فتية آمنوا بربهم بعد أن أماتهم أكثر من ثلثمائة سنة .

وجاء الملك سريعاً وقال : حمداً لله رب العالمين رب السموات والأرض وأعبدك يارب وأسبح لك ، أنعمت على ورحمتنى برحمتك ، فلم تطفىء النور الذى كنت جعلته لآبائى .

وخاطب الفتية الملك وخاطبهم ..
ثم قالوا له : نستودعك الله ونقرأ عليك السلام حفظك الله ومد فى ملكك وعمرك .

ثم رجعوا إلى مضاجعهم وتوفاهم الله إلى رحمته ..
فأمر الملك أن يجعل لكل واحد منهم تابوت من ذهب ، فلما أمسى ونام رأى

فى النوم الفتية يقولون له : إنا لم نخلق من ذهب ولا فضة ، ولكنا خلقنا من تراب وإلى التراب نعود فاتركنا كما كنا فى الكهف على التراب حتى يبعثنا الله .

وأمر الملك بأن يبنى على باب الكهف مسجد يعبد الله فيه ..

قال العلماء فيما روى عن عبدالله بن عمر [8] : إن الله تعالى أعمى على الناس حينئذ أثر أهل الكهف وحجبهم عنهم ، فدعا ذلك إلى رأى من قال ابنوا عليهم بنياناً ليكون مَعْلَماً لهم ـ ولكن الذين غلبوا على أمرهم وهم من كانوا على دين الفتية هم الذين اختاروا بناء المسجد ..

عددهم ومدة مكثهم فى نومهم :

وقد تمارى الناس كثيراً حول عدتهم وحول السنوات التى قضوها فى نومهم قبل إيقاظهم واطلاع الناس على قصتهم .

فمن الناس من يقول إنهم ثلاثة ورابعهم كلبهم ..
ومنهم من يقول إنهم خمسة وسادسهم كلبهم ..
ومنهم من يقول إنهم سبعة وثامنهم كلبهم ..
ثم تماروا فى عدد السنين التى قضوها نياماً قبل يقظتهم ..

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى بضرورة التفويض فى ذلك إلى علم الله ..

وللمحقق الشيخ عبد الوهاب النجار ـ رحمه الله ـ كلمة قيمة فى ذلك ، قال : أكثر المفسرين أن قوله ـ تعالى ـ « ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً » خبر عن مدة مكث أهل الكهف فى كهفهم منذ دخلوه إلى أن استيقظوا .

---

(٨) راجع تفسير القرطبى ـ سورة الكهف ـ ص ٣٩٩٦ ط دار الشعب

ولكنى أنهم غير ذلك وأقول : إن قوله ـ تعالى ـ « ولبثوا فى كهفهم » من مقول القائلين فى قوله تعالى « سيقولون ثلاثة » . . الخ وليس خبراً من الله تعالى ، ولذا اتبع ذلك القول بقوله : « قل الله أعلم بما لبثوا . . » .

وعلى ذلك فالقرآن الكريم لم ينص على عدد أهل الكهف ولا على المدة التى مكثوها فيه قبل أن يعثر عليهم بل أمر رسوله أن يقول عن عددهم : ربى أعلم بعدتهم ، وأن يرد عليهم حين يقولون : ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً بقوله : الله أعلم بما لبثوا ، وقد ورد هذا القول عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما[9] .

وقد قص الله علينا هذه الأحداث فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا (٢١) سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا

---

(٩) دائرة المعارف الاسلامية جـ ٣ ص ٤٥٦

﴿ ... وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾ (١٠)

لقد علم الله أن قوم هذا الملك الذى يحكم الآن لن يؤمنوا بالبعث إلا بآية محسوسة وخبر ملموس ، فأحيا أمامهم هؤلاء الفتية الذين كانوا قد ضرب الله على آذانهم أكثر من ثلاثة قرون ليدركوا قدرة الله الخارقة وأنه إذا أراد قضاء أمر قال له كن فيكون .

هل رآهم أحد بعد ذلك ؟:

لقد قال اللهَ فى حق هؤلاء : لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً ، وهذا معناه أنه لن يستطيع أحد أن ينظر إليهم . . لما ألبسهم الله من الهيبة .

وقد روى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال : غزونا مع معاوية غزوة المضيق نحو الروم ، فمررنا بالكهف الذى فيه أصحاب الكهف الذين ذكرهم الله فى القرآن الكريم ، فقال معاوية : لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم ؟

فقلت له : ليس لك ذلك فقد منع الله من هو خير منك ، قال تعالى :

« لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً »

فقال معاوية : لا انتهى حتى أعلم علمهم ، ثم بعث ناسا لينظروا ، وقال لهم : اذهبوا فادخلوا الكهف .

---

(١٠) الكهف ٢١ : ٢٦

فذهبوا ، فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحاً فأخرجتهم [11]
وأما ماورد من أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ سأل ربه أن يريه إياهم فقال له : إنك لن تراهم ولكن ابعث إليهم أربعة من أصحابك ليبلغوهم رسالتك ويطلبوا منهم الإيمان بك فأرسل إليهم أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً . .

فهو خبر تعوزه الصحة وينقصه التوثيق ، وقد ذكره الدميرى فى كتابه نقلاً عن الثعلبى .

آيات وعبر :

وقصة أهل الكهف حافلة بالعبر والعظات . .

ـ فهى تعلمنا الثبات على الإيمان والاستمساك بالعروة الوثقى والاعتصام بالحق وعدم التفريط فيه مهما مد الباطل فى أسبابه ، واشتد الطاغوت فى إرهابه .

ـ والقصة تدعو إلى إيثار الآخرة على الأولى والتضحية بزهرة الحياة الدنيا فى سبيل الإيمان الحق والعقيدة الصحيحة ، فقد كان هؤلاء الفتية من سلالة الملوك ولو شاءوا لبقوا فى رفاهة عيشهم وأبهة ملكهم ، ولكنهم أحبوا الحق فهان فى جواره كل زخرف ، وعرفوا الله فنأوا بجانبهم عن غيره . .

ـ وتدعو القصة المؤمنين إلى الهجرة من دار الكفر إذا لم يستطيعوا مواجهة الباطل وتقويمه وجهاده ، وهذا مايشير إليه القرآن الكريم فى قوله :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ

---

(11) حياة الحيوان للدميرى حـ ٢ ص ٥٠٣

فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ﴿٩٨﴾ (١٢)

وفى القصة بيان لقدرة الله ـ تعالى ـ على حفظ أجساد من يريد من عباده بعد موتهم فهؤلاء الفتية مكثوا فى كهفهم ما يزيد على ثلاثمائة سنة لم تبل أجسادهم ولم تتغير هيئاتهم وبعثوا من رقدتهم كهيئتهم التى ناموا عليها ،وقد استثنى الله من تحلل أجساد العباد أجساد الأنبياء تكريماً لهم وقد ورد فى ذلك أثر : إن الله حرم على الأرض أجساد الأنبياء . .

ـ وفى القصة اشارة إلى وجوب تقديم مشيئة الله عند العزم على فعل شىء استجابة لقول الحق ـ سبحانه وتعالى ـ « ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله » . .

ـ وفيها وجوب المداومة على الله وعدم نسيانه ، فالله تعالى يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم :

« واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشداً »

ومعنى النسيان هنا نسيان الاستثناء ، لأن تفويض الأمر لمشيئة الله ذكر لله وقال عكرمة : إن « نسيت » هنا معناها غضبت ـ يعنى إذا غضبت فاذكر الله .

---

(١٢) النساء ٩٧ : ٩٨

وقد روى عن وهب بن منبه : قال مكتوب فى الانجيل : يابن ادم اذكرنى حين تغضب أذكرك حين أغضب ، وإلا أمحقك فيمن أمحق ، وإذا ظُلِمْتَ فلا تنتصر ، فإن نصرتى لك خير من نصرتك لنفسك(١٣)

ـ لقد جاءت قصة أهل الكهف فى القرآن الكريم استجابة لسؤال جاء على وجه العناد من اليهود والمشركين وفى ذلك دليل على هيمنة القرآن على ما سبقه من الكتب ، وقد قال الله تعالى فى ذلك :

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ (١٤)

فقد أخبرهم الله بقصة هؤلاء على حقيقتها ، وكانوا يشكون فيها ، وكانوا يظنون أنهم أعجزوا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بسؤالهم عما لا يعرفه مما سبق لهم علم به من أحبارهم فكان الله من ورائهم محيطاً ـ والقصة مع ذلك تعلى من مقام الفتية ، فقد وصفهم القرآن بأنهم فتية آمنوا بربهم ـ والفتوة صفة جامعة لكثير من خصال الخير والشهامة والنبل ، ومن أهم معالمها الفدائية والاستبسال والتطلع إلى الكمال ، وقد وصف الله بها إبراهيم ـ عليه السلام ـ حين قال :

﴿ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝٦٠ ﴾ (١٥)

كما وصف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بها على بن أبى طالب فقال :

لا فتى إلا علىٌّ . .

---

(١٣) حياة الحيوان حـ ٢ ص ٥٢٤

(١٤) المائدة ٤٨

(١٥) الأنبياء ٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

ذو القرنين

- سؤال أهل الكتاب للنبى - صلى الله عليه وسلم - عن ذى القرنين.
- قصة ذى القرنين فى القرآن.
- إسمه ونسبه ولقبه.
- هل كان ذو القرنين نبيا؟
- هل كان هو الإسكندر المقدونى؟
- أحداث قصة ذى القرنين.
- هل عثر ذى القرنين على المدينة الفاضلة؟
- ذى القرنين ويأجوج ومأجوج.

ذو القرنين

روى الإمام محمد بن الربيع فى مسند من دخل مصر من الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ عن عقبة بن عامر الجهنى ـ رضى الله عنه ـ أنه قال :

كنت عند النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخدمه فإذا أنا برجال من أهل الكتاب معهم مصاحف أو كتب فقالوا : استأذن لنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فانصرفت إليه فأخبرته بطلبهم ، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : مالى ولهم يسألوننى عما لا أدرى . . إنما أنا عبد لا علم لى إلا ما علمنى ربى ـ عز وجل ـ

ثم طلب ـ صلى الله عليه وسلم ـ : الماء للوضوء فتوضأ ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قام إلى مسجد فى بيته فركع ركعتين ، فلم ينصرف حتى عرفْتُ السرور فى وجهه والبشر .

ثم قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : اذهب فأدخلهم ، ومن وجدت من أصحابى بالباب فأدخله معهم . .

قال : فأدخلتهم ، فلما رفعوا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : إن شئتم أخبرتكم عما أردتم أن تسألونى قبل أن تتكلموا ـ وإن شئتم تكلموا به وأخبركم .

فقالوا : بل أخبرنا قبل أن نتكلم .

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ جئتم تسألوننى عن ذى القرنين ، وسأخبركم عما

تجدونه مكتوباً عندكم . . إن أول أمره أنه غلام من الروم أعطى مُلكاً فسار حتى بلغ ساحل أرض مصر فابتنى عنده مدينة يقال لها الإسكندرية .

فلما فرغ من بنيانها أتاه ملك فعرج به حتى استقله ، فرفعه ثم قال له : انظر ماذا ترى تحتك

قال أرى مدينتى وأرى مدائن معها

ثم عرج به وقال : انظر ماذا تحتك ؟

قال : اختلطت مدينتى مع المدائن فلا أعرفها

ثم زاد فقال : انظر ماذا ترى ؟

فقال : أرى مدينتى وحدها لا أرى معها غيرها .

فقال له الملك : إنما تلك الأرض كلها ، والذى ترى محيطاً بها هو البحر ، وانما أراد ربك أن يريك الأرض وقد جعل لك سلطاناً سوف يعلم الجاهل ويثبت العالم (1)

قصة ذى القرنين فى القرآن :

وردت قصة ذى القرنين فى القرآن الكريم فى سورة الكهف فى الآيات من قوله تعالى :

﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ٨٣ ﴾ (2)

حتى قوله تعالى :

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ٩٨ ﴾ (3)

---

(1) حياة الحيوان للدميرى جـ ٢ ص ٣٢١

(2) آية رقم ٨٣

(3) آية رقم ٩٨

وسيأتى ذكر الآيات فى أثناء عرض القصة .

وقد سبق أن أشرنا إلى القصة التى وردت فى سبب نزول هذه الآيات حين تحدثنا عن قصة أهل الكهف فقد كان نزولها بناء على تحد من قبل اليهود للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أرادوا أن يحرجوه فطلبوا منه أن يخبرهم عن أهل الكهف وعن ذى القرنين وعن الروح .

والحديث الذى ذكرناه فى مقدمة هذا الكلام يدل على محاولات الكتابيين المتكررة فى البحث عن حقيقة دعوة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومدى علمه بأخبار من سبق ، ومنهم من كان يؤمن ومنهم من كان يُعرض .

اسمه ونسبه :

اختلف فى اسم ذى القرنين ونسبه

فمنهم من جعله مصرياً ومنهم من جعله رومياً ومنهم من جعله يونانياً . .

فقد ورد عن ابن اسحاق ـ فيما ذكره القرطبى ـ أنه قال : حدثنى من يسوق الأحاديث عن الأعاجم فيما توارثوا من علم ذى القرنين أنه كان من أهل مصر ، واسمه مرزبان بن مردبة اليونانى ، وأنه من ولد يونان بن يافث بن نوح . .

وقال ابن هشام فيما ذكره الدميرى إنه الصعب بن ذى مرثد الحميرى من ولد وائل بن حمير ، وقيل إن الملك تُبَّع اليمنى افتخر به فى شعره ، فقال :

قد كان ذو القرنين قبلى مسلماً	ملكاً علا فى الأرض غير مفند
بلغ المغارب والمشارق يبتغى	أسباب أمر من حكيم مرشد
فرأى مغيب الشمس عند مآبها	فى عين ذى خُلُب وثأط حرمد[4]

---

(٤) تفسير الكشاف حـ٢ ص ٧٤٤ والمفند : المكذب ـ والمآب : المرجع ـ وخلب ـ بضمتين : الحمأة وهى الطين ، والثأط : الحمأة المختلطة بالماء ـ والحرمد : الطين الأسود .

وذكر المسعودى فى تعليل يمنيته أن بعض التابعة غزا مدينة رومية وأسكنها قوماً من اليمن ، وأن ذا القرنين من أولئك العرب الذين سكنوها [٥]

وروى أيضاً عن ابن هشام أن اسمه الإسكندر وهو الذى بنى الاسكندرية .
وقيل : إن اسمه هرمس وقيل : هرديس . .

أما السهيل فيقول : هما اثنان ، أحدهما قضى لإبراهيم - عليه السلام - حين تحاكموا إليه فى بئر السبع بالشام ، والآخر كان قريباً من عهد عيسى - عليه السلام - وقد قيل : إنه « أفريدون » الذى قتل « بيوراسب » الملك الطاغى على عهد إبراهيم أو قبله بزمن [٦]

ويذكر الدميرى خبراً عن صاحب كتاب « ابتلاء الأخيار » يفيد بأن ذا القرنين اسمه الاسكندر وكان أبوه من أعلم أهل الأرض بالنجوم ومد الله له فى الأجل ، وكان متزوجاً من شقيقه أم الخضر ، وقد علقت كلتاهما بولدها فى ليلة واحدة . . فالخضر وذو القرنين ابنا خالة أحدهما عمر فى الأرض والآخر ملك من فيها [٧]

أما لقبه - ذو القرنين - فذكروا له أسباباً عدة . .
منها أنه بلغ الشرق والغرب ، ومنها أنه كان له قرنان تحت عمامته ، أى عظمتان ناتئتان كأنهما قرنان ومنها أنه كانت له ضفيرتان ، ويطلق على الضفيرة قرن كما قال الشاعر :

فلثمت فاها آخذا بقرونها ... شرب النزيف ببرد ماء الحشرج

---

(٥) مروج الذهب للمسعودى جـ ١ ص ٢١٧
(٦) التعريف والاعلام للسهيل ص ٧٨
(٧) حياة الحيوان للدميرى جـ ٢ ص ٣٦

وقيل : إنه لقب بذلك لأنه رأى فى أول ملكه أنه قابض على قرنى الشمس . .

وقيل غير ذلك ، وحسبنا أن القرآن ذكره بلقبه هذا

زمانه :

واختلف فى زمانه فقيل إنه كان بعد موسى ـ عليه السلام ـ

وقيل إنه كان قبل ذلك ، كان فى وقت إبراهيم ـ عليه السلام ـ

وقيل : إنه كان فى الفترة بعد عيسى . . وبناء على هذا الرأى عرضنا قصته فى هذا المكان . .

وقد ذكره المسعودى مع أهل الفترة قائلاً : وقد حكى عن وهب بن منبه أن ذا القرنين ـ وهو الاسكندر كان بعد المسيح ـ عليه السلام ـ فى الفترة ، وأنه كان قد رأى فى منامه أنه دنا من الشمس حتى أخذ بقرنيها فى شرقها وغربها ، فقص رؤياه على قومه فسموه بذى القرنين [٨]

هل كان ذو القرنين نبياً ؟ :

ذكر بعضهم أنه ملك ـ بفتح اللام ـ وقد روى خالد بن معمدان خبراً عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه كان ملكاً مسح الأرض من تحتها بالأسباب . .

وقيل إنه مَلِك ـ بكسر اللام ـ كان صالحاً نصح لله فأيده . .

وقيل : هو نبى مبعوث فتح الله على يديه الأرض ـ وكان ينزل عليه مَلك اسمه « رفائيل »[٩]

---

(٨) مروج الذهب للمسعودى جـ ١ ص ٤٧

(٩) تفسير القرطبى ـ سورة الكهف ـ ص ٤٠٨٥ ط دار الشعب

وربما رجح كونه نبياً خطاب الله له بقوله : قلنا ياذا القرنين » واطلاق يده فى التعذيب والإثابة وتأييده بالمعجزات . .

هل هو الاسكندر المقدونى ؟ :

ليس الاسكندر المقدونى ـ عند المحققين ـ هو ذا القرنين .

فإن الاسكندر المقدونى له تاريخ محفوظ ـ وكان معاصراً « لدارا » ملك الفرس . .

وأبوه كان ملكاً اسمه فيليب خضع للفرس حينا ودفع لهم إتاوة ، رفضها الإسكندر حين تولى الملك . .

والرواة يذكرون فى ذلك قصة طريفة ـ هى أن الاتاوة التى كان يدفعها « فيليب » أبو الاسكندر لدارا ملك الفرس كانت عبارة عن بيض من الذهب ، فلما تولى الاسكندر امتنع عن دفع الإتاوة وقال لدارا : إنه قد ذبح الدجاجة التى كانت تبيض الذهب وأكل لحمها .

وتحاربا فظهر الاسكندر عليه ، واغتال « دارا » رجلان من حاشيته فقتلهما الاسكندر قصاصاً له وعقاباً لهما على قتل ملكهما ، وتزوج من ابنة دارا بوصية منه وهو يحتضر ، وكان اسمها « روشنك » .

وقام الاسكندر بغزوات كثيرة وفتح مشارق الأرض ومغاربها . . ومات شابا فى الحلقة الرابعة من عمره[١٠] ورثاه فلاسفة عصره . .

---

(١٠) دائرة المعارف الاسلامية جـ ٢ ص ٣١٨

لقد كان الإسكندر المقدونى تلميذاً للفيلسوف أرسطو ، وفلسفة أرسطو لم تكن خالصة من الشوائب ، ومن غير شك لابد أن يتأثر التلميذ بأستاذه .

أما ذو القرنين فقد كان مؤمناً حقاً بدليل ما ورد فى قصته التى أوردها القرآن الكريم وماجاء فيها من دلائل تشير إلى العقيدة الصحيحة التى فيها النجاة كل النجاة لمن يعتقدها .

إذن فاسكندر أرسطو ، غير ذى القرنين الذى ذهبنا فى زمنه مذهب من يرى أنه من أهل الفترة التى أعقبت المسيح ـ عليه السلام ـ
أما الاسكندر المقدونى فقد كان زمنه سابقاً على الميلاد ..

قصة ذى القرنين :

اختار الله ذا القرنين ملكاً يعمر الأرض ويزرعها شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً ، ومكنه فيها بالعلم ، وأيده بالأسباب ، وأمده بالخوارق والكرامات ، وأعطاه سلطاناً واسعاً وحكماً نافذاً ، وقال له : سر فى الأرض فَعَلِّمْ الجاهل وثَبِّتْ العالم ..

فقال ذو القرنين : وقد هاله الأمر :
رب قد ندبتنى لأمر عظيم لا يقدره إلا أنت ، فأخبرنى عن هذه الأمم بأى قوة أكاثرهم ؟ وبأى صبر أقاسيهم وبأى لسان أناطقهم ، وكيف لى بأن أفقه لغتهم وليس عندى قوة ؟

فأجابه الحق ـ تعالى ـ : سأظفرك بما حملتك ، أشرح لك صدرك ، فيسع كل شىء ، وأثبت لك فهمك فتفقه كل شىء ، وألبسك الهيبة فلا يروعك شىء ،

وأسخِّرُ لك النور والظلمة فيكونان جنداً من جنودك يهديك النور من أمامك ، وتحفظك الظلمة من ورائك .

وصدع ذو القرنين بالأمر ، فسار متجهاً إلى المغرب وقد بلغ نهاية ما يمكن أن ينتهى إليه من عمارة فى الأرض من جهة الغرب ، ونظر إلى الشمس وهى تغرب فوجدها فى رأى العين تغرب فى مكان به عين ذات ماء حار وطين أسود ، ووجد بالقرب من هذه العين قوماً كافرين .

فدعاهم إلى الإيمان ،وأنذر من كفر منهم بالعذاب الشديد على يديه فى الدنيا وبنار جهنم فى الآخرة وبشر من آمن بالجنة ، وحسن المثوبة فى الدنيا والآخرة معاً ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر .

فسلط على الذين كفروا الظلمة فغشيتهم من كل مكان حتى عجوا إلى الله بالدعاء وقالوا : ربنا آمنا فاكشف عنا العذاب ، فكشفه الله عنهم . .

وجند ذو القرنين جنداً سار بهم نحو مطلع الشمس ، فوجد عند نهاية العمران قوماً لا يكاد يستر أجسادهم شيء . . فدعاهم إلى الإيمان كما دعا أهل المغرب .

واتجه شمالاً وجنوباً حتى جاء إلى مكان سحيق بين جبلين شاهقين هما جبلا « أذربيجان وأرمينية » وقيل : هما جبلان فى أواخر الشمال عند منقطع أرض التركستان [11]

---

(١١) المنتخب من التفسير ص ٤٤٠

ووجد فى هذا المكان قوماً صالحين ولكنهم يتكلمون بصعوبة لا يكاد أحد يفهم لهم قولاً .

ورأى هؤلاء القوم ما عليه ذو القرنين من قوة فأرادوا أن يستعينوا به على قوم مفسدين هم يأجوج ومأجوج .. وكانوا أشبه بالبهائم منهم بالانسان ، يأكلون العشب ويفترسون الدواب والوحش كما تفترسها السباع ، لا يتركون زرعاً إلا أكلوه ولا ضرعاً إلا التهموه ولا ماء إلا شربوه ، ولم تنج منهم هوام الأرض وحشراتها .. يكثر عددهم ويسرع نموهم ..

طلب القوم الصالحون من ذى القرنين أن يقيم سداً بينهم وبين يأجوج ومأجوج وعرضوا عليه أن يؤدوا ضريبة فى نظير حمايتهم من هؤلاء القوم ..

ولكن ذا القرنين قال لهم : لقد مكننى ربى وأعطانى من الملك والقدرة والسعة ما يغنينى عن خراجكم الذى تؤدونه .. ولكنى أطلب منكم أن تعينونى بقوة الأبدان والآلات التى يمكن أن تستخدم فى إقامة البنيان ..

ولا تقفوا مكتوفى الأيدى وأنا أعمل فيما يحميكم من عدوكم ، ولكن لابد أن تبذلوا الجهد معى ، ولاشك فى أن يد الله مع الجماعة ..

لقد طلب أحد الصحابة من النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يدعو له ليكون فى الجنة وأن يشفع له يوم القيامة فقال له النبى - صلى الله عليه وسلم - : أعنى على ذلك بكثرة سجودك ..

ومعنى ذلك أنه لا يجب أن يتكل الطالب على غيره فى تحقيق ما يريد ، بل لابد من بذل الجهد مع من يطلب إليه قضاء حاجته ..

ثم أوضح لهم ذو القرنين ما يمكن أن يقدموه له لينجز لهم ما يطلبون ، طلب منهم تقطيع الحديد وجمعه . . فكان يأخذ منهم هذه القطع ويضع بعضها فوق بعض بنظام وترتيب حتى يحاذى الحديد جانبى الجبلين ، ثم يأمرهم بإشعال النيران فيها حتى يضطرم الحديد فيصب عليه سائل النحاس المذاب فيصبح الحديد سداً منيعاً ، وكلما انتهى من طاقة وضع فوقها طاقة أخرى حتى انتهى من بناء السد بأكمله .

وقد وصف صحابى هذا السد لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : رأيته كالبرد المحبر طريقة صفراء وطريقة حمراء وطريقة سوداء فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : قد رأيته (١٢)

والبرد نوع من الثياب ، والمحبر : المحسن أو المخطط . . والطريقة : الخط . . . لقد أتقن ذو القرنين بناء السد إتقاناً حسناً حتى أصبح لا يستطيع قوم يأجوج ومأجوج نقبه أو الصعود فوقه لعلوه وملاسته . .

وقد نص القرآن الكريم علينا قصة ذى القرنين فى الآيات التالية :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ

قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾

---

(١٢) تفسير القرطبى

قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ (١٣)

هل عثر ذو القرنين على المدينة الفاضلة ؟

يقول بعض العلماء : إن ذا القرنين بعد أن بنى السد وأحكمه ، انطلق يسير حتى وقع على أمة صالحة مثالية كتلك التى يرسمها الفلاسفة والمفكرون فى خيالهم ويتمنون وجودها فى عالم الواقع . .

قالوا : إن ذا القرنين وجد هذه الأمة . . . ومن أوصافها أن أهلها يهدون بالحق وبه يعدلون ، وهم مقسطون مقتصدون ، يقسمون بالسوية ويحكمون

---

(١٣) الكهف ٨٣ : ٩٨

بالعدل ويتراحمون فيما بينهم .. حالهم واحدة ، وكلمتهم واحدة وأخلاقهم مستقيمة ، ورأى قبورهم على أبواب بيوتهم ، وليس لبيوتهم أغلاق ، وليس عليهم أمراء ولا يوجد بينهم قضاة .. لايختلفون ولا يتفاضلون ولا يتنازعون ولا يتسابون ولا يتقاتلون ، ولا يضحكون ، ولا يحزنون ، ولا تصيبهم الآفات التي تصيب الناس ، وهم أطول الناس أعماراً .

فلما رأى ذلك ذو القرنين عجب من أمرهم .. فقال لهم :

أخبروني أيها القوم خبركم وأعلموني أمركم ، فإني قد أحصيت الدنيا كلها برها وبحرها وشرقها وغربها فلم أر أحداً مثلكم ..

قالوا له : سل ماتريد

فقال : مابال قبوركم على أبواب بيوتكم ؟

قالوا : فعلنا ذلك عمداً حتى لا ننسى الموت ولا يخرج ذكره من قلوبنا .

قال : فما بال بيوتكم ليس عليها أغلاق ؟

قالوا : لأنه ليس فينا مُتهم .. وكل منا أمين حفيظ على حاجة غيره ..

قال : فما بالكم ليس عليكم أمراء ؟

قالوا : لا حاجة لنا بذلك فكل منا يعرف حقه ومايجب عليه ..

قال : ولماذا لا يوجد حكام أو قضاة بينكم ؟

قالوا : لانا لا نختصم .

قال : فما بالكم لا يوجد بينكم أغنياء ؟

قالوا : لانا لا نتكاثر بالأموال .

قال : فما بالكم لايوجد بينكم ملك ؟

قالوا : لأنا لا نرغب فى ملك الدنيا .

قال : فما بالكم لا يوجد بينكم أشراف ؟

قالوا : لأنا لا نتفاخر .

قال : فلماذا لا تتنازعون ولا تختلفون ؟

قالوا : من صلاح ذات بيننا ، ومن أجل أننا أسسنا أنفسنا بالحلم .

قال : فما بال كلمتكم واحدة وطريقتكم مستقيمة ؟

قالوا : لأننا لا نتكاذب ولا نتخادع ، ولا يغتاب بعضنا بعضاً .

قال : لماذا تشابهت قلوبكم واعتدلت سرائركم ؟

قالوا : لأنه قد صحت نياتنا فنزع بذلك الغل من صدورنا والحسد من قلوبنا .

قال : ولماذا لا يوجد بينكم فقير ولا مسكين ؟

قالوا : لأننا نعطي بعضنا بعضاً ، ولا يبخل أحدنا على أخيه . .

قال : فلماذا لا تضحكون ؟

قالوا : حتى لا نغفل عن الاستغفار

قال : ومابالكم لا تحزنون ؟

قالوا : لأنا وطنا أنفسنا على البلاء منذ أن كنا أطفالاً .

قال : ولماذا لا تصيبكم الآفات كما تصيب الناس ؟

قالوا : لأنا توكلنا على الله ، ولا نعمل بالأنواء والنجوم .

قال : حدثوني ، هكذا وجدتم آباءكم ؟

قالوا : نعم ، كان آباؤنا كذلك يرحمون مساكينهم ، ويواسون فقراءهم ويحرمون الظلم ، ويحسنون إلى من أساء إليهم ، ويحلمون على من جهل عليهم ، ويصلون أرحامهم ، ويؤدون أماناتهم ، ويحفظون وقت صلواتهم ، ويوفون بعهودهم ، ويصدقون في مواعيدهم ، فأصلح الله بذلك أمرهم ، وحفظهم ماداموا أحياء وكان حقاً عليه أن يخلفهم بذلك في عقبهم .

فقال ذو القرنين : لو كنت مقيماً عند أحد لأقمت عندكم ، ولكنى لم أومر بالاقامة (١٤)

وهى قصة رمزية على أية حال ، تشير إلى ما يجب أن تكون عليه الأمم . ولايجاد مثل هذه الأمة كانت رسالة الأنبياء والمصلحين والمفكرين ، وقد كانت حلم الفلاسفة والشعراء وقد تمنى كثير من الشعراء وجود مثل تلك المدينة . . وفى مثلها قال جبران خليل جبران :

يا بلاد الفكر يامهد الأولى	عبدوا الحق وصلوا للكمال
ما طلبناك بركب أو على	متن سفن أو بخيل ورحال
لست في الشرق ولا في الغرب ولا	في جنوب الأرض أو نحوالشمال
لست في الجو ولا تحت البحار	لست في السهل ولا الوعر الحرج
أنت في الأرواح أنوار ونار	أنت في صدرى فؤاد يختلج

إن هذه المدينة المثالية لا يتأتى وجودها فى عالم الواقع الذى نعيشه والذى تغذيه

(١٤) حياة الحيوان حـ ٢ ص ٣٢٢

الصراعات ، وتضطرم فيه الخلافات . ويفعل إبليس فيه أفاعليه التى توعد بها البشر منذ وجدوا على ظهر البسيطة ، وليس فى ذلك افتئات على قدرة الله جل وعلا ، ولكنه مسايرة للقدرة التى شاءت أن تجعل فى الحياة الخير والشر ، وأن تجعل من الناس الصالح والطالح ، وقد جرت حكمة الله أن تتمايز الأشياء بضدها ،ولولا الكذب ما عرفت قيمة الصدق ، ولولا قبح الخيانة ماأدرك الناس جمال الوفاء وحلاوة الأمانة ، ولولا المرض ما عرف الناس لذة الصحة .

لقد وضع القصاص أمامنا هذه القصة التى جعلوا ذا القرنين بطلها لتصوير إمكانية السير فى الحياة وفق التعاليم السماوية التى جاء بها الرسل ، وفرضتها الشرائع الالهية المتعاقبة التى نزلت بها الكتب المقدسة على الأنبياء والمرسلين .

وربما اختاروا ذا القرنين بالذات لأنه مسح الأرض وكان يهدف إلى اقامة أمة تسير على أساس سليم من الأخلاق الفاضلة والتعاليم السماوية الراقية ، وهذا هو هدفه من حروبه التى خاضها فى مشارق الأرض ومغاربها . . لقد أنعم الله عليه بالقوة ،ومكنه فى الأرض ومد له فى الأسباب فأراد أن يجعل من كل ذلك وسيلة لإقامة العدل وذيوع الحق ونشر السلام وبسط المحبة بين الناس .

ولو سار الناس على نهج أنبيائهم لسعدوا وأسعدوا ، وحولوا الحياة من حولهم جنة وارفة الظلال ، يتلاقى الناس فيها بالحب والوفاء بدلاً من هذه الغابة التى ترتع فيها الوحوش ويفتك فيها القوى بالضعيف دون خجل أو حياء .

يأجوج ومأجوج

الكلمتان فى اللغة هما كلمتان أعجميتان ولذلك منعتا من الصرف للعلمية والعجمة مثل طالوت وجالوت وقد تخفف همزتها فيقال فيهما ياجوج وماجوج ، وقد استعمل الشاعر رؤبة ذلك فى قوله : ﴿ لو أن ياجوج وماجوج معا ﴾ .

وقال بعض أهل اللغة : هما معربان من أج وأجج ، وعلة منعهما من الصرف إذن هى العلمية والتأنيث ومن رأى تعريبهما قال : ان يأجوج على مثال يربوع ، وإن مأجوج اسم مفعول من أج على وزن مفعول والكلمتان من أصل واحد . ولايخفى أن « أج » من الأجيج وهو تلهب النار ، تقول : أجَّت النار تؤج أجيجا .

وقال الأخفش : يأجوج من يجٌ ومأجوج من مجٌ - ويجٌ هنا مخفف اجٌ . وقال قطرب : يجوز أن يكونا من الأجة وهى الاختلاط كما قال الله تعالى :

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ ﴾ (١٥)

وقيل : لفهظما مشتق من الأجاج ، وهو الماء الشديد الملوحة .

أصلهم

قيل : هم من ولد يافث بن نوح - عليه السلام .

وقيل : بل هم من الترك . وقيل : إن الترك منهم ، وسموا تركا لأنهم تركوا

---

(١٥) الكهف ٩٩

خلف السد حينما بناه ذو القرنين .

وروى الطبرانى من حديث حذيفة بن اليمان ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم قال : يأجوج أمة لها أربعمائة أمير وكذلك مأجوج ، لايموت أحدهم حتى ينظر إلى ألف فارس من ولده ، صنف منهم كالأرز [١٦] طولهم مائة وعشرون زراعا ، وصنف منهم يفترش أذنه ويلتحف بالأخرى ، لايمرون بفيل ولاخنزير إلا أكلوه ، ويأكلون من مات منهم ، حين يخرجون تكون مقدمتهم بالشام وساقتهم بخراسان ، يشربون أنهار المشرق وبحيرة طبرية ، ويمنعهم الله من مكة والمدينة وبيت المقدس .

وروى أبوهريرة عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : ولدلنوح سام وحام ويافث ، فولد لسام العرب والفرس والروم والخير فيهم ، وولد ليافث يأجوج مأجوج والترك والصقالبة ولاخير فيهم ، وولد لحام القبط والبربر والسودان .

وقال القرطبى فيما يرويه عن أبى سعيد : هم خمس وعشرون قبيلة من وراء يأجوج ومأجوج لايموت الرجل من هؤلاء حتى يخرج من صلبه ألف رجل . .

وروى كذلك عن عبدالله بن مسعود أنه قال : سألت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن يأجوج ومأجوج فقال : يأجوج ومأجوج أمتان كل أمة أربعمائة ألف أمة كل أمة لايعلم عددها إلا الله . .

---

(١٦) الأرز : شجر معتدل مرتفع

قيل يارسول الله : صفهم لنا ، قال : هم ثلاثة أصناف .

صنف منهم مثل الأرز ـ أى الشجر المرتفع ـ وصنف عرضه وطوله سواء ، وصنف يفترش إحدى أذنيه ويلتحف بالأخرى .

قال على : رضى الله عنه ـ وصنف منهم فى طول شبر . .

فســـادهم

لقد وصف القرآن يأجوج ومأجوج بأنهم مفسدون فى الأرض ، وقد ضج من فسادهم هؤلاء القوم الذين شكوا أمرهم إلى ذى القرنين وطلبوا منه أن يبنى لهم سداً يحول بينهم وبين هؤلاء القوم المفسدين . . ووجه فسادهم التوحش ، فقد كانوا يأكلون بنى آدم ويهلكون الزرع والضرع .

قال وهب بن منبه : يأجوج ومأجوج يأكلون الحشيش والشجر والخشب ، وماظفروا به من الناس . .

أما فسادهم الأكبر فهو يوم ينفتح السد الذى بناه ذو القرنين ، فهم حينئذ لايقف فى طريقهم شيء ولا ينقع غلتهم ماء ولا يسد جوعتهم حيوان أو طير أو وحش أو إنسان أو زرع . .

لقد جاءت الأخبار بأن خروجهم من علامات الساعة وهذا مايعنيه قوله تعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴾ (٩٦) (١٧)

---

(١٧) الأنبياء ٩٦

قال ابن كثير فى تفسيره .

حدثنا يعقوب ، حدثنا أبى ، عن ابن إسحاق ، عن عاصم بن عمر بن قتادة ، عن محمود بن لبيد عن أبى سعيد الخدرى قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : يفتح يأجوج ومأجوج فيخرجون كما قال الله - تعالى : ﴿ من كل حدب ينسلون ﴾ فيغشون الناس ، وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم ، ويضمون إليهم مواشيهم . . إنهم يشربون مياه الأرض حتى ان بعضهم ليمر بالنهر فيشربون مافيه حتى يتركوه يبسا ، حتى ان من بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول : قد كان هنا ماء حتى إذا لم يبق من الناس أحد إلا من كان فى حصن أو مدينة قال قائلهم : هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم ، بقى أهل السماء - قال : ثم يهز أحدهم حربته ثم يرمى بها إلى السماء فترجع إليه مخضبة بالدماء للابتلاء والفتنة ، فبينما هم على ذلك إذ بعث الله عز وجل دُوداً فى أعناقهم كنغف [18] . الجراد الذى يخرج فى أعناقه ، فيصبحون موتى لايسمع لهم حس ، فيقول المسلمون : ألا رجل يشرى - يبيع - نفسه فينظر مافعل هذا العدو ؟ فيتجرد رجل منهم محتسبا نفسه قد وطنها على أنه مقتول فيخرج فيجدهم موتى بعضهم على بعض .

فينادى : يامعشر المسلمين ، ألا أبشروا ، إن الله عز وجل قد كفاكم عدوكم ، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم ويسرحون مواشيهم ، فما يكون لها

---

(١٨) النغف : دود يكون فى أنوف الابل والغنم جمع نغفة

رعى إلا لحومهم ، فتشكر عنه كأحسن ماشكرت عن [19] . شيء من النبات أصابته قط [20]

حرمان يأجوج ومأجوج من الإيمان

وواضح من أوصاف هؤلاء القوم أنهم لايعرفون شيئا عن الإسلام ، ولم يدخل قلوبهم بصيص من نور الإيمان - وقد نقل عن الحافظ ابن عبدالبر أن النبى - صلى الله عليه وسلم - سئل عن يأجوج ومأجوج هل بلغتهم دعوتك ؟ .

فقال - صلى الله عليه وسلم : جزت عليهم ليلة أسرى بى فدعوتهم فلم يجيبوا ومما يشير إلى ذلك طريقة هلاكهم . . لقد أهلكهم الله كما أشار الحديث السابق بنقمة من الله كما أهلك أصحاب الفيل . .

وقد روى الشيخان والنسائى من حديث أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : « يقول الله - تعالى : يوم القيامة يآدم ، فيقول لبيك وسعديك والخير فى يديك ، فيقول - عز وجل : أخرج بعث النار ، قال : ومابعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة .

---

(١٩) الشكر : امتلاء الضرع

(٢٠) أخرجه ابن ماجة من حديث يونس بن بكير وأخرجه أحمد حـ ٣ ص ٧٧ وفى تفسير بن كثير حـ ٥ ص ٣٦٧

قال : فذلك حين يشيب الصغير ، وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » .

قال : فاشتد ذلك على أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : يارسول الله أينا ذلك الرجل ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : ابشروا فان من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين ومنكم رجل ..» (٢١) .

هل رأى أحد السد ؟

روى البوار من حديث يوسف بن مريم الحنفى قال : بينما أنا قاعد مع أبي أبي بكرة إذ جاءه رجل فسلم عليه ، ثم قال : أما تعرفنى ؟

فقال أبوبكرة : ومن أنت ؟ .

قال : تعلم رجلا أتى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبره أنه رأى الروم ؟ .

فقال له أبوبكرة : أنت هو؟

قال : نعم

فقال : اجلس فحدثنا .

فقال ـ الرجل : انطلقت إلى أرض ليس لأهلها إلا الحديد يعملونه ، فدخلت بيتا فاستلقيت فيه على ظهرى ، وجعلت رجلى على جداره . فلما كان عند غروب الشمس سمعت صوتا لم أسمع مثله فرعبت فقال لى رب البيت : لاتذعرن ، فإن هذا لايضرك : هذا صوت قوم ينصرفون هذه الساعة من عند هذا السد ، أفيسرك أن تراه ؟ .

قلت : نعم .

---

(٢١) حياة الحيوان جـ ٢ ص ٧٠٤

فغدوت اليه فاذا لبنه من حديد ، كل واحدة مثل الصخرة ، وإذا كأنه البرد المحبرة وإذا المسامير مثل الجذوع .

فأتيت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبرته ، فقال : صفه لى ، فقلت : كأنه البرد المحبرة فقال ـ صلى الله عليه وسلم : من سره أن ينظر إلى رجل قد أتى الروم فلينظر إلى هذا .

فقال : أبو بكرة : صدق (٢٢)

تحذير النبى أمته منهم

روى ابن كثير فى تفسيره قال : حدثنا سفيان عن الزهرى عن عروة عن زينب بنت أبى سلمة عن حبيبة بنت أم حبيبة عن أمها عن زينب بنت جحش زوج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالت : استيقظ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من نومه ، وهو محمر الوجه ـ فقال :

لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فُتح اليوم من رَدْم يأجوج ومأجوج مثل هذا وحلق بإصبعيه الابهام والتى تليها ، قالت : قلت يارسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ .

قال : نعم ، اذا كثر الخبث (٢٣) .

ويقصد بالخبث الفساد ..

ولولا أن يأجوج ومأجوج مثار خوف للناس ماحذر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمته منهم ..

---

(٢٢) حياة الحيوان جـ٢ ص ٧٠٤

(٢٣) الحديث فى مسند أحمد ٦/٤٢٨ وفى البخارى ومسلم ـ باب الفتن ـ وابن كثير جـ ٥ ص ١٩٤

الثعلبى يقص قصة قوم رأوا السد

وقد قص الثعلبى قصة فى كتابه يخبر فيها أن الواثق بالله الخليفة العباسى رأى فى نومه رؤيا تفيد أن السد مفتوح ، فوجه إلى مكانه رجالا اقتحموا كثيرا من المخاطر حتى وصلوا إليه وقد وصفوه له فإذا به بين جبلين أحدهما أملس ليس عليه خضرة والآخر مقطوع بواد .. وعرض السد مائة وخمسون ذراعا وعضادتاه مبنيتان قبالة الجبلين عرض كل عضادة خمسة وعشرون ذراعا مبنية بلبن من حديد مركبة فى نحاس فى سمك خمسين ذراعا ، وارتفاع السد مد البصر وفيه باب له مصراعان من حديد عرض كل مصراع خمسين ذراعا فى ارتفاع خمسين ذراعا وعليه قفل طوله سبعة أذرع وحوله فرسان يحرسونه ويطوقون القفل بمطارق من حديد بين آن وآخر ليعلم من خلف السد أن هناك حفظة تحفظه ، وهم بالمرصاد لمن ينقب السد ..

إلى آخر هذه الأوصاف (٢٤) .

وربما غلب الخيال على هذه القصة ـ فأثر الوضع فيها ظاهر ، والقرآن الكريم لم يشر إلى شىء مما ورد فى تلك القصة .. ومن المعلوم أن السد محفوظ بقدرة الله حتى يجىء الأجل المحدود فى علم الله ..

متى ينقب السد ؟

أوردت الأخبار أن من علامات الساعة فتح سد يأجوج ومأجوج ..

وللساعة علامات أخبر بها الصادق الأمين ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بينها

---

(٢٤) قصص الأنبياء للثعلبى ص ٣٧٣

خروج يأجوج ومأجوج وهذا مايشير إلى قوله ـ تعالى

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ (٢٥)

أخرج ابن ماجه فى سننه قال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : « إن يأجوج ومأجوج يحفران كل يوم حتى كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم : ارجعوا فستحفرونه غدا ، فيعيده ، كما كان حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله ـ تعالى ـ أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال : ارجعوا فستحفرونه غدا إن شاء الله تعالى ، فيعودون اليه فيجدونه كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس فينشفون الماء ـ أى ينزحونه ـ ويتحصن الناس منهم فى حصونهم ، فيرمون بسهامهم إلى السماء فيرجع عليها الدم فيقولون قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء ، فيبعث الله عليهم نغفا فى أقفائهم فيقتلهم به » (٢٦) .

قال القرطبى : وقد رآهم ذو القرنين ـ حين بنى السد ـ طول الواحد منهم مثل نصف الرجل المربوع منا لهم مخالب فى مواضع الأظفار وأضراس وأنياب كالسباع وأحناك كأحناك الإبل ، وعليهم من الشعر مايواريهم ، ولكل واحد منهم أذنان عظيمتان . .

---

(٢٥) الأنبياء ٩٦ : ٩٧

(٢٦) تفسير القرطبى ـ سورة الكهف ـ ص ٤٠٩٦ ط دار الشعب

وهى أوصاف تنطبق على الحيوان أكثر من انطباقها على الإنسان ، مما يدل على أنهم صنف من خلق الله لايعلمهم إلا الله . .

ولعل هؤلاء من علامات الفساد الذى يظهر فى آخر الزمان حيث يكثر الشر ويستشرى الضلال ويزداد الزيف ويبتعد الناس عن الدين والتمسك بأسبابه ، ويستظهرون بالباطل على أهل الحق ، حينئذ يرسل الله جنودا لايعلمها إلا هو . . وقد يكون هؤلاء الأصناف من الخلق الذين حجبهم الله فى مكان سحيق

فى ملكه الواسع الذى لايعلم مداه إلا هو ـ سبحانه ـ وقد خلق الله سبع سموات ومن الأرض مثلهن . . ومازال ملكه الواسع محجوبا عن العقول ، ومازالت هناك أماكن لم تصل إليها الكشوفات ولم تدركها بصائر العلماء ومجاهر أهل البحث والتنقيب . .

هل اكتشفت مجاهل الأرض جميعها ؟

يقول كثير من العلماء : إن يأجوج ومأجوج فى موضع من الأرض لانعلمه ، وكم فى الأرض من أماكن مجهولة ، ولعله قد حال بيننا وبين موضعهم مياه عظيمة ، ودعوى استقراء سائر البرارى والبحار غير مسلمة ، ويُجَوِّز العقل أن

يكون فى البحر أرض لم يظفر بها الى الان ، وعدم الوجدان لايستلزم عدم الوجود ، وبعد اخبار الصادق بوجود السدين ومايتبعهما يلزمنا الايمان بذلك كسائر ما أخبر به من الممكنات ، والالتفات الى كلام المفكرين ناشىء من قلة الدين [٢٧] .

---

(٢٧) يأجوج ومأجوج ـ عكاشة عبد المنان الطيبى ص ١٧ ـ مكتبة التراث الاسلامى

هذا ومازال الأخبار تحمل الينا كل يوم جديدا عما كان مجهولا ، واقرأ ماكتبه أحد المهتمين بالاكتشافات الحديثة ومتابعة أخبارها يقول :

انطلقت سفينة الفضاء الرحالة (٢) من قاعدة الانطلاق فى « كاليفورنيا » منذ ١٣ سنة وهى مازالت منطلقة فى الفضاء بسرعة ١٢ كيلو مترا فى الثانية الواحدة ، وطوال الاثنى عشر عاما من رحلتها وهى ترسل الى الجالسين فى المحطة الأرضية فى « كاليفورنيا » صورا ومعلومات بلا انقطاع عن كل الكواكب والأقمار والأجرام السماوية التى تمر بها أو تدور حولها مسافات لاتصدق ولاتخطر على قلب بشر ، وأعماق الفضاء ماكان يتصور أحد أو يفكر مجرد التفكير فى ارتيادها بذلك العمق الذى يقدر بـ ٧٢٠٠ مليون كيلو متر تقريبا ، والسفينة ترسل الصور والبيانات ، وتتلقى من المحطة الأرضية تعليمات متواصلة وبالتدريج ، إذ لم يكن من الممكن تزويدها يوم سفرها منذ اثنى عشر عاما بكل التعليمات . . وقد حدثت فى خلال هذه الفترة ثورة فى أجهزة « الكمبيوتر » وغيرها من الأجهزة « الالكترونية » ولم يكن ممكنا ان تملأ ذاكرة الأجهزة التى وضعت فى السفينة بكل التعليمات عند ارسالها ، فكان لابد من ارسالها جرعة جرعة طوال ١٢ سنة ، وهى على بعد سبعة بلايين كيلو متر [٢٨] .

فهذا الخبر يشهد بأن هناك أسراراً فى الكون مازالت محجبة ، ومازال العلم يكشف لنا كل يوم عن جديد . فإذا غاب عن حسنا الآن مكان السد فليس معنى ذلك عدم وجوده . . واذا حان الوقت الذى حدده الله لكشفه ظهر للعيان .

---

(٢٨) من مقال للأستاذ أحمد بهاء الدين - صحيفة الأهرام بتاريخ ١٩٨٩/٨/٢٧ م

رأى جديد فى يأجوج ومأجوج وسدهم

يرى الشيخ طنطاوى جوهرى فى كتابه « الجواهر والدرر فى التفسير » أن السد موجود فعلا ، وقال : لقد كتب بعض العلماء أنه شرقى البحر الأسود وأن سكان هذه المنطقة من الصقالبة (السلاف) وهناك مدينة اسمها باب الأبواب حولها سد منيع ، وقد علم الروس أن مدينة (دربت) بجبل قوقاف هى نفسها مدينة باب الأبواب ،واكتشفوا فى القرن الماضى سورا منيعا ممتدا على مقربة منها كأنه خط انفصال . ولكن كثيرا من الناس خلطوا بين سد مدينة باب الأبواب وبين السد الشهير المذكور فى القرآن ، ولم ينج من ذلك الخلط بعض العلماء الكبار كأبى الفداء .

لكن الادريس أبان موقع كل منهما بوضوح ، وأثبت أن السد الشهير وراء (جيحون) فى عمالة (بلخ) واسمه سد باب الحديد بمقربة من مدينة (ترمذ) .

وقد اجتازه « تيمورلنك » بجيشه ، ومر به أيضا « شاه روح » وكان فى خدمته عالم الماني اسمه (سيلدبرجر) وذكر السد فى كتاب ألفه وذلك فى أوائل القرن الخامس عشر .

كما ذكره أيضا الرحالة الأسبانى « كلافيجو » فى رحلته سنة ١٤٠٣ م وكان رسولا من ملك قشتالة بالأندلس إلى تيمورلنك ، وقال إن سد مدينة باب الحديد على الطريق الموصل بين سمرقند والهند . . ويرى بعض المؤرخين أن يأجوج ومأجوج أصلهم رجل واحد يقال له ترك ، والمغول والتترهم المقصودون بيأجوج ومأجوج وقد كانوا يشغلون الجزء الشمالى من آسيا ، وتمتد بلادهم من التبت إلى المحيط المتجمد الشمالى ، وتنتهى غربا مما يلى بلاد التركستان . .

وذكر المؤرخون ومنهم الافرنج أن هذه الأمم كانت تغير قديما فى أزمنة مختلفة على الأمم المجاورة لها ، فكم أفسدوا وقلبوا الأمم قلبا قبل زمن النبوة ، ودمروا العالم تدميرا وجعلوا عاليه أسفله ، فهم مفسدون فى الأرض بنص القرآن وشهادة التاريخ . .

وكم أغاروا على بلاد الصين وأمم آسيا الغربية ، ولكنهم لم يزالوا فى حدود بلادهم لا يتجاوزونها إلى أن ظهرت الداهية الدهياء بظهور « تموجين » الذى لقب نفسه « جينكيزخان » ومعنى اللقب بلغتهم « ملك العالم » خرج هو وقومه من الهضبات المرتفعة والجبال الشاهقة التى فى آسيا الوسطى فى أوائل القرن السابع الهجرى ، وحدث ماحدث منه من تخريب وتدمير فى ربوع العالم حتى لم يكد ينجو من بطشه وتنكيله وتدميره مكان .

واستولت ذريته على آسيا كلها وأوروبا الشرقية وأنشأوا أربع ممالك منفصلة ، فاختصت أسرة « كيلاى » بالصين والمغول ، وملَك « جافاتاى » تركستان .

وملكت ذرية « باطرخان » البلاد على شواطىء نهر فلجا وصارت روسيا تدفع الجزية اليها زمنا طويلا وانضمت بلاد الفرس الى « هولاكو » الذى دمر بغداد .

لقد فتحت يأجوج ومأجوج ـ على هذا التفسير ـ فى أوائل القرن السابع الهجرى ولعل ذلك هو مايشير إليه الحديث الشريف : « اتركوا الترك ماتركوكم فان اول من يسلب أمتى ملكهم بنوقنطورا » وهم الترك ـ وقد علمنا أن المغول أصلهم الترك .

وهناك حديث يشير إلى أن يأجوج ومأجوج مقدمتهم تكون فى الشام وساقهم بخراسان . فذلك يوضح سيرهم واتجاههم وطريق منتهى ملكهم .

فهم لم يتجاوزوا الشام إلى مصر ولا إلى أفريقيا . ولم يدخلوا مكة ولا المدينة ولابيت المقدس . كما أشار إلى ذلك حديث آخر .

أما أن خروج يأجوج ومأجوج من علامات الساعة . فان تفسير يأجوج ومأجوج بجنكيز خان وجنوده لاينقض ذلك . لأن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : بعثت أنا والساعة كهاتين ، وأشار بالسبابَة والوسطى . .

والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ (٢٩) .

وليس معنى ظهور يأجوج ومأجوج نهاية العالم . فقد روى أبوسعيد الخدرى عن النبى ـ صلى اله عليه وسلم ـ قوله : « ليحجن البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج » .

وهذا دليل على أن الناس يستبدلون من بعد خوفهم أمنا ويعبدون الله عز وجل .

وأما صفاتهم المشهورة فى القصص وبعض الاثار فجميعها لا أصل لها ـ وربما كانت على سبيل التهويل من أمرهم .

لقد أصبحت دولة يأجوج ومأجوج الآن فى قبضة الصين ، بل هم الجزء الأعظم منها وهاهى « منشوريا » تتجاذبها الروسيا والصين . وقد كانت هذه البلاد معروفة قديما للمسلمين الأوائل .

---

(٢٩) القمر ١

واستطاع أحد العلماء أن يرسم خريطة توضح موقع هذه البلاد وموقع السد فيها . وهو ليس سدا واحدا بل سدين . . أحدهما الذى بناه ذو القرنين وجاء ذكره فى القرآن ، وبذلك أصبح يأجوج ومأجوج محصورين بين سدين خيفة بطشهم .

قال : وربما كان لهذه القبائل خروج آخر لم يحن وقته بعد ، وقد تنبأ به « غليوم » ملك الالمان السابق بقوله : ويل لأوروبا من الصين . وسماه الخطر الأصفر (٣٠) .

هذا ملخص ماذكره الشيخ طنطاوى جوهرى فى كتابه وفيه مافيه . .

لا علاقة لسور الصين بهذا السد :

يرى البعض أن المقصود بسد يأجوج ومأجوج هو سور الصين المشهور وقد أقامه ملك من ملوكهم قبل التاريخ بنحو ٣٣٠ سنة ، ليرد به عن بلاده هجمات القبائل الشمالية ، وأول هذا السد عند البحر ، ويلتقى بالنهر الأصفر ، وطوله ألف ميل ، ويعد من غرائب البلاد ، بل من عجائب الدنيا ، وهو فاصل بين الصين الأصلية ومنغوليا . .

وهو مبنى من الحجارة والآجر ، وبعضه بالطين فقط ، وسمكه عند اسفله نحو ٣٥ قدما ، وفى أعلاه ١٥ قدما ، وارتفاعه بين ١٥ و ٣٠ قدما ، وعليه أبراج مبنية بالآجر ارتفاع بعضها ٤٠ قدما .

---

(٣٠) راجع تفسير الجواهر والدرر جـ ٩ الشيخ طنطاوى جوهرى سورة الكهف

وقد كان هذا السور حاجزاً حصينا لدفع القبائل الرحل ، ولكنه لم يغن شيئا فى صد جحافلهم الذين تغلبوا على الصين واستولوا عليها ، وهو الان ليس شيئا (٣١) .

ان الفرق واضح بين سور الصين وسد يأجوج ومأجوج ، فسور الصين مبنى من الحجارة والآجر . أما السد فهو من الحديد الذى أفرغ فوقه النحاس المذاب . وسور الصين ممتد بين بحرين ، أما سد ذى القرنين فممتد بين جبلين .

من الأخبار الواردة فى خروج يأجوج ومأجوج

روت كتب السنن والأخبار . . أحاديث متعددة حول انفتاح السد وانسياب يأجوج ومأجوج فى الأرض يعيثون فيها فسادا حتى يهلكهم الله بآية من عنده . ومن هذه الأخبار ما روى عن النواس بن سمعان قال :

ذكر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم الدجال ذات غداة ، فخفّض فيه ورفّع حتى ظنناه فى طائفة النخل .

فانصرفنا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ثم رحنا إليه . فعرف ذلك فينا ، فقال : ماشأنكم ؟ .

فقلنا : يارسول الله ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه فى طائفة النخل .

---

(٣١) دائرة معارف البستانى حـ ٩

فقال : غير الدجال أخاف عليكم ، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجهُ دونكم وإن يخرج ولست فيكم فكل واحد حجيج نفسه ، والله خليفتى على كل مسلم . . فمن

ادركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف ، إنه خارج خلة بين الشام والعراق ، يعيث يمينا وشمالا ، ياعباد الله فاثبتوا .

قلنا : يارسول الله ومالبثه فى الأرض ؟

قال أربعون يوما ، يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعه ،وسائر أيامه كأيامكم .

قلنا : يارسول الله فذلك الذى كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم ؟

قال : لا اقدروا له قدره .

قلنا : يارسول الله وما إسراعه فى الأرض ؟ .

قال : كالغيث استدبرته الريح ، فيأتى على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له ، فيأمر السماء فتمطر ، والأرض فتنبت ، فتروح عليهم سارحتهم أطول ماكانت ذُرى ، وأسبغه ضروعا ، وأمده خواصر ، ثم يأتى القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله ، فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شىء من أموالهم ، ويمر بالخربة فيقول لها : أخرجى كنوزك ، فتتبعه كنوزها كيعا سيب النحل ، ويتهلل وجهه ويضحك ، فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم ، فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق واضعا كفيه على أجنحة ملكين ، إذا طأطأ رأسه قطّر ، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ ، فيطلبه حتى يدركه فيقتله .

ثم يأتى عيسى قوم قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم ، ويحدثهم بدرجاتهم فى الجنة فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى - عليه السلام - أنى قد أخرجت عبادا من خلقى لا يد لأحد بقتالهم ، فحرز عبادى إلى الطور .

ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل جدب ينسلون ، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون مافيها ، ويمر آخرهم فيقولون : لقد كان بهذه ماء .

ويحصر نبى الله عيسى - عليه السلام - وأصحابه ، فيرغب نبى الله عيسى - عليه السلام - وأصحابه إلى الله - تعالى - فيرسل الله عليهم النغف فى رقابهم ، فيصبحون موتى كموت نفس واحدة .

ثم يخرج نبى الله عيسى - عليه السلام - وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون فى الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم . فيرغب نبى الله عيسى - عليه السلام - وأصحابه الى الله فيرسل الله طيراً ، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله .

ثم يرسل الله مطرا لايكن منه بيت مدر ولاوبر ، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة .

ثم يقال للأرض : انبتى ثمرك وردى بركتك .

فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ، ويستظلون بقحفها ، ويبارك الله فى الرِّسْل ، حتى إن اللقحة من الإبل لتكفى الفئام من الناس ، واللقحة من البقر لتكفى القبيلة من الناس . واللقحة من الغنم لتكفى الفخذ من الناس .

فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحا طيبة ، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ، ويبقى شرار الناس ، يتهارجون فيها تهارج الحمر . فعليهم تقوم الساعة (٣٢)

آيات وعبر

لقد قص الله علينا قصة ذى القرنين لتكون عبرة وعظة لأولى الألباب . .

وهى علامة بارزة على وجود عنصرى الخير والشر فى الأرض . . فذو القرنين يمثل قمة الخير والاصلاح ويأجوج ومأجوج يمثلون هوة الشر والفساد .

- وتشير القصة الى وجود قابلية الاستجابة لنداء الخير فى النفس ، فقد استجاب لذى القرنين قوم حين دعاهم للفلاح والرشد . . وأوضح لهم أن الأمور لاتترك عبثا بدون ثواب أو عقاب . . فمن أطاع أثيب ومن عصى وأفسد عوقب وأبيد .

- ولم تخل القصة من تأمل فى عواقب الأمور ، ووجوب الإيمان بالبعث والثواب والعقاب . .

- كما تشير القصة إلى أن آيات الله لاحدود لها ، ومايعلم جنود ربك إلا هو . . وقد يعين الله عباده بما لايخطر لهم على بال ، كما أعان ذا القرنين بالنور والظلمة .

وقد يعاقب العصاة بما لا قبل لهم به من خلق يصغرون فى المنظر ولكنهم ذو خطر كبير . .

---

(٣٢) أخرجه مسلم ٦٣/١٨ - أبو داود ١١٧/٤ - الترمذى ٩٧٩ - ابن ماجة ١٣٥٦/٢ - أحمد ١٨١/٤ - الحاكم ٤٩٢/٤ - كتاب يأجوج ومأجوج ص ١٩

صاحب الجنتين

وردت قصة صاحب الجنتين فى سورة الكهف ، كما وردت الاشارة إليها فى سورة الصافات . . وسنذكر الآيات التى وردت فى ذلك فى أثناء القصة . .

أما القصة فإلى جانب حدوثها ـ كما تشير إلى ذلك مصادر متعددة ـ فإنها تعد مثلاً ضربه الله لكل مؤمن وكافر ، ومنفق فى سبيل الله ومقتر ، وشاكر لأنعم الله وجاحد ، وموقن بنعيم الجنة ومكذب . . وقد اختلف فى اسمى بطليها .

ذكر القرطبى فى تفسيره عن الكلبى والثعلبى والقشيرى أنها نزلت فى أخوين من أهل مكة من بنى مخزوم ، والمؤمن منهما هو أبو سلمة عبد الله بن عبدالأسد ، زوج أم سلمة قبل أن يتزوجها النبى ـ صلى الله عليه وسلم .

والكافر منهما أخوه الأسود بن عبدالأسد .

وقد اشتركا فى ميراث ورثاه . . أما أبو سلمة فأنفقه فى سبيل الله حتى نفد ، ثم أقبل على أخيه يقترض منه فأبى ، وجرى بينهما من الحوار ماجرى . .

وذكر أيضا أنه مثل ضربه الله لعيينة بن حصن وأصحابه مع سلمان الفارسى وصهيب وأصحابهما . . شبه الله حال هؤلاء المؤمنين والكافرين بحال رجلين أحدهما مؤمن والآخر كافر .

أما المؤمن فهو تمليخا أو يهوذا .

وأما الكافر فهو قرطوش . .

إن مسرح هذه القصة ـ كما ذكره إبراهيم بن القاسم فى كتابه عجائب البلاد ـ هو بحيرة تنيس . . وذكر السهيلى فى كتابه « التعريف والاعلام » ان المؤمن اسمه تمليخا والكافر اسمه فوطيس .

القصـــة

كان لرجل من بنى اسرائيل ثروة واسعة . فلما حضرته الوفاة ، وله ولدان جمعهما وقسم ماله بينهما بالسوية ، وفاضت روحه وهو يعتقد أنه قد أراح نفسه وأرضى ولديه ، وسوف يقوم كل منهما على نصيبه من الثروة بالتنمية والتثمير ، حتى يصبح كل منهما ذا جاه عريض ومنصب خطير . .

وقد اختلف مشرب كل من الأخوين عن الآخر . . وهذه حكمة الله وعلامة قدرته .

فالثمار تتشابه شكلا وتختلف ذوقا . ألم يقل الحق سبحانه فى ذلك

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ (٣٣)

كان يهوذا مؤمنا بالله واليوم الآخر ، يرى أن الدنيا عرض زائل ومتاع فان ، وأن ماعند الله خير وأبقى وأن رضا الله لاينال إلا بالبذل والتضحية فى سبيله ، فأقبل على ماورثه من أبيه يقدمه قربانا لله . .

أما الآخر وهو « قرطوش » فكان همه الدنيا ، والأقبال عليها والتمتع بها ، والتفنن فى جمعها والاستكثار منها ، وكانت لديه موهبة فى ذلك ، يعرف طرق الاستثمار جيدا ، ولديه حاسة يدرك بها منافذ الربح والكسب . .

---

(٣٣) الرعد ٤

لذلك كان ماورثه من مال وسيلة له لمضاعفة المال ، فأقبل على التجارة يشترى ويبيع ، حتى اصبح لديه من الأموال الشىء الوفير ، واشترى حديقتين جميلتين يتخللهما نهر جار يسقيهما ، ويحيط بكل منهما سور من نخل مرتفع القامة يزيد من جمال الجنيتين ، ويضاعف من حسنهما . .

وكان يهوذا حين يرى قرطوش يبالغ فى جمع المال يزداد هو فى انفاق المال فى سبيل الله . .

فحين رأى أخاه يشترى أرضا بألف دينار ، أخذ هو ألف دينار فتصدق بها . وقال : اللهم ان قرطوش قد اشترى أرضا فى الدنيا الفانية بألف دينار ، وإنى اشتريت منك أرضا فى الجنة بألف دينار . .

لقد أنفق فى هذه الصفقة ربع ماورثه . .

وحين رأى أخاه يبنى دارا له بألف دينار اقبل هو على ألف دينار أخرى فتصدق بها وأنفقها فى سبيل الله وقال : اللهم إن أخى قرطوش قد بنى فى الدنيا دارا بألف دينار ، وإنى اشترى منك دارا فى الجنة بألف دينار . .

وأنفق فى هذه الصفقة ربعا آخر مما ورثه .

وتزوج أخوه وأنفق فى زواجه وعرسه ألف دينار ، فأخذ تمليخا أو يهوذا ألف دينار فوضعها للفقراء والمساكين وقال : اللهم إن أخى قرطوش قد تزوج امرأة من أهل الدنيا وأنفق عليها ألف دينار ، وإنى أخطب اليك حوراء من نساء الجنة بألف دينار .

وذهب الربع الثالث من الثروة التى ورثها .

ورأى أخاه يشترى خدما ومتاعا بألف دينار ، فأخذ هو ألف دينار وبذلها فى

سبيل الله وقال : اللهم إن أخى اشترى متاعا فى الدنيا بألف دينار وإنى اشترى منك متاعا فى الجنة بألف دينار . .

وفرغ بذلك « تمليخا » من ثروته التى ورثها من أبيه . .
لقد كانت هذه الثروة أربعة آلاف . . أنفقها كلها فى سبيل الله . .

المحاورة بين الأخوين

لقد كان « قرطوش » مولعا بالدنيا مفتونا بزهرتها ، خبيرا بدروبها ومسالك الكسب فيها ولذلك سرعان ما ثمر ماله فأثمر ، وتاجر فيه فأضعف ، فكان ماأنفقه من مال فى العقار والزواج والمتاع من حصيلة ما اكتسب ويبقى له أصل ماله ، الذى مازال يدر عليه الربح ويفيض عليه الكسب . .

أما « تمليخا » فلم يكن همه ذلك ، لقد كان زاهدا تماما فى الدنيا ، وواثقا وثوقا كاملا فى ثواب الله وتعويضه فى الجنة أضعاف ماينفقه فى الدنيا . .

لقد أدرك بفكره الثاقب أنه مهما استمتع فى الدنيا فإنه لن يستمتع الا سنين معدودة ، تعقب بعدها حسرة دائمة فى الآخرة وشقاء مقيما فى جهنم . .

وعرف أن الله يقتطع من المنعمين بعض ثوابهم فى الآخرة فى نظير مامتعهم به فى الدنيا ان كانوا مؤمنين ، فما بالهم إذا كانوا كافرين ؟

لقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى قوله :

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ (٣٤)

---

(٣٤) الاحقاف ٢٠

وفى قوله تعالى :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (٣٥)

وقد تنبه لذلك كثير من الصحابة الأجلاء ، ومنهم عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - الذى ضرب المثل الأعلى فى الزهد بعد النبى - صلى الله عليه وسلم - فحين كان يسأل عن سبب زهده وتقشفه يجيب بهذه الآية الكريمة ﴿ أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ﴾ .

فرغ « تمليخا » من ميراثه وأنفقه كله فى سبيل الله . . ولم يأس على ذلك بل قدمه بنفس راضية وقلب مطمئن . .

وفعل مثل ذلك أبوبكر الصديق - رضى الله عنه - وأتى بكل مايملك وقدمه للرسول - صلى الله عليه وسلم - ليضعه فيما يريد من تجهيز المجاهدين ومساعدة الفقراء والمساكين فقال له النبى - صلى الله عليه وسلم - ماذا تركت لأولادك ياأبابكر ؟ فقال له : تركت لهم الله ورسوله .

إن قصص الزهد فى الحياة كثيرة فى حياة الصحابة الأجلاء ومن سار على نهجهم من الصالحين والأولياء . وانفاق ما يملكه الانسان فى سبيل الله ليس من السرف فى شيء كما يظن البعض . ولكنه نهاية الثقة فى الله واليقين بما عنده ، وقمة التوكل

---

(٣٥) هود ١٥ ، ١٦

على الله ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه .. ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب ..

وجمع المجلس يوما بين الأخوين .. أو لعل « تمليخا » أراد أن يعظ أخاه حين رأى افراطه فى حب الدنيا ، وانهماكه فى لذاتها ، واعجابه بنفسه وزهوه بماله وولده فقصد إليه ..

ورأى قرطوش أخاه فى ثيابه البالية وفقره الظاهر .. فأنكره ..

فأقبل عليه « تمليخا » يذكره بالله ، ويحذره عذابه ، ويدعوه إلى عبادة الله وحده ..

ولكن قرطوش أسرع إليه يوبخه على ما آل إليه أمره ، وعلى مابدده من ماله ، وأضاعه من ثروته ، وقال له : مأراك إلا سفيها كان ينبغى الحجرُ عليك .. أتقبل على هذه الثورة التى ورثتها عن أبيك فتضيعها بددا .

أنظر إلىَّ كيف فعلت بمالى حتى أصبح على ماتراه من الكثرة والاتساع وحسن الحال .. لقد أصبحت أكثر منك مالا وولدا ..
لقد كسبت أنا ، أما أنت فكنت أحمق سفيها ..

فقال له تمليخا : لاتغتر أيها الأخ بما أنت عليه ، فما ذلك إلا متاع حائل ونعيم زائل .. وتذكر أن المال والأهل والأبناء وكل متاع الدنيا وديعة ولابد يوما أن ترد الودائع .

ان الذى يبقى ويدوم يأخى هو الإيمان والعمل الصالح .. فأقبل على الله ، واعبده ، وثق به وتوكل عليه .. وسوف تجد لقاء ذلك جنة عرضها السموات والأرض لاتفنى أبدا ..

ولكن قرطوش ضحك فى سخرية بالغة وقال له :

ماأظن أن هناك إلها سوى ذلك الصنم الذى أعبده ، وما أظن أيضا أن هناك آخرة وبعثا وحسابا وعقاباً وثواباً ، وماأظن أن جنتى هذه ستبيد ، وأن متاعى الذى أنا فيه سينفد، وهب أننى صدقتك فيما تزعمه من أن هناك بعثا وحسابا ، فإننى سوف أجد فى الآخرة خيرا مما أنا فيه ..

وحاول « تمليخا » أن يقنعه بضلال رأيه وقصر نظره دون جدوى . كان يقابل كلام أخيه بسخرية بالغة ، بل قال له فى تحد سافر :

إنك كما تزعم تعبد إله السماء ، وأنا أعبد صنماً من الأصنام ، فهيًا بنا إلى الشاطىء لنصطاد السمك وكل منا يستعين بإلهه فى ذلك .. فمن اصطاد أكثر كان على حق ..

فقال له تمليخا : يأخى إن الدنيا أحقر من أن يجعلها الله ثوابا لمؤمن أو عقابا لكافر ..

أجل .. صدق تمليخا فى ذلك . وقد صدقه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ذلك حين قال : لو كانت الدنيا تساوى عند الله جناح بعوضة ماسقى الكافر منها جرعة ماء ..

ولكن « قرطوش » أكره أخاه على الخروج . فخرجا معا إلى الشاطىء . فجعل قرطوش يرمى شبكته ويسمى صنمه ، فتخرج مليئة بالسمك .

وجعل تمليخا يرمى شبكته مستعينا باسم الله فلا يخرج فيها شيء .
لقد كان ذلك ابتلاء للكافر لتحق عليه اللعنة ، لم يشأ الله أن يهديه . .
ثم قال قرطوش لاخيه : كيف ترى ؟ ألم ترى أكثر منك مالا ونصيبا ونفرا ؟

وسوف أكون أفضل منك فى الآخرة لو أن هناك آخرة كما تقول . .
قال العلماء : وضج الملك الموكل بهما . فأمر الله جبريل أن يأخذه فيذهب به إلى الجنة ليريه منزلة تمليخا فيها . . فرأى شيئا عظيما ، فقال : وعزتك لايضره ماأصابه من ضر فى دنياه مع ذلك النعيم .

ثم انطلق به فأراه منزلة أخيه فى جهنم فرأى شيئا فظيعا : فقال : وعزتك لاينفعه ماناله من نعيم فى دنياه مع ذلك الشقاء المقيم . .

ومع ذلك استمر تمليخا فى موعظة أخيه فقال له : أما كان الأجدر بك أن تحمد ربك على ماخولك من نعمة ، وأن تشكره على ما افاءه عليك من صحة البدن وكثرة المال والولد ، أما كان يجدر بك أن تكثر من قول : ماشاء الله ولاقوة إلا بالله ؟ . .

ولكنه ظل سادرا فى غفلته ، مصرا على كفره ، عند ذلك قال له أخوه : عسى ربى أن يؤتينى أفضل مما أعطاك ، وأن يحرمك من هذا النعيم الذى تتقلب فيه ، ثم يكون عليك وبالا فى الآخرة .

وكأنما كانت أبواب السماء مفتحة ، فما أسرع ماكانت الاستجابة . .
نزلت صاعقة من السماء أحرقت الجنتين ، وغار مابينهما من نهر ، وأصبحت أرضهما جرداء قاحلة . .

وأقبل الأخ على الجنتين ، فاذا بهما وقد أصبحتا أثرا بعد عين . . لاماء ولاثمر ولاخضرة ولانبات ولا نضرة ولاجمال . . فأصبح يقلب كفيه ندما ، ويبكي حسرة ، لقد ضاع أمله ، وهلك ماله ، وذهب كده وتعبه ، وندم ولات ساعة مندم . .

وقد قص الله علينا هذه القصة بقوله :

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّـٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ

تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾ (٣٦)

حوار فى الآخرة :

وهلك « قرطوش » فى المالكين .. لقد كان قوله .. ياليتنى لم أشرك بربى أحدا » كقول فرعون حين أدركه الغرق

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (٣٧)

إنه إيمان بعد فوات الأوان لا يجدى صاحبه شيئاً .

إنه ممن ورد فيهم قوله تعالى

﴿ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (٣٨)

ويجمع الله العباد يوم القيامة ..

ويمضى بعد الحساب أهل الجنة إلى الجنة ، وأهل النار إلى النار .

ويجتمع أهل الجنة يتسامرون فى حبور ، ويتذاكرون ماحدث فى الدنيا ..

---

(٣٦) الكهف ٣٢ : ٤٤

(٣٧) يونس ٩٠

(٣٨) غافر ٨٤ ، ٨٥

ويلتقى تمليخا بإخوانه المؤمنين فيحدثهم بالحوار الذى دار بينه وبين أخيه فى الدنيا ، ويطلعه الله على ما آل إليه أمر أخيه فى جهنم ، فيراه فى سواء الجحيم .. فيحمد الله على نعمة الايمان ولعله خاطب أخاه بقوله : لقد كدت أن تغوينى بضلالك ، وتهلكنى بفسادك لولا أن مَنَّ الله على فثبتنى على الحق ، وعصمنى من الفتنة ، وأرشدنى الى الطريق المستقيم .. وهذا هو مايقصه القرآن الكريم بقوله ؟ .

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ (٣٩)

هذا القرآن الكريم لم يذكر أن الرجلين كانا أخوين وقد اختلف العلماء فى شأن الرجلين فى تلك القصة فقيل : هما مقدران ، وهذا مثل ضربه الله سبحانه وتعالى لمن يتعزز بالدنيا ويستنكف عن مجالسة الفقراء .

وقيل : هما محققان واختلفوا فى تعيينهما فقيل هما أخوان من بنى إسرائيل ، وقيل أخوان مخزوميان من أهل مكة أحدهما مؤمن والآخر كافر (٤٠) .

---

(٣٩) الصافات ٥٠ : ٦١

(٤٠) انظر فتح القدير حـ٣ ص ٢٨٥

عظات وعبر

هذه القصة ترشدنا إلى عدم الركون إلى الدنيا ، والاعتزار بزخرفها ، ويجب علينا فيها أن نتقبل نعم الله بالشكر حتى نزداد ، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ (٤١)

وقوله ﴿ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ (٤٢)

وليس معنى الزهد أن ينصرف الإنسان عن الدنيا انصرافا كاملا ، بل معناه أن يترك تعلق قلبه بها ، وقد أوضح القرآن الكريم حقيقة الزهد فى قوله تعالى

﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ (٤٣)

فالإنسان مطالب بأن يعمل ويجد ويكسب ، وينمى ماله ، ويأكل من الطيبات فى غير اسراف وفى الوقت نفسه مطالب بأن يجعل جزءاً من هذا المال للفقراء ، وأن لا يجعل الدنيا كل همه .

ثم إن التمتع بالطيبات فى اقتصاد لاينافى الزهد ، وهذا هو مفهوم قوله تعالى

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (٤٤)

---

(٤١) ابراهيم ٧
(٤٢) آل عمران ١٤٤
(٤٣) الحديد ٢٣
(٤٤) الأعراف ٣٢

أما أن يؤثر الانسان رضا ربه على ماعداه ، ويتصدق بما فى يده على غيره فذلك مثل أعلى لايطيقه إلا أولو العزم من الرجال الذين ورد فى حقهم قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾(٤٥)

والقصة ترشدنا إلى وجوب الإقبال على الله واللجوء إليه فرارا من فتنة المال وغرور الدنيا . . فهذا تمليخا يقول لأخيه : ﴿ ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لاقوة إلا بالله . . ﴾ .

وقد ورد فى ذلك آثار كثيرة عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم .

أخرج مسلم فى صحيحة من حديث أبى موسى . قال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم :

ياأبا موسى ، ألا أدلك على كلمة من كنوز الجنة ؟ قلت : ماهى يارسول الله ؟ .

قال : لاحوال ولاقوة إلا بالله .

وذكر القرطبى فى تفسيره لهذه الآية قول النبى ـ صلى الله عليه وسلم : من دخل منزله أو خرج منه فقال : باسم الله ماشاء الله لاقوة الا بالله تنافرت عنه الشياطين من بين يديه وأنزل الله عليه البركات .

---

(٤٥) الحشر ٩

وفيما يرويه أبونعيم الأصفهانى بسند متصل إلى جابر - رضى الله عنه - قوله : شكونا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حر الرمضاء فلم يشكنا وقال : استعينوا بلاحول ولاقوة إلا بالله فإنها تذهب سبعين بابا من الضر أدناها الهم (٤٦) .

وفى القصة دعوة الى وجوب التبصير والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فإن ذلك مما يستوجب الإيمان ، وهو من مقومات الخيرية التى اختص الله بها هذه الأمة .. قال تعالى :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ (٤٧)

وفيها وجوب الموالاة لله - تعالى - والسير على منهجه ، ومن ثبت على ذلك كان الله وليه فى الدنيا والآخرة .

ولو تأملنا قوله - تعالى - ﴿ لمثل ذلك فليعمل العاملون ﴾ .

لوجدناهاتشير الى مايجب على المؤمن أن ينصب نفسه له ويبذل جهده فيه ، وهو ميدان التنافس الحقيقى الذى يحصل صاحبه فيه الفوز العظيم ، والاجر الكريم ، والأثر الباقى ، والسعادة الحقة .

---

(٤٦) أبو نعيم الأصفهانى- عبدالحفيظ فرغلى- أعلام العرب ص ٥١

(٤٧) آل عمران ١١٠

أصحاب الجنة

بالقرب من صنعاء على مسافة فراسخ منها وفى قرية أسمها « ضَوْرَان » كانت توجد حديقة وارفة الظلال ، زكية الثمار ، دانية القطوف ، يملكها شيخ مؤمن ، يؤدى حق الله فيها ، كان ذلك بعد رفع عيسى ـ عليه السلام ـ بفترة قصيرة .

آمن هذا الشيخ بما جاء به عيسى ـ عليه السلام ـ وعرف من دينه الذى آمن به أن الفقراء لهم حق فى هذا الثمر الذى أنعم الله به عليه . . فكانت عادته مع المساكين أن يكون لهم كل ما تعداه المنجل فلم يجذه من الكرم ، فإذا طرح الثمر على البساط فكل شىء سقط من البساط فهو لهم أيضاً ، وكل شىء انتثر كان من حقهم كذلك ، وكان مع ذلك لا يمنع السائل والمحروم ، ولا ينهر اليتامى والأرامل ، بل كان هؤلاء يعيشون فى كنفه آمنين .

وكان لهذا الشيخ ثلاثة بنين ، لم ينشأوا على ما نشأ عليه أبوهم من الصلاح والتقوى وحب الخير وبذل المعروف ، بل كان الشح طبعهم ، والحرص ديدنهم ، وكانوا ينتقدون أباهم فى تصرفه ، ويضيقون ذرعاً بانفاقه ، ويرون أن ما يفعله إسراف ، وأن هؤلاء الذين يجتمعون حوله طامعون فى ماله ولا حق لهم فيما يأخذونه منه .

ولعلهم كانوا يقولون : مابال هؤلاء النهازين للفرص ، القناصين للمال يزاحمون أصحاب المال فى حقهم ؟ إنه لو شاء الله لأغناهم ، ولو علم فيهم خيراً لأعطاهم . . ولكن الله حرمهم لأنهم يستحقون الحرمان ، فما لأبينا حق فى أن يطعم من لو شاء الله لأطعمه ان أبانا لفى ضلال مبين . .

وربما أقبلوا على أبيهم يعذلونه فى تصرفه وينصحونه ألا يبذر فى ماله وألا يعطيه من لا يستحق وأولاده يحتاجون إلى كل ثمرة ، وهم ذوو عيال فى حاجة إلى النفقة والتوسعة . .

ولكن الرجل توجه إلى أبنائه بالنصح مبيناً لهم أن هذا المال مال الله ائتمنه عليه وجعله خليفته فيه ، وجعل للفقراء والمساكين حقاً فيه ، فاذا هو حرمهم هذا الحق ، حرمه الله وحرمهم هذه النعمة ، وشكر النعمة يحفظها ، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها ومن جحدها فقد عرضها لزوالها .

وسكت الأولاد على مضض ، إن أباهم قد طعن فى السن ، وهو يوشك أن يفارق هذه الحياة فليتركوه يفعل ما يشاء ، وليفعلوا هم بعد وفاته ما يشاءون .

الأولاد يرثون الحديقة :

وانطوت حياة الشيخ ولحق بربه راضياً مرضياً .

وشمر أولاده عن ساعد الجد فى حديقتهم التى ورثوها .. وهم على عهدهم الذى قطعوه على أنفسهم من حرمان الفقراء ماكانوا يأخذونه من أبيهم .

وأقبلوا على الحديقة يتعهدونها بالرى والاصلاح حتى أزهرت وأثمرت واستحصدت ..

ولما دنا جمع ثمارها تعاهدوا مرة أخرى على ألا يعطوا مسكيناً منها ثمرة واحدة ، وامعاناً فى تنفيذ هذا العهد قرروا أن يكون جمعهم للثمار ليلاً ، حتى لا يحس بهم أحد فيتبعهم ويأخذ منهم شيئاً .

ولكن والحق ـ يقال ـ كان أخوهم الأوسط لا يعجبه منهم هذا الجمود فى الحس ، والتطرف فى العداء للفقراء ، لقد ورث عن أبيه شيئاً من طبعه ، فحاول نصحهم وارشادهم ، وتذكيرهم بالله وضرورة تسبيحه وشكره .. ولكنهم صموا آذانهم عن نصحه ، وأبوا إلا أن ينفذوا ما تعاهدوا عليه ..

فلما رأى اصرارهم على ماهم عليه لم يسعه إلا اصطحابهم ، وقد يكون اصطحبهم وهو كاره ، ولسان حاله فى ذلك يردد قول الشاعر :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وأن ترشد غزية أرشد

نصحتهم جهدى بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصح إلا ضحا الغد

فى طريقهم إلى الحديقة :

وانطلق الأخوة إلى الحديقة بقطع من الليل ، ومعهم آلات القطع والجذ ، يتهامسون فيما بينهم خشية أن يسمعهم أحد .. يتلصصون فى مشيتهم خيفة أن يراهم فقير فيتبعهم ، ويمنون بعضهم بعضاً بكثرة ما سوف يجنونه من ثمار ويجمعونه من قطوف ، وقلوبهم فرحة لأنهم سيحرمون الفقراء والمساكين فهم لم يذهبوا لجمع ثمارهم ليلاً إلا بغية حرمانهم مما اعتادوا أن يأخذوه .. ومع ذلك أخذوا يحذرون أنفسهم من دخول هؤلاء عليهم حديقتهم قائلين :

لقد كفى هؤلاء ما أخذوه فى حياة أبينا ، وطالما سلبونا حقنا وأكلوا ثمارنا فلن يأخذوا شيئاً منا بعد ذلك ..

لقد مضوا على حرد ـ أى قصد وقدرة على تنفيذ ما يريدون ـ ولكن الله كان لهم بالمرصاد ، فأطاح بأملهم ، وأبطل كيدهم وأعقبهم حسرة فى قلوبهم .

أمام الحديقة :

ووقف الاخوة أمام الحديقة مبهوتين .. أهذه هى الحديقة ؟ كلا ، إنها ليست هى ، لقد ضلوا المكان ..

ولكنهم يعرفون الطريق إلى حديقتهم جيداً ، وقد كانوا هنا بالأمس ، وكانت الحديقة فى مكانها هذا مزهرة مثمرة ، أما الذى أمامهم الآن فهو ركام محترق

وحطام أسود ودخان متصاعد لا يمت للأشجار الزاخرة بصلة ..
قطعاً أخطأوا الطريق إلى جنتهم ، هكذا قالوا لأنفسهم .

وأخذوا يلتفتون يمنة ويسرة ، ويقطعون الطريق ذهاباً وجيئة ، ولكنها هى الطريق بعينها .. وهذا الركام المتناثر المحترق هو مكان حديقتهم ..
وأصابتهم حيرة .. ماذا حدث للحديقة ؟
أهى مؤامرة أحاطت بها ؟ أهناك اعتداء حدث عليها ؟

لم يكن هذا ولاذاك .. وأنى لهم أن يعرفوا وقد عميت عيونهم عن الحق ؟
إنهم أخطأوا طريق السماء وأغمضوا أعينهم عنها ؟ فكيف يعرفون أن ما أصاب حديقتهم هى نقمة السماء ؟

لقد أرسل الله إليها طائفاً من عنده .. قيل ـ هو جبريل ـ عليه السلام ـ فاقتلعها من جذورها وأرسل الله عليها حسباناً من السماء فأحرقها فأصبحت كالليل المظلم ..

وقد عاقبهم الله بذلك حين علم ما انطوت عليه نفوسهم من خبث وحين عقدوا العزم على حرمان الفقراء حقهم ، وجحود نعمة ربهم عليهم ..

لقد أبدلهم الله من أملهم حسرة ، ومن فرحهم غمة ، ومن استبشارهم نقمة ..

ووقفوا أمام الجنة يعضون بنان الندم ، ويتجرعون كئوس الحسرة ..
وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، كل منهم يكيل التهمة للآخر ..
وأقبل أوسطهم عليهم وهو الوحيد الذى كان قد نصح لهم ولكنهم لم يصيخوا إلى نصحه .. أقبل يقول لهم :

..ألم أقل لكم لولا تسبحون ؟ ألم أنصحكم ألا تنقضوا عهد أبيكم وتجحدوا حق الله عليكم ؟

ولكنكم أبيتم الاستماع لما أقول ، ورفضتم الانصات لنصحى ، وسفهتم رأيى ، وخطأتم قولى فذوقوا وبال أمركم ، واجنوا نتيجة عملكم ..

ندم وتوبة :

نظر الأخوة إلى أخيهم نظرة اعتذار ، وقالوا لقد أخطأنا فيما فعلنا ، فهل لنا من توبة ؟

إن باب التوبة مفتوح أمام التائبين ..

وما زالت هناك فسحة فى العمر يجدد فيها الراغب فى الآخرة العمل الطيب ، ويطوى بساط المعصية والشر .. ورحمة الله واسعة ، وهو سبحانه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ..

وأقبل الاخوة على الله فى رجاء صادق وضراعة خاشعة يسألونه المغفرة ويطلبون منه العفو قائلين بلسان الذل والانكسار : عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون .

ولم يطلبوا ماهو خير إلا بناء على عزمهم على فعل ما هو خير .. لقد رغبوا فيما عند الله ، وما عند الله خير وأبقى ..

والرغبة إلى الله تفتح الطريق أمام المؤمن لكثير من الأعمال الصالحة المبرورة . لقد تابوا مع هذه الرغبة عن الشح والبخل والأنانية .. وأدركوا أن هؤلاء الفقراء الذين عزموا على أن يحرموهم مما اعتادوا أن يأخذوه فى حياة أبيهم إنما هم إخوان لهم ، ولهم عليهم حقوق ، ولهم فى أموالهم نصيب مرسوم وحق معلوم .

لقد أثنى الله على من يعرف حق المسكين بما هو خير ، وأنزله فى منازل الصديقين وأنجاه من عذاب الجحيم ، وقال فى حقهم :

﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٤٨)

وحين علم الله صدق توبتهم وحسن إقبالهم عوضهم خيراً من جنتهم . .
قال القرطبى : إن الله أمر جبريل ـ عليه السلام ـ أن يقتلع هذه الجنة المحترقة فينقلها إلى مكان من أرض الشام ، ويأخذ من الشام جنة فيجعلها مكانها .

ونقل عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قوله : إن القوم أخلصوا وعرف الله منهم صدقهم فأبدلهم جنة يقال لها الحيوان ، فيها عنب يحمل البغل منها عنقودا واحداً .
وقال اليمانى أبو خالد : دخلت الجنة فرأيت كل عنقود منها كالرجل الأسود القائم (٤٩)

وقال القرطبى أيضاً : إن الله حين أراد إهلاك الجنة ، أمر جبريل ـ عليه السلام ـ فاقتلعها ، فيقول إنه طاف بها حول البيت ثم وضعها حيث مدينة الطائف اليوم ، ولذلك سميت الطائف .

ولكن هذا التعليل فيه نظر ، لأن هناك تعليلات أخرى لتسمية هذه المدينة بالطائف ، وليس غناؤها بالثمر دليلاً على طواف جبريل ـ عليه السلام ـ بها ،

---

(٤٨) المعارج ١٩ : ٢٥
(٤٩) تفسير القرطبى ـ سورة القلم ـ ص ٦٧٢٤

ووضعها فى هذا المكان . فإن غناها مرده إلى خصوبة هذا المكان وريه واعتدال جوه ولذلك تعد الطائف مصيفاً طيباً لأهل الحجاز .

وقد ذكر بعض العلماء عن البكرى فى معجمه أنه قال : سميت الطائف بهذا الاسم لأن رجلاً من الصدف ـ مخلاف باليمن ـ يقال له « الدمون » بنى حائطا وقال : قد بنيت لكم طائفاً حول بلدكم .

وظاهر الآيات لا يشير إلى أن الله قد أبدلهم جنة أخرى ، إلا أن العلماء استنبطوا من ـ عيسى ـ وهو فعل رجاء قبول رجائهم وتحقيق أملهم .

وقد أشار بعض العلماء المجتهدين إلى أن عسى ماذكرت فى القرآن الكريم إلا فى موضع رجاء الخير الذى يتحقق ، ولم يأت هذا الفعل فى الشر إلا فى الشطر الثانى من دعوة « تمليخا » على أخيه صاحب الجنتين حين قال : فعسى ربى أن يبدلنى خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقا » وهذا فى الحقيقة خير لأن هلاك مال الظالم الجاحد خير .

وقد تحقق له رجاء الخير ، وأحاط الحسبان بثمر أخيه ..

القصة فى القرآن :

وقد قص الله علينا قصة أصحاب الجنة فى الآيات التالية :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (٥٠)

عظات وعبر :

لقد قص الله هذه القصة إنذاراً لأهل مكة الذين آذوا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد أعطاهم الله أموالاً ليشكروا نعمة الله ـ ويعرفوا حق الفقير والمسكين ، ولكنهم اغتروا بذلك ، وصموا آذانهم عن دعوة الحق ، وتجبروا بهذه الأموال فآذوا الفقراء واستعبدوهم وأذلوهم . . وقد أخبر الله بأن هذا عذاب الدنيا ، أما عذاب الآخرة فهو أشد وأقسى ، وذلك إذا لم يرجع الضال عن غيه وضلاله . .

والآيات وان كانت خطابا لأهل مكة فهى كذلك خطاب لكل جيل وكل أمة تجيء بعد ذلك تحذيراً لهم من الغرور والعصيان والبغى والعدوان واغتيال حق الفقراء فى مال الله الذى أتاه للناس وجعلهم مستخلفين فيه . .

وهذه الآيات الكريمة تشير إلى ما يجب أن يؤديه الزراع من زكاة الزرع وقد أنزل الله فى ذلك آية بينة هى :

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ (٥١)

---

(٥٠) القلم ١٧ : ٣٣

(٥١) الانعام ١٤١

وقال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾ (٥٢)

وحدد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مقدار ما يخرج من زكاة الزروع فقال فى حديث رواه جابر وأخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى : « فيما سقت السماء والأنهار والعيون العشر ، وفيما سقى بالآلة نصف العشر »

وقد تحدث الفقهاء حول الشروط التى يجب أن تتوافر فى الزروع التى يستخرج فيها زكاة ، وأشاروا إلى أنها تكون فى الحنطة والشعير والتمر والزبيب .

ويجب فى الحبوب باشتدادها وفى التمر بظهور صلاحه وفى العنب بحلاوته . . (٥٣)

على أن إخراج الزكاة وإن كان أمراً مفروضاً إلا أنه لا يعفى من أداء حق الزرع عند الحصاد ، بمعنى أنه إذا حضرك مسكين وأنت تحصد فاطرح له من السنبل واذا جذذت فالق له من الشماريخ واذا درسته وذريته فاطرح له منه ، فاذا عرفت كيله فأخرج منه زكاته . وهذا ماقاله مجاهد ونقله القرطبى عنه (٥٤)

---

(٥٢) البقرة ٢٦٧

(٥٣) راجع كتاب الزكاة وحاجه العصر لعبد الحفيظ فرغل ص ٧٩ ـ دار الصحوة ـ

(٥٤) تفسير القرطبى ـ سورة الأنعام ـ ص ٢٥٣٦

واستنبط السيوطى من هذه الآيات أن زكاة الزروع لا تسقط عن صاحبها وإن سَوَّف فى أدائها ، وقال فى ذلك ما أسنده إلى العلماء من أن من فر من الزكاة قبل الحول بتبديل أو خلط ، فإن ذلك لا يسقطها .

قال : ووجه ذلك من الآيات أن الأخوة قصدوا بقطع الثمار إسقاط حق المساكين ، فعاقبهم الله بإتلاف ثمارهم .

ـ وفى ذلك دليل على أن المعاصى تكون سبباً فى تقتير الرزق والحرمان منه

أخرج ابن أبى حاتم عن أبى مسعود مرفوعاً ـ عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« إياكم والمعاصى ان العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقاً قد كان هيىء له ، ثم تلا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فطاف عليها طائف من ربك . . » .

فهؤلاء قد حرموا خير جنتهم بذنبهم . .

وكما تكون المعاصى سبباً فى الحرمان يكون الاستغفار سبباً فى سعة الرزق وافاضته مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ (٥٥)

---

(٥٥) نوح ١٠ : ١٢

ـ وقد استنبط العلماء من ذلك أيضاً كراهة قطع الثمار وحصاد الزرع بالليل ، وقد ورد التصريح بذلك فى آثار كثيرة محافظة على حق الفقراء . . [٥٦]

وفى هذه الآيات تنبيه إلى وجوب الاستثناء ، وهو تقديم المشيئة عند العزم على فعل أى شىء ، وقد ورد فى ذلك أمر للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى سورة الكهف . . قال تعالى :

« ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله »

وقد أول بعض العلماء الاستثناء فى هذه الآية على أنه بمعنى التسبيح ، أو بمعناه الحقيقى على أنه استثناء لحق الفقراء والمساكين . أى لا يستثنون حق الفقراء والمساكين من الثمر الذى يكون متناثراً هنا وهناك ومما أخطأته آلة الجذ والحصاد ، ومما تخلف من الجمع . . لا يستثنون ذلك من عزمهم الذى عزموه .

ولعل هذا التأويل أنسب لأنه كيف يستثنى ـ بمعنى تقديم المشيئة ـ وهو يعزم على فعل ضار أو قبيح أو معصية ؟

وفى تعويض الله أصحاب الجنة دليل على رحمة الله الواسعة ، وقبوله توبة التائب الصادقة ، وذلك يحول بين المرء واليأس ، ويدفعه إلى الدخول فى ميدان الرجاء الواسع .

---

(٥٦) الاكليل فى استنباط التنزيل للسيوطى ص ٢٧١

ولو تأملنا الجوائح التى تجتاح الثمار والمحصولات لوجدناها نتيجة لجحود أصحابها وطغيانهم وماهذه الآفات التى تصيب الزروع والحقول إلا بسبب إعراضهم عن الله وأكلهم حقوق الناس بالباطل وعدم أداء حق الثمر يوم حصاده ، وعدم شكر الله على نعمائه وقد صدق الله فى قوله :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (٥٧)

لقد ورد فى الآثار الكريمة : حصنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة . وهذا أمر تصدقه الشواهد وتؤكده التجارب . وما حفظ المال حارس أيقظ من زكاته ، وقد رأينا ورأى من نصدقه أن حقولاً بعينها حفظت من الآفات الزراعية التى تجتاح القطن أو غيره من المحصولات فى حين أن ما جاورها من حقول فى مختلف الجهات تلفت تماماً ، وبالتقصى عرف أن أصحاب الحقول المحفوظة يدأبون على أداء حق الثمار والمحصول ولا يفرطون فى ذلك ، حافظوا على أداء حق الله فحفظهم الله ، وهناك أثر يدل على أن الله ساق سحابة ووكل بها ملكاً قيل له : اسق حديقة فلان . .

فسئل صاحب الحديقة عن ذلك فقال : إنى أقسم ريع حديقتى ثلاثاً ، ثلثا لله ، وثلثا أقتات به ، وثلثا أرده عليها . . فتبارك الله الذى لا تغفل عينه عن أحبائه وأوليائه . . والله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين . .

---

(٥٧) الأعراف ٩٦

أصحاب الأخدود

- من أصحاب الأخدود ؟
- المسيحية تدخل اليمن .
- قصة الغلام والساحر .
- الشهداء أحياء .
- هل هناك أكثر من أخدود ؟
- عظات وعبر .



أصحاب الأخدود

الأخدود هو الشق فى الأرض ويجمع على أخاديد ، ومثله الخَد والخُدة .

وتقول : خددت الأرض شققتها أو حفرتها ، والأخدود : الحفرة المستطيلة .

وتقول : خد السيل الأرض إذا شقها بجريه ، ومنه الحديث الشريف : إن أنهار الجنة تجرى فى غير أخدود[1]

وقد وردت قصة أصحاب الأخدود فى سورة البروج . .

وتحدث عنها العلماء وذكروا حولها تفسيرات متعددة نشير إليها فيما يأتى :

من أصحاب الأخدود :

أصحاب الأخدود هم الذين حفروه ليعذبوا فيه من آمن .

وعلى هذا فيكون معنى (قُتِل) فى قوله تعالى :

« قتل أصحاب الأخدود »

من قبيل قوله تعالى :

« قتل الإنسان ما أكفره »

وقيل : هم الذين ألقوا فيه فعلاً ، فيكون ذلك إخباراً عما حدث لهم . .

وقصة ذلك يسبقها أحداث نشير إليها فيما يلى :

اليهودية فى اليمن :

كان تبع وهوتبان أسعد أبو كرب صاحب أوثان ، وكانت قد حدثته نفسه وأغراه بعض الهزيليين بغزو مكة ونهب الكعبة ، ولكن حبرين من أحبار اليهود نهياه عن ذلك ، وأخبراه بأن هذا البيت ربا سيمنعه ، واستشارهما فيما

---

(١) لسان العرب لابن منظور جـ٢ ص ١١٠٩

يصنع ، فدعواه إلى أن يحجه ويطوف به ويسوق الهدى أمامه ففعل ، وعاد إلى اليمن بعد أن كسا البيت وعظمه .

وكانت قد أعجبته ديانة الحبرين فاعتنقها

وحين دنا من بلاده حالت حمير بينه وبين دخولها ، وقالوا له : لا تدخل بلادنا وقد فارقت ديننا ودين آبائنا . .

فعرض عليهم الدين الذى اعتنقه ودعاهم إليه . . فأبوا إلا أن يتحاكموا إلى النار .

وكان أهل اليمن ـ فيما يزعمون ـ يتحاكمون إلى نار تخرج من باطن الأرض ، يدخلها صاحب الحق فلا تضره ، ويدخلها الظالم فتحرقه .

فقال لهم تبع : لقد أنصفتم . .

فخرج وخرج معه قومه بأوثانهم . .

وأقبل مع تبع الحبران بصحفهما فقعد الفريقان جميعاً عند المكان الذى تخرج منه النار

فلما خرجت حاد عنها قوم تبع ولم يصمدوا لها . .

أما تبع والحبران فقد صبروا عليها حتى غشيتهم ولم تضرهم . .

فأقبلت حمير على دين الحبرين فاعتنقته ، وتتابع ملوك اليمن على هذا الدين يخلصون له حتى جاء ذو نواس . . وكان من أشدهم إخلاصاً لهذا الدين . وكان اسمه يوسف . .

المسيحية تدخل اليمن :

وكان رجل من أتباع عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ سائحاً يتنقل فى البلاد اسمه « فيميون » وكان صالحاً مجتهداً فى العبادة ، مخلصاً لله ، فأكرمه

الله باستجابة دعائه ، كان يدعو للمرضى فيشفيهم الله بقدرته ، وكان يأكل من كسب يده ، يحترف العمل فى البنيان .

وكان « فيميون » هذا من قرية من قرى الشام ، وكان هذا دأبه ،فرآه يوماً رجل اسمه « صالح » فتعلق به وأحبه ، وكان يتبعه أينما سار دون أن يدرى عنه « فيميون » شيئاً .

وفى يوم وقف « فيميون » يصلى فى فلاة بعيداً عن الناس ، وصالح يرقبه من بعيد ، واذا بتنين عظيم أقبل نحو « فيميون » لم يكترث واستمر فى صلاته حتى فرغ منها .

فلما انصرف من صلاته أقبل عليه صالح يعرفه بنفسه ، ويقول له : والله ما أحببت شيئاً حبك قط وقد أردت صحبتك والذهاب معك إلى أى مكان .

فقال له « فيميون » : أما أمرى فهو ما تراه فهل تصبر على مصاحبتى على ذلك ؟

فقال له صالح : أجل ، ولزمه ، وسار معه أينما ذهب .

وهبطا معا قرية ، وأقبل رجل له ابن ضرير على « فيميون » فقال له : إن عندى جداراً أريد أن ترفعه واصطحبه ، وكان قد أجلس ابنه فى حجرته وألقى عليه ثوباً ، وحين دخل « فيميون » البيت نزع الرجل الثوب عن ولده ، وقال : يا فيميون ادع ربك أن يشفى ابنى ..

فتضرع « فيميون » إلى الله فأبصر الولد وقام يمشى ليس عليه بأس واشتهر أمره فى القرية ..

وكان إذا أدرك أن أمره قد فشا يترك القرية إلى غيرها ..

وخرج ومعه صالح إلى قرية أخرى ، حتى إذا مرا بشجرة عظيمة ، سمع صوتاً يناديه : يا« فيميون » إنى أنتظرك منذ حين ، وها أنت ذا قد جئت ، فلا تبرح هذا المكان حتى تقوم بدفنى فإنى أموت .

ولفظ الرجل صاحب الصوت أنفاسه ، فقام « فيميون » بأمره وواراه التراب .

وانطلق ومعه صالح نحو أرض العرب ، فاختطفتهما رحالة من بعض العرب وخرجوا بهما إلى نجران حيث باعوهما هناك ..

وكانت نجران فى ذلك الوقت وثنية تعبد ما يعبده العرب .. كانت لهم نخلة طويلة يعبدونها من دون الله ، ويقيمون لها عيداً كل عام ، يعلقون عليها فيه كل ثوب حسن ، وكل حلية جميلة من حلى النساء ..

وفرق الرق بين « فيميون » وصاحبه صالح ، فقد اشترى « فيميون » رجل من أشراف نجران واشترى صالحاً رجل غيره ..

وخصص الرجل الذى اشترى فيميون له بيتاً مفرداً قريباً من بيته .. وكان « فيميون » يقوم من الليل فيتعبد ، فكان البيت يضىء له من غير سراج ، ورأى سيده ذلك فأعجبه ، فسأله عن دينه فأخبره ..

وقال « فيميون » لذلك السيد : إنكم فى باطل ، تعبدون مخلوقاً أصم لا حس له لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر .. ولو دعوت ربى على هذه النخلة لأحرقها ..

فقال له السيد : إن فعلت ذلك دخلنا فى دينك ..

فدعا « فيميون » ربه على النخلة فجاءت ريح فاقتلعتها من جذورها

والقتها بعيداً فأقبل أهل نجران على دين « فيميون » يعتنقونه ويعبدون الله وحده ، فدخلت المسيحية بذلك إلى نجران .

فسمع ذو نواس بخبر ذلك فغار على دينه ، فأقبل على نجران بجنده ، وحفر أخدوداً فى الأرض أجج فيه النار ، ودعا أهل نجران إلى اليهودية ، فمن اعتنقها نجا ، ومن أبى قذفه فى النار[٢] .

قصة الغلام والساحر :

وهناك قصة أخرى حول هذه الفتنة التى افتتن بها أهل نجران رواها مسلم فى صحيحه ورواها غيره من أصحاب السنن عن صهيب ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

كان لأحد الملوك الذين ملكوا نجران كاهن يتكهن له ـ وفى رواية ساحر ـ فقال الساحر يوماً : إنى قد كبرت ، وأخاف أن أموت فينقطع عنكم علمى ولا يكون فيكم من يعلمه ، فاحضروا الىّ غلاماً فطناً لقناً فأعلمه علمى .

فنظروا له غلاماً على ما وصف ، وأمروه أن يحضر إلى ذلك الساحر وأن يتردد عليه .

وكان على طريق الغلام راهب فى صومعة[٣] .

فجعل الغلام يسأل ذلك الراهب كلما مر به عن أمره ، فلم يزل به حتى أخبره فقال : إنما أنا عبد الله أعبد الله وحده فجعل الغلام يمكث عند

(٢) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبرى ص١٠٣ حـ٢

(٣) قال معمر : أحسب أن أصحاب الصوامع يومئذ كانوا مسلمين ـ حياة الحيوان حـ٢ ص ٥٩٩

الراهب ويبطىء على الساحر ، فأرسل الساحر إلى أهل الغلام أنه لا يكاد يحضرنى .

فأخبر الغلام الراهب بذلك ، فقال له الراهب : إذا خشيت الساحر فقل : حبسنى أهلى ، وإذا خشيت أهلك فقل : حبسنى الساحر .

فبينما الغلام على ذلك إذ هجمت على الناس دابة عظيمة ـ قيل هى أسد ـ وقد حبست الناس ، فقال : اليوم يبين أمر الراهب من أمر الساحر .

فأخذ حجراً وقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة ، ثم رمى بالحجر فقتلها .

فقال الناس : من قتلها ؟

فقالوا : الغلام

ففزع الناس وقالوا : لقد علم هذا الغلام علماً لم يعلمه أحد . .

قال : فسمع به أعمى كان جليساً للملك ، فقال له : إن رددت إلىَّ بصرى فلك كذا وكذا .

فقال الغلام : لا أريد منك شيئاً ، ولكن أرأيت إن رجع بصرك إليك أتؤمن بالذى رده إليك ؟

قال : نعم

فدعا الغلام الله تعالى ، فرد عليه بصره ، فآمن الأعمى بالله . .

وجاء الأعمى إلى الملك بعدما شفى ، فجلس معه كما كان يجلس ، فقال له الملك : من رد عليك بصرك ؟

قال : ربى

قال : وهل لك رب غيرى ؟

قال : الله ربى وربك

فأمر بالمنشار فوضع على رأسه حتى شقه نصفين

وكان الراهب ـ كما يقول الترمذى فى روايته ـ حين قتل الغلام الدابة قد قال له : إن لك شأناً ، وإنك ستبتلى فلا تدل علىَّ ، ولكن الملك علم بأمرهم

وحين بلغه أمرهم أتى بهم وقال لهم : لأقتلن كل واحد منكم قتلة لا أقتل بها صاحبه .

ثم أمر بالراهب وبالرجل الذى كان أعمى فشق كل واحد منهما بالمنشار ، وأمر بالغلام أن يلقى من فوق رأس جبل .

فانطلقوا به إلى ذلك الجبل ، فلما انتهوا به إلى قمته قال : اللهم اكفنى شرهم بما شئت

فجعلوا يتساقطون من ذلك الجبل ويتردّوْن منه حتى لم يبق منهم إلا الغلام

فرجع الغلام يمشى حتى أتى الملك .

فقال له : ما فعل أصحابك ؟

قال : كفانيهم ربى بما شاء

فأمر الملك أن ينطلقوا به إلى البحر فيلقوه فيه ، فانطلقوا به إلى البحر

فقال الغلام : اللهن اكفنى شرهم بما شئت

فأغرق الله ـ عز وجل ـ الذين كانوا معه وأنجاه (٤)

---

(٤) فى رواية الطبرى : جعل يبعث به إلى مياه بنجران لايقع فيها شىء إلا هلك ، فيلقى فيها فيخرج ليس به بأس ـ تاريخ الأمم والملوك حـ ٢ ص ٥٠٠

فأقبل الغلام يمشى على وجه الماء حتى أتى الملك ، فتحير الملك فى نفسه فقال له الغلام : أتريد أن تقتلنى ؟

قال الملك : نعم

قال : إنك لا تقدر على ذلك حتى تصلبنى وترمينى بسهم من كنانتى ،وتقول إذا رميتنى : باسم الله رب هذا الغلام ، بعد أن تجمع الناس فى صعيد واحد .

فجمع الملك الناس فى صعيد واحد ، وأمر بالغلام أن يُصلب فصُلب ، وأخذ الملك سهماً من كنانة الغلام ، وقال : باسم الله رب هذا الغلام ، ورماه فوقع السهم فى صدغه فقتله ، ووضع الغلام يده على صدغه .

فقال الناس : آمنا برب هذا الغلام .

فقيل للملك : إنك جزعت حين خالفك ثلاثة ، فهذا جمع غفير قد خالفك .

فأمر بالأخدود فخد ، ثم ألقى فيه الحطب والنار ثم جمع الناس وقال لهم : من رجع عن دينه تركناه ومن لم يرجع ألقيناه فى النار فجعل يلقيهم فى ذلك الأخدود . .

وزاد مسلم فى روايته فقال :

فأتى بامرأة لتلقى فى النار ومعها صبى رضيع ، فقال لها الغلام : ياأماه لاتجزعى فإنك على الحق . وذكر قتيبة أن الغلام كان عمره سبعة أشهر [٥]

---

(٥) حياة الحيوان للدميرى حـ ٢ ص ٥٦٠ وأورد القرطبى هذه القصة فى تفسيره ـ سورة البروج ـ

وقد ورد ذكر هذه القصة فى قوله ـ تعالى ـ :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١) ﴾ (٦)

الشـــهداء أحـــياء :

وقص ابن هشام فى سيرته هذه القصة ، وذكر أن اسم هذا الغلام الذى علمه الراهب « عبدالله بن الثامر » وأنه استطاع أن يهتدى إلى معرفة اسم الله الأعظم .

وروى عن عبدالله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أنه حدّث أن رجلاً من أهل نجران كان فى زمان عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ حفر خربة من خرب نجران ، فوجدوا عبدالله بن الثامر تحت دفن منها ، قاعداً واضعاً يده على ضربة فى رأسه ممسكاً عليها بيده فإذا أخرت يده عنها تنبعث دما ، وإذا أرسلت يده ردها عليها فأمسكت دمها ، وفى يده خاتم مكتوب فيه « ربى الله »

---

(٦) البروج ١ : ١١

فكتب فى شأنه إلى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يخبر بأمره ، فكتب إليهم عمر ـ رضى الله عنه ـ أن أقروه على حاله وردوا عليه الدفن الذى كان عليه ففعلوا [7]

قال السهيلى : ويصدق ذلك قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [8]

وقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إن الله حرم على الأرض أجساد الأنبياء » [9]

نهاية ذى نواس :

ولا خلاف فى أن الذى أمر بحفر أخدود نجران هو ذو نواس ، ولكن الخلاف فى ديانته هل كان يهودياً أو وثنياً ؟

قال السهيلى : وذو نواس اسمه زرعة بن تيان بن أسعد الحميرى وكان أيضاً يسمى بيوسف وكانت له غدائر من شعر تنوس ـ أى تضطرب ـ فسمى ذا نواس لذلك .

ويبدو أنه لم يكتف بأخدود نجران ، بل كانت له أخاديد أخرى . . وحين فعل ذلك بأهل نجران أفلت منهم رجل اسمه دوس ذو ثعلبان على فرس له ، سلك الرمل فأعجز مطارديه ، ومضى على وجهه حتى لحق بقيصر

---

(٧) سيرة ابن هشام حـ ١ ص ٣٥
(٨) آل عمران ١٦٩
(٩) أخرجه أبو داود

ملك الروم وأخبره الخبر ، واستنصره على ذى نواس الذى فتك بنصارى نجران .

فقال له قيصر : بعدت بلادك عنى ، ولكنى سأكتب إلى ملك الحبشة فإنه على هذا الدين ، وهو أقرب إلى بلادك .

وكتب قيصر إلى نجاشى الحبشة يأمره بنصر « دوس » والطلب بثأره ، فبعث النجاشى سبعين ألفا من الحبشة ، وأمر عليهم رجلاً يقال له « أرباط » ومعه فى جنده « أبرهة الأشرم » ونزلوا ساحل اليمن وسار إليهم ذو نواس فى حمير ومن أطاعه من قبائل اليمن .

فلما التقوا انهزم ذو نواس وأصحابه ، فلما رأى ذو نواس ذلك وجه فرسه نحو البحر فاقتحمه فمات غريقاً واستولت الحبشة على اليمن ، وأمعن « أرباط » فى تخريب اليمن وآثاره ، وكان من هذه الآثار المشهورة حصون « بينون » وسلحين ، وغمدان » وقال أحد شعراء اليمن وهو ذو جدن الحميرى يرثيها :

هونك ليس يرد الدمع ما فاتا   لا تهلكى أسفاً فى أثر من ماتا
أبعد « بينون » لا عين ولا أثر   وبعد « سلحين » يبنى الناس أبياتا ؟(١٠)

وهكذا شأن الغازى لا يرعى للديار حرمة مالم يكن له عصمة من دين أو وازع من ضمير ..

متى حدثت هذه الواقعة ؟

يذكر كاتب مادة أصحاب الأخدود فى دائرة المعارف الاسلامية أن ذا نواس أحرق نصارى نجران سنة ٥٢٣ م

---

(١٠) سيرة ابن هشام حـ ١ ص ١٧ ومعنى هونك : ترفقى وليهن عليك الأمر . وقال السهيلى : بينون وسلحين مدينتان خربهما أرباط ، وكانت بينون بين عمان والبحرين .

ويقدر البعض أن ذلك كان قبل مولد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنصف قرن تقريباً .

وهو الزمن الموافق لتمكن الحبشة فى اليمن ثم تفكيرهم على يد أبرهة فى غزو مكة وهدم البيت ، وقد كان هجوم أبرهة بالفيلة على مكة فى العام الذى ولد فيه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وقد حدد الشيخ محمد الخضرى مولد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه يوافق ٢٠ من ابريل عام ٥٧١ م(١١)

وهذا يوافق الثانى عشر من ربيع الأول من عام الفيل . .

وقد قدر بعضهم بأن ذلك ـ أى حرق المؤمنين فى الأخدود ـ كان قبل بعثة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بسبعين عاماً وبعضهم بأربعين عاماً . . والله أعلم بالصواب . .

هل هناك أخاديد أخرى ؟ :

أشار بعض المؤرخين إلى أن حفر الأخدود لإحراق المؤمنين لم يكن قاصراً على ذى نواس . .

ولكن هناك جبابرة آخرون فعلوا ذلك وقد أشار العهد القديم إلى أن « بختنصر » أقام تمثالاً من ذهب وعكف على عبادته وأجبر الناس على عبادته معه ومن لم يؤمن به ويعبده كان يلقيه فى أتون النار المتقدة ، وكان يتزعم المؤمنين بالله ثلاثة من الأحبار فقال لهم « بختنصر » : إن لم تسجدوا لتمثال

---

(١١) نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين

الذهب فى تلك الساعة فسوف تلقون وسط أتون النار المتقدة ، وأرونى من هو الاله الذى ينقذكم من يدى ؟

فأجابه هؤلاء قائلين :

يا بختنصر لا يلزمنا أن نجيبك عن هذا الأمر ، إن إلهنا الذى نعبده يستطيع أن ينجينا من أتون النار المتقدة ، وأن ينقذنا من يدك أيها الملك ، وليكن معلوماً لك أيها الملك أننا لن نعبد آلهتك ولن نسجد لتمثال الذهب الذى صنعته .

حينئذ امتلأ « بختنصر » غيظاً وتغير منظر وجهه ، وأمر جنوده أن يضاعفوا من إشعال النار فى الأتون سبعة أضعاف ، وأوثقوا الرجال الثلاثة فى سراويلهم وقمصانهم وأرديتهم وألقوا بهم وسط النار ولكن هذه النار لم تعمل فيهم شيئاً ، بل أصبحت عليهم برداً وسلاماً وخرجوا من النار سالمين [١٢]

ولعل ذلك كان سبباً فى ايمان « بختنصر »

قصة الثعلبى فى ذلك :

وأشار الثعلبى فى كتابه إلى قصة أخرى جرت فى فارس قال :

أخبرنا عبدالله بن حامد باسناده إلى ابن أروى قال :

اختلف المسلمون حول الأحكام التى تجرى على المجوس بعد هزيمتهم ، وسبب الاختلاف أنهم ليسوا أهل كتاب وليسوا من مشركى العرب . وكان عمر ـ رضى الله عنه ـ قد استشهد

---

(١٢) راجع العهد القديم ـ سفر دانيال ـ الاصحاح الثالث

فقال على ـ كرم الله وجهه ـ : بل هم أهل كتاب وكانوا متمسكين بكتابهم ، وكانت الخمر قد أحلت لهم فتناولها ملك من ملوكهم فغلبت على عقله حتى تناول أخته فوقع عليها .

ولما ذهب عنه السكر ندم ، فقال لها : ويحك ماهذا الذى صنعت ؟ وما المخرج ؟

فقالت له : المخرج أنك تنادى فى الناس بأن الله أحل لكم نكاح الأخوات ، فاذا ذهب هذا فى الناس تناسوا حرمته عليهم .

فقام الملك خطيباً فى قومه فنادى : أيها الناس إن الله أحل لكم نكاح الأخوات ، فأنكر الناس جميعاً عليه ذلك ، وقالوا : ماجاءنا بهذا نبى ولا أنزل علينا فى كتاب .

فرجع الملك إلى أخته ، فقالت له : ابسط فيهم السوط
فبسطه فيهم فأبوا أن يقروا له بما يقول
فرجع إلى أخته فقالت له : جرد فيهم السيف
فجرده فيهم ، فلم يفد شيئاً

فقالت له أخته : فاحفر لهم أخدوداً وأوقد فيه النار ، فمن تابعك فخل عنه ، والا فاقذفه فيه ..

فخد الأخدود وأوقد النار وعرض أهل مملكته عليها فمن أبى منهم الإقرار بما قال لهم قذفه فيه .. (١٣)

فانظر كيف تفعل الخمر بأصحابها ، لقد أشعلت فتنة وغيرت دينا وأباحت منكراً وظل من أباحوه يتوارثونه آماداً طويلة ، وصدق من قال عن الخمر بأنها أم الخبائث .

---

(١٣) قصص الأنبياء للثعلبى ص ٤٤٦

عظات وعبر :

والقصة فى صورها المختلفة تحدثنا عن الصراع بين الإيمان والكفر . . وتعلمنا أن الثبات على الإيمان سمة المؤمن الصادق الذى يثق بوعد ربه ويوقن بنصرته . .

والله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يتخلى عن الصادقين ، فهو يثبتهم بآيات من عنده ، فتلك المرأة التى تقاعست حين أمر ذو نواس بإلقائها فى الأخدود ، يلتفت رضيعها إليها فيأمرها بالثبات ، وهذه آية لاشك فيها حتى ورد أنه لم يتكلم فى المهد سوى شاهد يوسف ، وابن ماشطة بنت فرعون ، ويحيى وعيسى وصاحب الراهب وابن امرأة الأخدود .

هم ستة ذكرهم الثعلبى فى خبر مسند إلى صهيب ـ رضى الله عنه ـ

كما تشير القصة إلى أن الكفر حين يستولى على القلب يعقد حجاباً كثيفاً من الظلمة فلا يرى صاحبه الحق فيمعن فى الظلم ويبالغ فى الطغيان . . فانظر كيف زين الكفر لذى نواس أنه ليس إلا هو وأن ماعداه من الناس لاشيء ، فقتلهم مشروع ودماؤهم حلال . . وهكذا قتل فى الأخدود قوماً مؤمنين .

اختلف الرواة فى عددهم فبينما يقدرهم البعض بسبعين أو ثمانين يقدرهم البعض الآخر بأكثر من ألف . .

وعلى كل فقتل نفس واحدة ظلماً كقتل الناس جميعاً مصداقاً لقوله ـ تعالى ـ :

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا

﴿فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (١٤)

لقد سولت لذى نواس نفسه ، وزين له الشيطان عمله ، وامتد به حبل غروره ، ولكن الله يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، وكان مصيره عبرة لمن يعتبر .. لقد أزهق روحه بيده ، وألقى بنفسه فى لجة البحر تتقاذفه الأمواج ، كما تقاذفت قبله بفرعون الذى ادعى الربوبية .

إن البشاعة التى تم بها حادث الأخدود يدل دلالة قاطعة على تجرد قلوب الذين قاموا به من الرحمة ، ويشهد على أنهم قوم غلاظ الأكباد قساة القلوب ، وقد أدان القرآن الكريم هذا الحادث وتوعد من قاموا به بأشد أنواع العقاب ، ولما كان الجزاء من جنس العمل فقد توعدهم بعذاب جهنم ، ولم يكتف بذلك بل أتبع ذلك الوعيد بقوله : « ولهم عذاب الحريق » تأكيداً لإحراقهم مع أن جهنم هى النار ..

والقرآن يعنيه الإيمان بالله وحده ، وقد كان هؤلاء المعذبون مؤمنين على ديانة عيسى ـ عليه السلام ـ والأنبياء كلهم يدعون إلى دين واحد فى أصله ..

وهكذا يظل أهل الإيمان دائماً عرضة للعذاب والنكال من أعداء الله ونحن نرى بعض المسلمين فى هذا العصر يتعرضون لكثير من ألوان القسوة والعذاب من أعدائهم ..

---

(١٤) المائدة ٣٢

وماجاء الاسلام إلا لانصاف المظلوم وتأمين الخائف وإشاعة الأمن والعدل واسعاد البشرية ، فكان جزاؤه أن جرد أعداؤه فى وجوه أتباعه السيف ، ومارسوا معهم أقسى أنواع الارهاب ، وأشاعوا فى بعض بلادهم الخوف والفزع حتى اضطروا إلى الفرار بدينهم أو القتل أو الرضوخ . .

ولسنا نقول هذا الكلام من فراغ ولكنه الواقع المؤسف الذى تشهد به صفحات التاريخ وتتحدث عنه الوقائع والأحداث فى أيامنا تلك ، فالاستعمار بكل قواه والتبشير بكل أساليبه يتعاونان معاً على البطش بالمسلمين فى أى مكان يظفرون بهم فيه وبخاصة فى الأماكن التى توجد بها أقليات مسلمة . .

وهذه أمثلة للممارسات التعسفية التى لا تقل بشاعة عن ممارسات أصحاب الأخدود . .

كانت أسبانيا دولة مسلمة فتحت سنة ٩٢ هـ ، وأشاع المسلمون العدل فى هذه البلاد وظل الاسلام فيها حتى نهاية القرن التاسع الهجرى ثم تحالفت عليهم جيوش الفرنجة واستولوا على السلطة فطردوا المسلمين وأجبروهم على الجلاء أو الارتداد عن الإسلام ، وأنشأ راهب حاقد اسمه « توماس توركيمادا » مايسمى بمحاكم التفتيش التى سجلت أسود الصفحات فى تاريخ البشرية ، وقد حكم فى نطق واحد على ألفى مسلم بالموت حرقاً ، وفى عهد خلفائه من بعده ازدادت هذه المحاكم شراسة مما اضطر الكثرة من المسلمين إلى الفرار ، ومن بقى كتم اسلامه ، ومارست المحاكم البشعة شراستها أكثر من ثلاثة قرون ، ولم تلغ هذه المحاكم إلا فى عهد نابليون فى أواخر القرن التاسع عشر .

كان الاستعمار البريطانى وراء الفظائع التى ارتكبها الهندوك ضد المسلمين فى الهند ..

إن أى مؤرخ لايمكنه ملاحقة الأحداث التى تمخضت عن أبشع الجرائم التى ارتكبت ضد المسلمين فى أرواحهم ومساجدهم وممتلكاتهم ، وحسبنا من ذلك الإشارة إلى حادث مدينة « جمشديور » مركزصناعة الصلب فى ولاية « بيهار » حيث استولى قطاع الطرق على المدينة وتعرض المسلمون على مدى أيام ثلاثة لحركة إبادة وتدمير بشعة وبعلم من السلطات الحاكمة ، فقتل حوالى ألف مسلم وجرح أكثر من ألف وخمسمائة ، ودمرت منازل تقدر قيمتها بثلاثة ملايين من الدولارات وماخفى كان أعظم ، كان ذلك الحادث فى سنة ١٩٧٩ م أى فى العصر الحديث .

إن هؤلاء المعتدين لم يكونوا قطاع طرق ، ولكن الذين شجعوهم على ذلك وظاهروهم قالوا عنهم إنهم قطاع طرق ستراً للمؤامرة الدنيئة التى راح ضحيتها المسلمون ، وكيف يفرق قاطع الطريق بين مسلم وغير مسلم ؟ لكنه فرق ، فكيف يكون قاطع طريق ؟

والاستعمار نفسه وراء إسرائيل التى مازالت تمارس عدوانها الشرس ضد الإسلام فى فلسطين وما جاورها ، واعتداؤها على القدس حلقة فى سلسلة هذه الهجمات الشرسة التى تستهدف القضاء على الإسلام والمسلمين .

والاستعمار وراء حركات التبشير المستمرة فى بلاد الإسلام والتى يقاسى المسلمون من ضراوتها وشراستها ، والتبشير يقوم بمحاولات ماكرة خبيثة فى سبيل إجبار المسلمين على التنصر ، ويبذل فى طريق ذلك أموالاً طائلة .

كانت الحروب الصليبية تستهدف القضاء على الإسلام ، ولم تكن بسبب الغيرة على الأماكن المقدسة كما ادعى كذباً من أشعلوها ، وكان فى إمكانهم

الاكتفاء بالسيطرة على بيت المقدس ، ولكن نياتهم فضحت بالحملات المسعورة التى قاموا بها ضد المسلمين الأبرياء العزل حتى قتلوا وشردوا الألاف من المسلمين الأبرياء العزل .

ولم يقابل المسلمون المعاملة بالمثل بعد أن استردوا بيت المقدس بقيادة صلاح الدين الأيوبى ولكن معاملتهم للصليبيين كانت فى منتهى الرحمة والعطف ، وقد شهد بذلك الغربيون أنفسهم ،

إن الصليبية تحالفت الآن مع الصهيونية ، ونسيتا عداوتها التقليدية مؤقتاً لتتفرغا معاً لمحاربة الإسلام والقضاء على أهله ، مستعملين أبشع أنواع التنكيل والإرهاب .

ومازالت هذه القوى المعادية للإسلام تخطط بذكاء حتى تحول دون أدنى استقرار للدول المسلمة . .

وانظر إلى خريطة العالم الاسلامى تجد قلاقل وفتنا فى كل مكان فيها . .

ومن الغريب أن المشرفين على تلك الحملة الشرسة قرروا أن تحول افريقيا المسلمة إلى افريقيا المسيحية قبل نهاية هذا القرن . .

ومجلس الكنائس العالمى يقرر استراتيجية جديدة لتنصير المسلمين ، وقد تم رصد مليار من الدولارات لتنفيذ الخطة ، وزادت قوافل الغزو التبشيرى الذى أصبح فى أماكن كثيرة من أندونيسيا وبنجلاديش وبعض دول افريقيا دولة داخل الدولة لهم كيانهم المستقل

يدخل المبشرون هذه الدول فى صورة خبراء وتحت هذا الستار يفعلون ما يريدون (١٥)

---

(١٥) استندنا فى هذه المعلومات على كتاب « محنة الأقليات المسلمة » لمحمد عبدالله السمان الأمانة العامة للدعوة الاسلامية بالأزهر

ولكن ما أصدق الله الذى يقول : « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » . .

ونحن لم نشر إلى الممارسات الشيوعية ضد الإسلام ، مع فظاعة هذه الممارسات ، لأن الشيوعية مذهب قام على الالحاد والكفر وعدم الاعتراف بالله ، والتنكر لكل خلق ومبدأ فلا عاصم يعصمه من خلق أو دين فليس غريباً مايحدث منهم .

ولكن هؤلاء الذين يزعمون كذباً أنهم يؤمنون بالله ، ويدعون زوراً انتسابهم لرسالات سماوية تدعو إلى محاسن الأخلاق وحسن المعاملة بين الناس والصفح والمغفرة مابالهم يفعلون فعل الملحدين المارقين من كل دين ؟
إنه لا تعليل لذلك كله إلا الحسد ، وقد صدق الله العظيم إذ يقول :

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (١٦)

وهذا يفرض على المسلمين واجباً نحو أنفسهم ونحو دينهم ونحو مجتمعاتهم ونحو العالم أجمع . .

عليهم أن يستيقظوا من سباتهم ،ويجمعوا شملهم ، ويفكروا جدياً فى الكارثة التى توشك أن تحيق بهم . . عليهم أن يتعلموا من الزمن ويتعظوا من التاريخ ، ويعودوا إلى الله فيكونوا معه حتى يكون معهم ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . .

---

(١٦) البقرة ١٠٩



قوم سبأ

- أين كان قوم سبأ ؟
- سد مأرب .
- وصف بلاد سبأ .
- تهدم السد .
- عمرو بن عامر يحتال للنجاة .
- كيف أفسدت الفئران السد ؟
- قصة السد فى القرآن الكريم .



قوم سبأ

تفسير لغوى :

جاءت كلمة « سبأ » فى اللغة فعلاً واسماً . .

فمعناها وهى فعل يستعمل فى الخمر ، تقول : سبأ الخمر يسبؤها سبأ بمعنى اشتراها ليشربها ومنه قول الشاعر :

ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل   لخيلى كرى كرة بعد إجفال

ويطلق على الخمر اسم السبيئة ، ومنه قول حسان بن ثابت :

كأن سبيئة من بيت رأس   يكون مزاجها عسل وماء

على أنيابها أو طعم غض   من التفاح هصره اجتناء [1]

أما معناها وهى اسم ، فهو اسم رجل يجمع عامة قبائل اليمن ، أو اسم مكان فإن سميت به قبيلة منع من الصرف للعلمية والتأنيث ، وان سمى به رجل أو حى أو مكان صرف ، ومنه قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [2]

وقوله تعالى :

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [3]

---

(١) السبيئة : اسم الخمر : وبيت رأس : مكان بالشام مشهور بالخمر ـ غض : طازج ـ هصره : أماله للقطف يقول : إن طعم ريقها كأنه الخمر أو طعم التفاح الطازج .

(٢) سبأ ١٥

(٣) النمل ٢٢

وأما كونه اسم رجل فقالوا : إنه يطلق على سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان

وقيل : اسم رجل له عشرة بنين فسميت قريتهم باسم أبيهم ، وسيأتى حديث فى ذلك .

وأما كونه اسم بلدة فقالوا : إنها البلدة التى كانت تسكنها بلقيس ملكة سبأ ،

وقال الزجاج : هى مدينة تعرف بمأرب بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال .

وقد ورد فى سبأ مثل مشهور يرويه العرب ويضربونه فى أحداثهم المشابهة له ، فيقولون : تفرقوا أيدى سبأ ، أو يقولون أيادى سبأ . . وفى ذلك يقول كثير الشاعر :

أيادى سبأ ياعز ما كنت بعدكم ... فلم يحل للعينين بعدك منظر
وقد زعمت انى تغيرت بعدها ... ومن ذا الذى ياعز لا يتغير

قال ابن منظور : لما تفرق السبئيون عقب تهدم السد أخذ كل قوم منهم طريقاً ، وتبددوا مذاهب شتى ، فضرب بهم المثل فى التفرق والتشتت ، والعرب لا تهمز سبأ فى هذا الموضع لأنه كثر فى كلامهم فاستثقلوا الهمزة وان كان أصل الكلمة مهموزاً .

أين كان قوم سبأ ؟ :

قال السهيلى : أما سبأ فاسمه « عبد شمس » وكان أول من تتوج من ملوك العرب وهو أول من سبى فسمى « سبأ » ولكن هذا التعليل فيه نظر

لأن الاشتقاق لا يؤدى اليه ، لأن سبأ مهموز ، وسبى معتل الآخر بالياء . .

وكانوا يقيمون باليمن . .

وقد روى ابن الأثير فى ترجمة فروة المرادى حديثاً عنه يذكر فيه أصل « سبأ » قال فيه :

« أتيت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقلت : يارسول الله : ألا أقاتل من أدبر من قومى بمن أقبل منهم ؟ فأذن لى فى قتالهم وأمرنى ، فلما خرجت من عنده سأل عنى : مافعل الغطيفى ؟ فأخبر أنى قد سرت . .

قال : فأرسل فى أثرى من ردنى إليه ، فأتيته ـ وهو فى نفر من أصحابه ـ فقال : ادع القوم ، فمن أسلم منهم فاقبل منهم ، ومن لم يسلم فلا تعجل حتى أحدث إليك .

قال : وأنزل الله فى سبأ ما أنزل . فقال رجل : يارسول الله ، وما سبأ ؟ أرض أو امرأة ؟

قال : ليس بأرض ولابامرأة ، ولكنه رجل ولد عشرة من العرب ، فتيامن منهم ستة ، وتشاءم أربعة فأما الذين تشاءموا فلخم ، وجذام ، وغسان ، وعاملة .

وأما الذين تيامنوا فالأزد ، والأشعريون ، وحمير ، وكندة ، ومذحج وأنمار .

فقال رجل : يارسول الله ، وما أنمار ؟

قال : الذين منهم خثعم وبجيلة [٤] .

قال المسعودى : ويعد سبأ أول من ملك فى اليمن وأول من غنم فى الغزو

---

(٤) ابن الأثير : أسد الغابة فى معرفة الصحابة حـ ٤ ص ٣٥٩ الترجمة رقم ٤٢١٨ ، ورواه الترمذى وقال : هذا حديث حسن غريب ـ تحفة الأحوزى حـ ٩ ص ٨٨

وأعطى قومه ، فسمى بالرائش ودام ملكه أربعمائة سنة ، وملك بعده من ولده حمير بن سبأ بن يشجب الذى كان من أشجع الناس فى عصره وأفرسهم وأجملهم وهو أول من وضع التاج على رأسه من الذهب ، فلقب بالمتوج . وجاء بعده أخوه كهلان ، وتتابع بعده الملوك والتابعة ـ وقد أسس هؤلاء فى اليمن حضارة عريقة وآثارا تالدة منها سد مأرب المشهور الذى ذكر القرآن الكريم قصة هدمه . .

وذكر ابن كثير أنه بشر بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال فى ذلك شعرا منه :

سيملك بعدنا ملكا عظيما ... نبى لايرخص فى الحرام
ويملك من بعده منهم ملوك ... يدينون العباد بغير ذام
ويملك بعدهم منا ملوك ... يصير الملك فينا باقتسام
ويملك بعد قحطان نبى ... تقى خبته [٥] خير الأنام
وسمى أحمد ياليت أنى ... أعمر بعد مبعثه بعام
فأعضده وأحبوه بنصرى ... بكل مدجج وبكل رام
متى يظهر فكونوا ناصريه ... ومن يلقاه يبلغه سلامى [٦]

وسبأ بن يشجب هذا هو الذى أنشأ سد مأرب [٧] .

وقيل : إن الذى بنى السد لقمان بن عاد . .

وجاء فى دائرة المعارف للبستانى :

---

(٥) لعل المقصود من « خبته » الوصف بالمصدر ، أى تواضعه

(٦) تفسير ابن كثير حـ ٦ ص ٤٩٣ ولعله يقصد بالنبى الأول سليمان ، أما الثانى فهو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ

(٧) جاء فى اللسان : مأرب : بلاد الأزد التى أخرجهم منها سيل العرم ، وقال ابن الأثير : وهى مدينة باليمن كانت بها بلقيس

سد مأرب بناه سبأ بن يشجب بن يعرب ، وكان سافله سبعين واديا ، ومات قبل أن يتمه ، فاكمله ملوك حمير..

ولكن المسعودى يقول : بناه لقمان بن عاد وجعله فرسخا فى فرسخ ، وجعل له ثلاثين مثغبا ـ أى فتحة ـ ليسيل منها الماء ؤ وجعلوا مادته الحجارة الكبيرة والرصاص ، فاذا انحدرت السيول اجتمعت خلف السد كالبحر العظيم ، فإذا أرادوا سقى أراضيهم فتحوا من ذلك السد على مقدار حاجتهم بأبواب محكمة وحركات هندسية [٨] .

بل إن بعضهم ينسب بناءه إلى بلقيس ملكة سبأ .

ونسب بنائه إلى سبأ أشهر .

صفة بنائه وأثره :

وكانت المياه خلف السد كثيرة جدا كالأنهار العظام جمع أهل الفن والهندسة منها قدرا كبيرا فى عراق مبنى من الحجر الصلد والحديد طوله فرسخ وعرضه فرسخ وجعلوا فى جسم السد منافذ مستديرة فى استدارة الذراع طولا وعرضا ، تخرج المياه من هذه المنافذ إلى مجار منتظمة إلى مصابها حيث تروى الحقول والجنان .

والذى يغذى مياه السد السيول التى كانت تندفع من أعالى الجبال فى سرعة تغمر الوديان وتخددها وتتجمع فيها على غير انتظام . فهداهم ذلك إلى حفر المصارف أمامها التى وحدت هدفها فى مجرى رئيسى مرسل ينتهى خلف السد فتتجمّع فيه .

---

(٨) دائرة المعارف البستانى حـ ٩

إنه عمل فنى رائع يدل على عقلية منظمة ، ويشهد بأن اليمن قديما وصلت إلى منزلة عالية من الهندسة والابتكار .

وكان لهذا السد أثر طيب فى البلاد . فقد كان يرد السيل الجارف ويحبس ماءه خلفه حتى ينتفع به أهل البلاد بمقدار ، ومكنهم ذلك من أن يحولوا بلادهم الى جنان وحدائق تعمر بمختلف الفواكه والثمار . حتى أصبحت أرض سبأ من أخصب أرض اليمن وأثراها وأغدقها . وأكثرها جنانا وارفة وحقولا زاهرة ومروجا خضراء تتخللها الجداول الصافية والأشجار العالية ، ويعطر نسيمها شذى الأزهار الفواحة ذات المناظر الأخاذة . .

وكانت مساحتها شاسعة قدرها البعض فى طولها بمسيرة شهر للراكب المجد وفى عرضها مثل ذلك .

وان الراكب ـ كما يقول المسعودى ـ [9] كان يسير فى تلك الجنان من أولها حتى ينتهى إلى آخرها لاتواجهه الشمس ولاتعارضه ، لاستتار الأرض بالعمارة الشجرية واستيلائها عليها واحاطتها بها .

وصوف بلاد سبأ :

لقد ورثت سبأ دولة معين باليمن ، وكان فيها ورثته حضارتها الراقية ومدنيتها الرائعة . وازدهرت فيها العمارة ازدهارا واسعا ، ونشأت فيها صروح كبيرة وعمارات عظيمة من بينها ذلك السد الذى كان مضرب الأمثال فى الهندسة والفن وحكمة التدبير والتقدير .

---

(٩) مروج الذهب حـ١ ص ٤٢١

وكانت عاصمة سبأ «مأرب» التى كان أهلها يتمتعون بنعمة واسعة ورزق وفير، أدرَّته عليهم خصوبة البلاد ووفاه لهم ذلك السد المنيع الذى كان الماء ينساب من خلاله بمقدار معلوم وتدبير محكم.

وكان السبب فى إنشائه أن الأمطار الكثيرة التى كانت تنزل، والسيول المتوافرة التى كانت تجتاح القرى والبلاد، كانت تتبدد سدى، وتبتلعها الرمال، وربما أهلكت ماتجده فى طريقها من قرى وعمران.. ففكروا فى إنشاء سد يحجز هذه المياه الوفيرة وراءه فينتفعون بها وقت التحاريق، ويستنبطون منها جداول وأنهارا تفيدهم فى ريهم وزراعتهم ونجحت الفكرة نجاحا كبيرا.

ولم يكن سد مأرب هو السد الوحيد فى اليمن، ولكن كانت هناك سدود متعددة أقامها اليمنيون أمام ودياتهم الكثيرة التى يكثر منها تدفق الماء إلا أن سد مأرب كان هو أعظم السدود وأطولها وأقواها وأكثرها فنا وأرقاها هندسة وأوفاها نفعا.

وكانت مدينة مأرب تقع فى نهاية واد فسيح يتجه إلى الجنوب، ثم يقصر أمده وتضيق رقعته شيئا فشيئا حتى يصبح ضيقا، ثم يمتد حتى يلتقى بمجرى السيول المنحدرة من جبال السراة. فى هذا الوادى أقام الفنيون هذا السد الذى يمتاز بطوله وعرضه حتى قال الرواة: إنه فرسخ فى فرسخ..

وأثمر هذا السد ثماره فى الوادى، فكانت الزروع الوافرة والحدائق الناضرة والأشجار الوارفة والأنسام العاطرة، والقطوف الدانية، والطيور المغردة.

وشعر الناس بنعمة الحياة وتقلبوا فى جنباتها حتى أصبحوا فى أطيب عيش وأرغده ، وأهنأ حال وأسعده ، كانوا فى نهاية الخصب وطيب الهواء وصفاء الفضاء وتدفق الماء كما كانوا فى قوة شوكة واجتماع كلمة وعزة مملكة . .

ويتحدث الرواة عما وصلت إليه البلاد من نعمة البال ورخاء الحال فيقولون : « كانت المرأة تسير فى وسط الحدائق فوق رأسها مكتلها وفى يدها مغزلها ، فلا تمضى فى السير غلوة ، حتى يكون المكتل قد امتلأ من الثمر المتساقط من الشجر من غير أن تمتد يد لقطفه . . وقد اتسعت لديهم النعمة وفاض عندهم الخير واشتغل بعضهم بالتجارة والرحلات . . فكانوا يسيرون فى القرى التى بارك الله فيها من الحجاز والشام آمنين مطمئنين ، وفى طريقهم يجدون الأماكن المريحة ، يقضون فيها بعض الأوقات استجماما من مشقة السفر ، وقد أعدت بكل مايلزم المسافر من زاد وراحلة »[10] .

مكث هؤلاء ماشاء الله لهم أن يمكثوا فى حياة هانئة ، وعيشة راضية ولهم من عدل حكامهم وحسن أخلاقهم مايكفل لهم السعادة والاطمئنان . .

قال المسعودى :

« فمكثوا فى ذلك ماشاء الله من الأزمان لايعاندهم ملك إلا قصموه ، ولايوافيهم جبار فى جيش إلا كسروه ، فذلت لهم البلاد وأذعن لطاعتهم الملوك ، فصاروا تاج الأرض . . »[11] .

---

(١٠) راجع قصص القرآن لمحمد جاد المولى ص ٢٤١

(١١) مروج الذهب حـ ١ ص ٤٢٢

وكان ملك سبأ حكيما يقرب الحكماء ويدنيهم ويستشيرهم ويأخذ برأيهم ، وكان السد ثمرة هذه الاستشارة . .

ولكن بمرور الوقت تولى ملوك لم يفعلوا مثلما كان يفعل سلفهم الحكيم ، فأعرضوا عن سماع أقوال الحكماء ، واستبدوا بآرائهم وتفردوا بأنفسهم فابتلوا بما ابتلوا به .

تهدم السد :

ويدور الزمن دورته ، ويخلف فى اليمن خلف أساءوا السيرة ، واخطأوا المحجة ، وضربوا بآداب الأقدمين عرض الحائط ، وابتعدوا عن تعاليم دينهم ووصايا أنبيائهم . .

ولكن هل كان فى سبأ رسالة ؟

أجل - يقول المرحوم مصطفى الحديدى الطير : كان أهل سبأ أهل حضارة ونعمة فبطروا ولم يشكروا ربهم على مارزقهم فأرسل الله إليهم رسولا يدعوهم إلى أن يشكروا الله ولايكفروا به حتى لاينزل بهم عقابه ، فأعرضوا فأغرق الله أرضهم وأهلك بساتينهم ونعمتهم [١٢] .

وذكر القرطبى فى تفسيره عن السدى ووهب أن الله بعث إلى أهل سبأ ثلاثة عشر نبيا فكذبوهم ، وقال القشيرى : وكان لهم رئيس يلقب بالحمار ، وكانوا فى زمن الفترة بين عيسى ومحمد - صلى الله عليه وسلم .

---

(١٢) عصاء القرآن من شريعة القرآن - مصطفى الحديدى الطير ص ٥٢ - سلسلة البحوث الاسلامية

وقيل : كان لهذا الرئيس ولد فمات فرفع رأسه إلى السماء ساخطا معترضا وكفر بالله ، ولهذا يقال : أكفر من حمار[14] .

وذكر الدميرى هذا المثل وقال : ان حمارا هذا رجل من عاد ، واسمه حمار بن مويلع وقيل : حمار بن مالك بن نصر الارزدى ، كان مؤمنا ، وكان له واد ، طوله مسيرة يوم فى عرض اربعة فراسخ ، لم يكن ببلاد العرب أخصب منه وفيه من كل الثمار . .

فخرج بنوه يوما يتصيدون فأصابتهم صاعقة فأهلكتهم فكفر وقال : لا أعبد من فعل هذا ببنى ، ودعا قومه الى الكفر فمن عصاه قتله ، فأهلكه الله وأخرب واديه فضربت العرب المثل به فى الكفر قال الشاعر يهجو :

ألم تر أن حارثة بن بدر ... يصلى وهو أكفر من حمار[14]

ولم تذكر المصادر أسماء الرسل الذين أرسلوا إليهم ، وإن كانت الآيات التى تحكى قصتهم تشير إلى أن هناك رسالة خرجوا على تعاليمها . فقد قال تعالى :

﴿ فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم ﴾ .

---

(١٣) قال الأصمعى : حمار : رجل من العمالقة كان له بنون وواد خصب ، وكان حسن الطريقة فسافر بنوه فى بعض أسفارهم فأصابتهم صاعقة فأحرقتهم فكفر بالله عز وجل وقال : لا أعبد ربا أحرق بنى وأخذ فى عبادة الأوثان ، فسلط الله على واديه ناراً فذهبت به ، واسم هذا الرجل : حمار بن مالك بن نصر ، وهو من الأزد ، وبه يضرب المثل فى الكفر ـ الفاخر فى الأمثال للمفضل بن عاصم ص ١٥ .

(١٤) حياة الحيوان للدميرى حـ ١ ص ٤٤١

والاعراض لايكون الا عن رسالة ، وعدل الله يقضى بألا يعذب إلا بعد إنذار قال ـ تعالى ـ

﴿ مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ (١٥)

وقد أشار الدميرى فى كتابه حياة الحيوان إلى أن قوم سبأ خرجوا على تعاليم سليمان ـ عليه السلام ـ فكأن رسالة سليمان كانت فيهم إلى جانب بنى إسرائيل ، وعبارته فى ذلك : وكان لهم سد بنته بلقيس لما ملكتهم ، وبنت دونه بركة فيها اثنا عشر مخرجا على عدد أنهارهم ، فكان الماء يقسم بينهم على ذلك ، فلما كان من شأنها مع سليمان ـ عليه السلام ـ ماكان مكثوا مدة بعدها ثم طغوا فسلط الله عليهم جرذا أعمى يقال له : الخلد فنقب السد من أسفله ، فهلكت أشجارهم وخربت أرضهم .. (١٦)

هذا الخبر : لايناقض ما جاء من أن الله ارسل إليهم ثلاثة عشر نبيا .. فقد يكون هؤلاء أرسلوا بعد سليمان ـ عليه السلام .

وعلى كل فأنبياء الله لايحصون كثرة ، ومنهم من عرف اسمه ومنهم من لم يعرف وقد قال الله تعالى فى ذلك :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ (١٧)

---

(١٥) الاسراء ١٥

(١٦) حياة الحيوان للدميرى ص ٥٢٣

(١٧) غافر ٧٨

ماذا كان يعبد هؤلاء ؟

كان هؤلاء يعبدون الشمس ، على ماذكر الله فى قصة بلقيس « وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله » وبعد أن هداهم الله على يد سليمان ـ عليه السلام ـ غيروا وبدلوا .

قال المسعودى : فأرسل الله اليهم رسلا يدعونهم إلى الله ويزجرونهم عما هم عليه ، ويذكرونهم آلاء الله ونعمته عليهم ، فجحدوا قولهم وردوا كلامهم ، وأنكروا نعمة الله عليهم ، وتحدوهم قائلين : إن كنتم رسلا حقا فادعوا الله أن يسلبنا ما أنعم به علينا ويذهب عنا ما أعطانا . وفى ذلك تقول امرأة كافرة منهم :

إن كان مانصبح فى ظلاله　　من ربكم فلينطلق بماله
إليه عنا وإلى عياله

فردت عليها امرأة مؤمنة مستوثقة بربها فقالت :

لولا الاله لم يكن عيالنا　　ولم يسع عيالنا أموالنا
هو الذى يجيبنا سؤالنا　　ويكشف الغم إذا ماهالنا

فلما يئس الرسل منهم دعوا عليهم فأرسل الله عليهم سيل العرم ، فهدم سدهم ، وغشى الماء أرضهم وأهلك أموالهم وزروعهم وحدائقهم .

فضجوا إلى رسلهم قائلين : ادعوا الله أن يخلف علينا نعمتنا ويخصب بلادنا ، ويرد علينا ماذهب من نعمنا ، ولكم علينا عهد الله وميثاقه ألا نشرك بالله شيئا .

فسألت الرسل ربهم ، فأجابهم الله إلى ما أرادوا ، وأعطاهم ماسألوا .

وعادت ديارهم إلى الخصوبة ، وآتاهم الله خيرا مما أخذ منهم ، واتسعت ديارهم حتى بلغت أرض فلسطين والشام ، وأقاموا القرى والمنازل والأسواق . .

وجاءت إليهم الرسل فطلبوا منهم الوفاء بما وعدوا من الاقبال على عبادة الله وحده وعدم الاشراك به ، ولكنهم أبوا إلا العناد والكفر . فمزقهم الله كل ممزق ، وشتتهم فى كل مكان .. وباعد بين أسفارهم (١٨) .

وكان عذاب هؤلاء المعرضين من قِبَل ماكانوا يعتبرونه مصدر أمنهم ورزقهم وسعادتهم .

كان من قِبَلِ السد الذى جعلوه عماد حياتهم . . والحَذِر ـ عادة ـ يؤتى من مأمنه .

لقد تهدم السد فجرف فى طريقه كل شيء واجتاح العمران وأغرق الوديان وقوض البنيان وتفرق أهل سبأ فى كل مكان ، حتى ضرب بهم المثل ـ كما قدمنا ـ فى التفرق والتبدد . .

كيف تهدم السد ؟ :

لقد أراد الله أن يهدم هذا البناء الشامخ بدابة حقيرة صغيرة لايؤبه لها اسمها الخلد والخلد ـ بضم الخاء وسكون اللام وحكى فيه فتح الخاء وكسرها : دابة صغيرة عمياء صماء لاتعرف مابين يديها إلا بالشم ، فتخرج

---

(١٨) مروج الذهب للمسعودى حـ ١ ص ٤٢٩

من جحرها وهى تعلم أنه لاسمع لها ولابصر فتفتح فاها وتقف عند جحرها فيأتى الذباب فيقع الذباب على شدقها ويمر بين لحييها فتأكله .

هذا ماقاله الجاحظ فى كتابه « الحيوان » .

وقال غيره : الخلد فأر أعمى لايدرك إلا بالشم .

ونقل الدميرى عن أرسطو قوله : كل حيوان له عينان إلا الخلد ، وإنما خلق كذلك لأنه ترابى ، جعل الله له الأرض كالماء للسمك ، وغذاؤه من بطنها ، وليس له فى ظهرها قوة ولانشاط ، ولما لم يكن له بصر عوضه الله حدة حاسة السمع ، فيدرك الوطء الخفيف من مسافة بعيدة ، فإذا أحس بذلك جعل يحفر فى الأرض . وهو يصاد بحشرة حقيرة هى القملة ، توضع له ، فيحس بها فيخرج إليها ويذهب عنه حذره ، فيأخذه الصيادون . .

وفى طبعة الهرب من الرائحة الطيبة . .

هذه الدابة التى لاتستطيع الدفع عن نفسها هى التى شتت شمل سبأ ، وخربت ديارهم ومزقتهم كل ممزق . . فسبحان الله القادر العظيم الذى أهلك أعز خلقه بأحقر خلقه .

فهل يتعظ الناس ويعرفون أن قوتهم وتدبيرهم قد يغلبهما أدنى حيوان وأحقر حشرة ؟

وكم رأينا كيف تؤرق الانسان هامة صغيرة تدخل فى طيات ثيابه فتحيل فراشه جحيما لايطاق ، وتحول بينه وبين لذة الرقاد وطيب المنام .

عمرو بن عامر يحس بالخطر

قال العلماء : وكان أهل مأرب يلجأون إلى كهان لهم يتعرفون لهم الأخبار ، ويذكرون لهم ماسوف يأتيهم من أخطار . .

وكان للملك عمرو بن عامر أحد ملوكهم أخ كاهن عقيم يقال له عمران . وكانت له أيضا كاهنة حميرية اسمها طريفة الخير . .

فتوافق عمران مع طريقة فى التنبؤ بتهدم السد . .

ذلك أن عمران رأى أن قومه سوف يمزقون كل ممزق ، ويباعد بين أسفارهم فذكر ذلك لأخيه عمرو وهو الملك المشهور بمُزَيْقِياء .

وبينما طريفة ذات يوم نائمة إذ بها ترى سحابة غشيت أرضهم فأرعدت وأبرقت ثم صعقت فأحرقت ماوقعت عليه ولم يبق شيء وقعت عليه إلا أحرقته . .

فقامت من نومها فزعة وهى تصرخ قائلة :

رأيت غيما أبرق . أرعد طويلا ثم أصعق . فما وقع على شيء إلا أحرق . فما بعد هذا إلا الغرق .

وكان الكهان يسجعون فى كلامهم ، حتى ضرب بسجعهم المثل فقيل : سجع كسجع الكهان .

وأسرعت طريفة إلى الملك تقص عليه رؤياها وتنذره بما سوف يكون ، فوجدته قد دخل إحدى حدائقه ومعه جاريتان له ، فأسرعت نحوه وخلفها تابع لها اسمه سنان . .

وكان لدى العرب علم بزجر الطير ، يتفاءلون أو يتطيرون على حسب جنسه ونوعه وهيئته . . وكانت طريفة عندما خرجت من بيتها فى طريقها إلى الملك قد صادفها ثلاث مناجد [١٩] . منتصبات على أرجلهن واضعات أيديهن على أعينهن .

---

(١٩) المناجد دواب تشبه اليربوع ، وهو حيوان طويل الرجلين ، قصير اليدين له ذنب كذنب الجرذ وتكثر هذه الدواب بأرض اليمن .

فلما رأتهن طريفة غطت وجهها بيديها وقالت لتابعها : إذا ذهبت هذه المناجد عنا فأعلمني .

فلما ذهبت أعلمها ، فانطلقت مسرعة إلى عمرو ـ وفى خليج الحديقة التى بها عمرو ، عارضتها سلحفاة قد انقلبت على ظهرها وهى تحاول الاعتدال فلا تستطيع ، فتستعين بذنبها ، وتحشو التراب على بطنها وجنبها ، وتقذف بالبول . .

فلما رأتها طريفة جلست على الأرض حتى عادت السلحفاة إلى الخليج ، ثم مضت طريفة حتى دخلت على عمرو حديقته وقد انتصف النهار واشتد الحر ، وجعل الشجر يتكفأ من غير ريح .

واقتحمت طريفة على الملك حجرته فإذا به بين جاريتيه على الفراش .

فلما رآها استحيا منها ، وأمر الجارتين فنزلتا . .

وقال لطريفة اجلسى على الفراش ، فجلست وتكهنت له قائلة :

والنور والظلماء . والأرض والسماء . إن الشجر لتالف . وسيعود الماء كما كان فى الدهر السالف .

فقال لها عمرو : من خبَّرك بهذا ؟

قالت : أخبرتنى المناجد . بسنين شدائد . يقطع فيها الولد والوالد .

قال : ماتقولين ؟

قالت : أقول قول الندمان لهفا . قد رأيت سلحفا تجرف التراب جرفا . وتقذف بالبول قذفا فدخلت الحديقة فإذا الشجر يتكفًّأ .

قال عمرو : وماترين ذلك ؟

قالت : هى داهية ركيمة . ومصائب عظيمة . لأمور جسيمة .

قال : ماهى ؟ ويلك .

قالت : أجل ، إن لى الويل ، ومالك فيها من نيل ، فلى ولك الويل ، مما يجيء به السيل .. فألقى عمرو نفسه على الفراش وقال : ماهذا ياطريفة ؟

قالت : هو خطب جليل ، وحزن طويل وخُلْف قليل ، والقليل خير من تركه .

قال : وماعلامة ذلك ؟

قالت : نذهب إلى السد فإن رأيت جرذا يكثر بيديه فى السد الحفر ، ويقلب برجليه من الجبل الصخر فاعلم أن النقر عقر ، وأنه وقع الأمر .

قال : وماهذا الأمر الذى يقع ؟

قالت : وعد من الله نزل ، وباطل بطل ، ونكال بنا نزل ، فبغيرك ياعمرو فليكن الثكل[٢٠] .

وأرق هذا الخبر من طريفة عمرا ، وأوقع به الهم ، وأثقل خاطره ..

وأراد أن يستوثق بنفسه من الخبر ، ويختبر أمر السد ، فانطلق نحوه فى توجس وحذر . وإذا به يرى ما هاله وأفزعه .

رأى فأرا يقلب برجليه صخرة مايقدر على قلبها خمسون رجلا ..

إن هذا لشيء عجيب . أحقا مايرى ؟ كيف يحدث هذا من فأر صغير

(٢٠) مروج الذهب للمسعودى جـ ١ ص ٤٢٥ .

حقير يفزع من صوت إنسان ، ويجرى مذعورا إن رأى خيال حيوان ؟ . .

كيف يقدر هذا الحيوان المذعور أن يدفع هذا الحجر الضخم فى سهولة ويسر ويقذف به فى اتجاه هذا السد ليرتطم به فى عنف وقوة ؟ .

إن هذه آية لاشك فيها ، وإنذار لهؤلاء القوم بأن هناك دمارا سوف يحيق بهم عما قريب .

وارتاع عمرو لما رأى ، ولم يجد له ملاذا إلا تلك الكاهنة التى أخبرته به ، فانطلق إليها يقول :

أبصرت أمرا عادنى منه ألم وهاج لى من هوله برح السقم

من جرذ كفحل خنزير الأجم أوتيس موم من أفاريق الغنم

يسحب صخرا من جلاميد العرم له مخاليب وأنياب قضم[٢١]

فأخبرته طريفة بأن تهدم السد واقع لامحالة ، وجعلت له علامة يعرف بها ذلك . قالت له : اجلس مجلسك بين جنتيك ، وضع زجاجة بين يديك ، فإنك ترى أنها ستمتلىء من تراب البطحاء من سهلة الوادى ورمله ، دون أن تكون هناك ريح تثير الرمال والتراب .

وفعل عمرو ما أشارت به الكاهنة ، فرأى بنفسه حقيقة ما أخبرت به . .

فتأكد لديه خراب السد ، واحتال فى نجاته ونجاة أهله .

عمرو بن عامر يحتال للنجاة :

وأصبح عمرو ذات يوم مذعورا وقد رأى رؤيا ، رأى أن سيلا سيجتاح السد ويهدمه وان علامة ذلك أن يرى الحصباء فى سعف النخل . .

---

(٢١) المرجع السابق وموم : مفازة ـ وجلاميد : جمع جلمود وهو الصخرة العظيمة ـ والعرم : اسم السد

وأراد أن يقطع الشك باليقين فتوجه الى كُربَ النخل وسعفه فوجد الحصباء قد ظهرت فيها .

فعلم عمرو أن الخراب وشيك ، وأن السيل عما قليل سوف يجرف الديار ، وأن ذلك السد الذى كان عماد البلاد هو الذى سوف يكون سبب دمارها وفنائها .

وعزم على النجاة بنفسه وولده .. وخشى إن فاجأ الناس بذلك أن يستنكروا عمله ، أو يحولوا بينه وبين الخروج فيهلك مع الهالكين .. ووجد أن الحكمة تكون فى الاحتيال لذلك .

أعلن أنه سوف يقيم وليمة للناس ، وأمر بالإبل فنحرت ، وبعث للناس أن يحضروا ، فجاءوا من كل مكان ملبين دعوة ملكهم عمرو بن عامر .

وكان عمرو قد اتفق مع ابن له اسمه مالك ـ وقيل : بل هو يتيم عنده قد رباه حتى كأنه ابنه ـ على أنه إذا جلس الناس للطعام نازع أباه الحديث ، ورد عليه مايقول ، ويفعل به مثلما يفعله به .

وحين أخذ الناس مجالسهم ، ومد الطعام أمامهم أقبل عمرو على ولده يحدثه بخشونة ، فرد الولد على أبيه بخشونة كذلك .

فمد عمرو يده ولطم ابنه ، فاذا بالابن يلطم أباه ..

فصاح عمرو قائلا : واذلاه ، يوم فخر عمرو ومجده يضرب فيه وجهه من صبى ؟
وحلف ليقتلنه ..

فلم يزالوا به حتى تركه . ولكن عمرا أقسم ألا يقيم ببلد لطم وجهه فيه أصغر ولده ، ونادى بأنه سيبيع أملاكه ..

فقال الناس بعضهم لبعض : اغتنموا غضبة عمرو واشتروا منه قبل أن يرجع عن غضبته ويرضى عن ابنه .

فأقبلوا على أمواله يشترونها ، حتى باع أملاكه بمأرب ..

وخرج ناجيا بنفسه ..

إلا أن هذا الحديث فشا ، وعرف الناس حقيقة الأمر ، ويقال : إن عمرا أخبر بعض الناس بما سوف يحدث للسد كى يستعدوا كما استعد ..

وفزع الناس إلى عمران الكاهن أخى عمرو فقال لهم :

إنكم ستمزقون كل ممزق ويباعد بين أسفاركم ، وإنى واصف لكم البلدان فليختر كل منكم مايرتاح له ..

من كان منكم ذا هَمٍّ بعيد . وجمل شديد . ومزاد جديد . فليلحق بقصر عمان المشيد . فكان الذين نزلوا فى هذا المكان هم أزد عمان ..

ومن كان منكم ذاهَمٍّ غير بعيد . وجمل غير شديد .. ومزاد غير جديد فليلحق بالشعب من كرود . وهى أرض همدان .

فلحق بهذا المكان وادعة بن عمرو فاقتسموا فيه ..

قال عمران : ومن منكم ذا حاجة ووطر . وسياسة ونظر . وصبر على أزمات الدهر . فليلحق ببطن مر .

فانطلق إلى هذا المكان خزاعة ـ قيل : سميت بذلك لانخزاعها فى ذلك الموضع عمن كان معها من القوم وهم بنو عمرو بن لحى .

قال : ومن كان يريد الراسيات فى الوحل . المطعمات فى المحل ، فليلحق بيثرب ذات النخل وهى المدينة المنورة .

فذهب إليها الأوس والخزرج أبناء حارثة بن ثعلبة بن عمرو .

قال : ومن كان يريد منكم الخمر والخمير ، والديباج والحرير . . والأمر والتدبير فليلحق ببصرى وحفير وهى أرض الشام ، فانطلق اليها الغسانيون .

قال : ومن كان منكم يريد الثياب الرقاق . والخيول العتاق ، والكنوز والأرزاق . فليلحق بالعراق فالتحق بها مالك بهم فهم الأزدى .

وانطلق عمرو بن عامر ومعه بنو مازن حتى مروا بمكان بين السراة ومكة ، فنزل فيه أخوه عمران الكاهن ، واستمر عمرو فى المسير حتى نزل بين بلاد الأشعريين وعك . . على ماء يقال له : ماء غسان .

وغلب اسم الماء على من أقام من الناس فهم الذين يقال لهم : الغسانيون ، والشاعر يقول فى ذلك :

أما سألت فإنا معشر نجب ... الأزد نسبتنا والماء غسان

لقد ترك أهل سبأ مأرب ، خوفا من تصدع السد ، وفروا من السيل الذى سوف يجتاح الوادى .

ولم يبق بمأرب إلا مالك بن اليمان بن فهم وهو من الأزد ، فقد أبى الخروج وظل بالبلاد وتملكها حتى أغرق السيل البلاد . .

كيف أفسدت الفيران السد ؟ :

وقد أخبر العلماء أن الكهنة كانوا قد أخبروا بأن انهيار السد سيكون بسبب الفيران . لذلك أكثر أهل سبأ من تربية القطط ، ولم يتركوا فرجة بين حجرين إلا ربطوا عندها هرة .

فلما كان الوقت الذى أراد الله تعالى فيه إخراب السد ، أقبلت فأرة حمراء إلى هرة من تلك الهرار فساورتها حتى استأخرت عنها الهرة ، فدخلت الفأرة الفرجة التى كانت عندها ، ونقبت وحفرت ، حتى جاء السيل فوجد خللا دخل فيه حتى انهار السد ، وفاض على زروعهم فأغرقها ودفن بيوتهم بالرمال .

ومن الطرائف التى يرويها العلماء فى ذلك : أن هناك مفاخرة جرت بين أولاد قحطان وبين ولد نزار فى مجلس أبى العباس .

وكان أولاد نزار قد سكتوا على فخر أولاد قحطان هيبة لأبى العباس لأن أخواله من قحطان ، فلم يشاءوا أن يحرجوه .

فلما أكثر القحطانيون من الفخر قال السفاح لخالد بن صفوان وهو نزارى : ألا تنطق ياخالد وقد غمرتكم قحطان بشرفها وعلت عليكم بقديم مناقبها ؟

فقال خالد كلاما جاء فيه : ماذا اقول لقوم أغرقتهم فأرة ، وملكتهم امرأة ، ودل عليهم هدهد ؟

ومن الممكن أن يرد على هذا القول بأن الفأرة من آيات الله التى أراد الله أن يهلك بواسطتها قوما كفروا به . .

وأما المرأة فقد كانت غاية فى الحكمة ، وحسن السياسة والتدبير ، وقد فعلت مالم يقدر عليه كثير من الرجال ، وهدتها حكمتها إلى الاسلام فأنقذهم الله بذلك من الكفر .

وأما الهدهد فإنه لم يدل عليهم إلا ليؤمنوا بالله فكان ذلك نعمة وبركة عليهم .

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فقد جرت محاورة بين قرشي ويمني ذات يوم . قال القرشي لليمني ما أحمق قومك حين ولوا عليهم امرأة .

فقال اليمني : بل ما أحمق قومك حين قالوا ـ كما حكى عنهم القرآن الكريم ـ

﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ (٢٢)

هلا قالوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا اليه ؟

معنى كلمة العرم :

وقد فسر العلماء العرم بتفسيرات .

قالوا : العرم : الأحباس تبنى فى أوساط الأودية . .

وقالوا : العرم : السيل الذى لايطاق أو المطر الشديد .

وقالوا : العرم : هو الجرذ الذكر .

وقالوا : العرم : هو المسناة وهى السد أو الجسر .

وقالوا : العرم : اسم واد من وديانهم . .

والذى يدل على أن العرم اسم للسد قول الشاعر :

من سبأ الحاضرين مأرب اذ   يبنون من دون سيله العرما

وقد فسر بعضهم مأرب فى هذا البيت بأنه اسم لقصر ملكهم ، أشار الى ذلك أبوالطمحان القينى فى قصيدة له منها هذه الأبيات :

ألم تروا مأربا ماكان أحصنه   وماحواليه من سور وبنيان ؟

---

(٢٢) الأنفال ٣٢

ظل العبادى يسقى فوق قلته ... ولم يهب ريب دهر جد خوان
حتى تناوله من بعد ماهجعوا ... يرقى إليه على أسباب كتان

قال ابن كثير : وقد ذكر الأعشى أمر السد فى قصيدة له قال فيها :

وفى ذاك للمؤتسى أسوة ... ومأرب عفى عليها العرم
رخام بنته لهم حمير ... إذا جاء موّاره لم يرم
فأروى الزروع وأعنابها ... على سعة ماؤهم اذ قسم
فصاروا أيادى ما يقدرون ... منه على شرب طفل فطم .

قصة السد فى القرآن الكريم

وقد قص الله هذه القصة فى القرآن الكريم ، وسمى السورة التى وردت فيها هذه القصة باسم سبأ لفتا للأنظار إلى هذه القصة لما فيها من عظات وعبر . .

قال تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ

إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ ﴾ (٢٣)

عظات وعبر

وفى هذه الآيات دلائل وإشارات يفطن إليها من فطنّه الله وذكّره ، فمن ذلك :

تنبيه الناس عامة وأهل اليمن خاصة إلى مايجب عليهم نحو استعادة أمجادهم التاريخية الغابرة ، الحافلة بالنهضة والتقدم العمرانى والعلمى فى ظل الإيمان بالله واليوم الآخر . وبقيادة الرجال المخلصين الذين يعملون لوجه الله والوطن .

لقد نبهت الآيات إلى وجود مظاهر كثيرة فى اليمن للتقدم العمرانى الذى يشهد به هذا السد الذى ابتكرته عقول يمنية مفكرة ، وبنته على قواعد متقدمة من الهندسة لاتقل شأنا عما ابتكره العلماء المحدثون فى بناء السدود والقناطر . وقامت بإنشائه أيد يمنية لم تستقدم فنيا من الخارج ، ولم تعتمد على خبير من أهل الدول الأخرى .

فما السر فى ذلك ؟

لقد قال العلماء : إن ملك سبأ كان ملكا حكيما يحب الحكمة ويجمع حوله الحكماء ويستفيد من تجاربهم وقد استشارهم فأشاروا عليه ، ونفذ ما أشاروا به ، وهكذا تكاتفت الرأس الحاكمة مع الرؤوس المفكرة مع الأيدى العاملة فى تقديم العمل المثمر للبلاد .. الذى عاد بالخير على العباد ..

---

(٢٣) سبأ ١٥ : ٢١

وهذا مايجب أن يكون فى كل زمان ومكان . .

إن كثيراً من الأمم الاسلامية الآن أمرها فى غير يدها . . وخيرها منزوع منها وخبرتها مستمدة من غيرها . . مع أن دينها فيه حسن التوجيه لأحسن مايريدون من تقدم ، وبلادهم حافلة بالخير مليئة بالكنوز التى تغنى وتقنى . وتستطيع إذا اتحدت إرادتها وصدق عزمها أن تعود إلى سابق مجدها وعزها وكرامتها . .

وفى الآيات دعوة للاستمتاع بالنعمة التى أنعم الله بها على العباد فى غير سرف أو انصراف عن الواجب مع وجوب الشكر على ما أنعم الله . .

والله ـ جلت حكمته ـ لايهب النعم عبثا ، ولايعطيها لعباده ليطووا عنها كشحا أو يصرفوا عنها نظرا ، ولكنه وهبهم إياها ليمتحن إيمانهم فى حال التنعم بها ، ويعرف أيقدرون الله حق قدره على ما أفاء عليهم من فضله ، وأتاح لهم من هذه النعم تفضلا منه فيشكروه على ماأفاءه عليهم وأتاحه لهم ؟

أم انهم سوف يميلون أعناقهم ، وينأون بجانبهم كبرا واعجابا ، ويقولون مع القائلين : إنما أوتينا هذا على علم منا ، واستوجبناه بفضل واستحقاق لنا ؟

وقد تمثلت النعم التى أنعم الله بها على قوم سبأ فى مظاهر الطبيعة الجميلة التى سخت بكل طيب من الثمرات الشهية والقطوف الدانية والظلال الوارفة والبيئة الخالية من الأمراض والأوبئة ، فقد حدث الرواة أن أهل سبأ لم يروا فى مساكنهم بعوضة قط ولاذبابا ولابرغوثا ولاقملة ولاعقربا ولاحية

ولاغيرها من الهوام ، بل إن الراكب إذا جاءهم وفى ثيابه شيء من ذلك مات قبل أن يدخل الديار . .

كما تمثلت فى غفران الله لذنوبهم . . فقد اجتمع لهم إلى طيب البلاد حسن المعاد ، ولم تجتمع هاتان النعمتان لجميع الناس ولكنها مزية لهؤلاء الذين كان ينتظر منهم حسن الشكر لله والثناء عليه ، والتفانى فى عبادته والاخلاص فى محبته .

ولكنهم أشركوا به ، وخرجوا على كل القيم والمبادىء التى توارثوها عن آبائهم الأقدمين وجاءتهم بها الرسل المكرمون . .

* تدعو الآيات إلى عدم الاغترار بالنعمة الفائضة والخير المتدفق والرزق الوفير ، فإن ذلك اختبار من الله مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (٢٤)

وعليه جاء قول الشاعر :

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلى الله بعض القوم بالنعم

وقد يجد العاقل فى الشدة منحة لأنها تلجئه إلى الله وتذكره به وتضطره إلى دعائه والتضرع اليه حتى يكشفها عنه

وقد قال تعالى :

﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ (٢٥)

---

(٢٤) الأنبياء ٣٥

(٢٥) الأنعام ٤٣

وقال :

﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾﴾ (٢٦)

كما قد يجد فى النعمة محنة ، فقد يترتب عليها انصراف عن الله ونسيان لحقه ، وتراخ فى عبادته ، والترف ـ فى كثير من الأحوال ـ يدعو إلى ذلك مصداقا لقوله تعالى :

﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ (٢٧)

والمترفون غالبا مايدعون إلى الفساد ويصرفون الناس إلى الباطل ، قال تعالى :

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ (٢٨)

وقال ـ تعالى :

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ (٢٩)

---

(٢٦) الفرقان ٧٧
(٢٧) الشورى ٢٧
(٢٨) الاسراء ١٦
(٢٩) سبأ ٣٤ : ٣٥

وقد يجحد المترف حق ربه تماما فيزعم أن ماأوتيه لم يكن إلا بناء على جهد شخصى أو مقدرة خاصة أو استحقاق ومنزلة لم تتح لغيره ، وقد قال قارون حين طلب منه قومه عدم الاغترار بماله : إنما اوتيته على علم عندى .. فكانت عاقبته شبيهة بعاقبة هؤلاء الذين جحدوا نعمة الله ، وانصرفوا عن أداء حقه وشكره ، فخسف به وبداره الأرض ، كما هدم السد على هؤلاء فاجتاحهم السيل .

وفى الآيات الكريمة إشارة إلى قسوة الحرمان ، وضراوة العقوبة التى استبدل فيها لهؤلاء المر بالحلو والفقر بالغنى والتعب بالراحة ..
ومناأقسى هذا العقاب وأشد هذا العذاب ..

فالمتعود على النعمة المتقلب فيها صباح مساء الذى يجد الخير عن يمينه ويساره ، والظل فى مقيله ومثواه ، أينما سرح طرفه يجد الحياة الناعمة والرزق الموفور والمنظر الجميل ، وأينما مد يده يقطب زهرة يانعة أو ثمرة شهية أو ريحانة زكية ، ولايشم أنفه إلا الرائحة الطيبة التى تهب بها النسائم السخية من كل الأنحاء والاتجاهات ، ذلك الانسان لايجد اقسى من أن يصبح ذات يوم فإذا به لايجد مأوى يأويه ولاظلا يحميه ، ولاطعاما يقوته ، ولانسمة تهب عليه ..

وهذا ماحدث لأهل سبأ فقد أصبحوا لايرون أمامهم إلا بضعة أشجار متناثرة ليس فيها ماينتفع به من ثمر اللهم إلا ثمر النبق الصغير الذى لايسمن ولايغنى من جوع .. لقد ذهبت الأشجار الباسقة المظلة واستبدل بها شجر الاثل وهو من الأشجار المفرطة فى الطول مع قصر ظلها الذى لايحمى من يقيل فيه من حرارة الشمس أو قسوة الجو .

وإذا بهم يلتفتون فلا يجدون تلك القرى الظاهرة التى كانت تملأ الوديان فقد استبدل بها قرى متناثرة تحتاج للتنقل بينها إلى مشقة كبيرة وتعب شديد . .

لقد كانوا يقطعُون المسافة بين اليمن والشام فى طرق معمورة ظليلة تصل بين قرى عامرة ، وتربض حول الطرق استراحات يجد فيها المسافر حاجته ويتزود منها بما يريد من مأكل ومشرب . فإذا بهذه الطرق وقد تبددت ، وتلك القرى وقد اجتاحها السيل ، وهذه الاستراحات وقد ذهبت .

لقد سئموا النعمة فطلبوا من الله أن يباعد بين أسفارهم . فابتلوا بالشتات والمشقة . . وإنك لتنظر فى بعض أماكن اليمن إلى قريتين فوق جبلين تحسبهما قريتين ، يتخاطب أهلهما باللسان ويتنادون فيجيب بعضهم بعضا ، ويحدث بعضهم بعضا ، فإذا ما أراد أهل القريتين التزاور قطعوا فى الوصول إلى بعضهم مسافات شاسعة قد تصل إلى أكثر من يوم . .

ذلك أن القاصد للزيارة عليه أن يهبط الجبل الذى توجد فوقه قريته ، ثم يدور حول الجبل الذى نزل منه وسط طرق متعرجة شاقة حتى يصل إلى سفح الجبل الذى توجد فوقه القرية الأخرى فيبدأ فى الصعود فى شعاب لايستطيع أن يسلكها إلا الخبير بدروبها ، العارف باتجاهاتها وكيفية الصعود فيها . . وإن ذلك ليعلمنا كيف نتأدب مع الله فيما نطلب ، فلا ندعوه إلا بما هو أرفق بحالنا وأنسب مع ضعفنا مع التفويض إليه فى اختيار ماهو أوفق لنا وأنفع لعاجلنا وآجلنا . وقد نعى الله على بنى إسرائيل أن طلبوا الأدنى وفضلوه على الأعلى حين خرج بهم موسى إلى سيناء وأعطاهم الله نعمتى المن

والسلوى فتاقت أنفسهم إلى الثوم والبصل والعدس والبقل فحكى حالهم قائلا :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (٣٠)

كما نعى على كفار قريش حين طلبوا العذاب لأنفسهم قائلين :

﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ (٣١)

وكان عقاب من طلب ذلك أن قتل يوم بدر شر قتلة وهو النضر بن الحارث ، كما كان عقاب بنى اسرائيل أن ضلوا فى التيه أربعين سنة ، وكان عقاب أهل سبأ أن تبددوا ومزقوا كل ممزق ، وأصبح أمرهم أحاديث يرويها الناس تعجبا من شأنهم وسخرية من حمقهم .. وأصبح تفرقهم مضرب الأمثال فيقال فى كل قوم تفرقوا بعد تجمع : تفرقوا أيدى سبأ أو أيادى سبأ .

---

(٣٠) البقرة ٦١
(٣١) الأنفال ٣٢

وكما دعت الآيات إلى الشكر فقد دعت إلى الصبر كذلك . . قال الله تعالى : إن فى ذلك الآيات لكل صبار شكور . .

وكما يكون الصبر على الشدة يكون كذلك الصبر على النعمة . ومعنى الصبر على النعمة : استمرار استعمالها فى الخير وعدم عصيان الله بها ، وهو عين الشكر عليها ، وفى الأدعية المأثورة عن الصالحين اللهم صبرنا على طاعتك وعلى ابتلائك وأوزعنا شكر نعمتك .

وفى الآيات تحذير ضمنى من الشيطان ، وتذكير بعداوته للإنسان منذ الأزل فهو لايحب السعادة وراحة البال للإنسان ، ومارأى قوما فى راحة ونعمة إلا تمنى أن يبدل حياتهم شقاء ولذتهم غصة وطاعتهم معصية ، وقد نجح مع هؤلاء فأضلهم عن سواء السبيل إلا من عصم الله منهم .

وهذا ماتشير اليه الآية :

﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين ﴾ .

أما ظن إبليس فهو ماحدث به نفسه حين وسوس لآدم فى الجنة فأخرجه وحواء منها فقال : أما إذا أصبت من الأبوين ما أصبت فالذرية أمامى أضعف وأهون .

وقد توعد ذرية آدم بإغوائهم حتى قال لمولاه :

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ (٣٢)

فهاهو ذا قد ألهى هؤلاء عن واجب الشكر ، وحقق وعيده فيهم .

ولم يكن لابليس عليهم سلطان ، ولكنه دعاهم فاستجابوا وأمرهم فأطاعوا ، وكان شأنه معهم ماحكاه القرآن

---

(٣٢) الأعراف ١٧

وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٢﴾ (٣٣)

قال الحسن البصرى فى ذلك ـ فيما يرويه الطبرى ـ وينقله عنه ابن كثير :

« والله ماضربهم بعصا ولاأكرههم على شيء ، وماكان إلا غرورا وأمانى دعاهم إليها فأجابوه » (٣٤) .

وفى الآيات مع ذلك حمد لنعمة التجمع وائتلاف واتحاد الكلمة والهدف والتعاون البناء فى مصلحة الفرد والجماعة واصلاح شأن الأمة وتعميرها والعمل على اصلاح مرافقها وتعهدها بالموالاة فى ظل الايمان الكامل بالله وطلب نصرته فعينه التى لاتنام هى الحارس الأعظم للأمة المؤمنة الواثقة بربها المتوكلة عليه لاعلى حولها وقوتها فحسب . .

---

(٣٣) ابراهيم ٢٢

(٣٤) تفسير الطبرى حـ٢٢ ص ٦١ وتفسير ابن كثير حـ ٦ ص ٥٠١

وفى الآيات أيضا ذم للفرقة والاختلاف وتحذير منها فما أخر الأمم بعد تقدمها إلا التخاذل ، وماأضعفها إلا التواكل ، وما أضاعها إلا تفرق الكلمة وشتات الرأى . .

ومن العظات التى تهدى إليها القصة عدم الاستهانة بمخلوق . فالصغير قد يفعل مالا يفعله الكبير والحقير الذى لايؤبه له ربما أتى منه عمل خطير لا يستطيع أن يقاومه أحد . .

والمثل لذلك هذا السد الذى بنته الجبابرة بعقولها وحكمتها وأيديها لقد استطاع فأر صغير الحجم قليل الخطر أن يهدمه ، فأتى على القوم وهم لا يشعرون وأهلك أموالهم وزروعهم وقصورهم وشتت شملهم وأضاع أملهم وفى حياتنا أمثلة كثيرة لذلك . . فذلك العامل المجهول الذى يقوم بأدنى الأعمال التى يأنف منها الكبار له شأن فى حياتنا لايمكن غض العين عنه ، ويمكن التنبه لخطره يوم يقبض يده عن العمل الذى يقوم به ، فلو أضرب عمال النظافة يوما عن العمل لأصبحت الحياة جحيما لايطاق ، فهل تنبه أحد الى قيمة ذلك الإنسان الذى رضى بالدون من الأعمال وهو مع ذلك يرفع عن كاهلنا أثقل الأحمال ؟ ان فى ذلك لعبرة لمن يعتبر وتذكرة لمن يزدجر .

أصحاب الفيل

- الأحباش فى اليمن .
- أبرهة يبنى القليس .
- دعوته إلى حج كنيسته .
- استعداده لغزو مكة وهدم البيت .
- العرب يتصدون له .
- وصوله إلى الطائف .
- بداية النقمة بموت أبى رغال
- عبد المطلب فى معسكر أبرهة .
- عبد المطلب يستغيث بالله ويستصرخه .
- العقاب الإلهى .
- القصة فى القرآن الكريم .
- خواطر الشيخ الشعراوى حول القصة .
- الشعر العربى يسجل الحادث .
- نهاية الحبش فى اليمن .
- الإسلام يحرر اليمن من التبعية للفرس .
- العبرة من قصة الفيل .



أصحاب الفيل

سبق فى حديثنا عن الكعبة المشرفة أن أشرنا إلى قصة الفيل ، وعدوان الأحباش على مكة المكرمة ، ولكن المقام هنا يستدعى مزيداً من التفصيل حول هذه القصة التى ذكرها الله فى القرآن الكريم فى سورة خاصة هى سورة « الفيل » لتكون علامة بارزة على اعجاز القرآن الكريم من ناحية ، وعلى تعهد الله بيته الحرام بالحفظ والرعاية من ناحية ثانية ، وعلى تكريم النبى - صلى الله عليه وسلم - الذى كان مولده فى هذا العام الذى أهلك الله فيه المعتدين على حرمة بيته بآية خارقة من ناحية ثالثة . .

ويستدعى ذلك تمهيداً عن تاريخ وجود الأحباش فى اليمن .

الأحباش فى اليمن :

بعد أن حفر ذو نواس الأخدود وألقى فيه الذين تنكروا للديانة التى كان يدين بها واعتنقوا النصرانية التى غزت نجران ، انطلق رجل يقال له « دوس ذو ثعلبان » حتى دخل على قيصر الروم فاستنجد به على ذى نواس ، فكتب قيصر إلى النجاشى ملك الحبشة آمراً له أن يغزو اليمن فينتقم من ذى نواس ويقتل الرجال ويسبى النساء ويخرب البلاد .

وجهز النجاشى جيشاً جعل على رأسه أرباط بن أصحمة ومعه مساعد له اسمه أبرهة الأشرم .

وتمكن الأحباش من الهبوط على ساحل اليمن ، وحين سمع ذو نواس بخبرهم خرج اليهم ومعه الجنود الذين استنفرهم لرد العدوان الحبشى ، ولكن الأحباش تمكنوا من هزيمتهم ، فركب ذو نواس فرسه ووجهه نحو البحر فاقتحمه وغرق ، وتولى أمر الملك بعده ذو جدن واسمه « علس بن الحارث » .

ويقال : إنه ظل يجاهد الأحباش حتى هلك أيضاً بالطريقة التى هلك بها

ذو نواس واستتب الأمر للحبشة فى اليمن واستبدوا ، وأقبلوا على جباية المال منها ، وكان الذى يتولى أمر ذلك أرباط دون مساعدة أبرهة .

النزاع بين أرباط وأبرهة :

وأقام أرياط بأرض اليمن سنين يجبى المال ويستمتع به ، وقد غاظ ذلك أبرهة فحقد عليه ، وأرسل إلى النجاشى يوغر صدره على أرياط .. وقد استمال كل من القائدين بعض الجنود اليه حتى تفرق أمر الحبشة فى اليمن بين الولاء لأرياط والولاء لأبرهة .

وكثر النزاع بين أنصار أرياط وأنصار أبرهة .. وفعلت الأطماع فعلها بين الطائفتين وبين الرجلين ، كما يحدث دائماً فى مثل هذه الظروف والمناسبات .. وتطور الأمر بينهما حتى أطل الشر بينهما بقرنيه ..

ومشى كل من الرجلين الى الآخر ووراءه أنصاره .

وأوشكت الحرب أن تحتدم بين الفريقين ، فأرسل أبرهة إلى أرباط يقول له :

إن فعلنا هذا لا يزيد على أننا نفنى بعضنا ببعض ، وخير من هذا أن تبرز إلىّ وأبرز إليك ، فإما أن تقتلنى فيكون الأمر لك ، وأما أن أقتلك فيكون الأمر لى .

فأرسل إليه أرياط أنْ أنصفت ..

وخرج كل منهما لصاحبه ..

وكان أرباط جسيما وسيما ، أقبل يمشى فى ثقة إلى أبرهة ، وفى يده حربة ..

وأقبل أبرهة وخلفه غلام له اسمه عتودة يحمى ظهره ..

ورفع أرباط حربته فضرب بها أبرهة فوقعت على جبهته فشرمت حاجبه ، وأنفه وعينه وشفته ، فلقب من حين ذلك بالأشرم .

وحمل عتودة غلام أبرهة على أرباط فقتله .. وحسم الموقف لصالح ابرهة ..

وانحاز أنصار أرباط لأبرهة .. واجتمع الأمر كله له ..

مكافأة عتودة

وأراد أبرهة أن يكافىء غلامه ، فقال له : تمن عليّ ـ فما تمنيته فهو لك .

فقال هذا الغلام الخبيث : أتمنى ألا تزف امرأة إلى بعلها حتى تمر على ..

فأمضى أبرهة له شرطه ..

ولكن اليمنيين ثاروا على عتودة فاغتالوه .. وتخلصوا من شره .. ولم يغضب أبرهة لغلامه ، بل لعله سعد لذلك ، تحسبا للمستقبل ، ولذلك لم يقبل ديته وتنازل عنها راضيا .

ونما خبر مقتل أرباط إلى النجاشي فغضب على أبرهة وأقسم أن يطأ عليه اليمن ويجز ناصيته ويريق دمه .

فأسرع أبرهة ـ وكان داهية ـ إلى جراب فملأه من تراب اليمن ، وجز ناصيته بيده وجعل من دمه فى قارورة واختار رسولا لبقا ، وكتب معه إلى النجاشي :

أيها الملك إنما كان أرباط عبدك وأنا عبدك ، فاختلفنا فى أمرك ، وكلٌّ طاعته لك ، إلا أنى كنت أقوى على أمر الحبشة وأضبط لها وأفضل سياسة منه ، وقد حلقت رأسي كله حين بلغنى قسم الملك ، وبعثت اليه بدمى فى قارورة فليهرقه بيده ، وبعثت إليه بجراب من تراب أرض ليضعه تحت قدميه فيبر قسمه.

فلما انتهى ذلك إلى النجاشي أعجب بفطنته ، ورضى عنه ، وقال : اثبت بأرض اليمن حتى يأتيك أمرى ، فأقام أبرهة باليمن .

أبرهة يبنى كنيسة القليس :

ورأى أبرهة أهل اليمن يذهبون كل عام إلى مكة فى أشهر الحاج ، فسأل عن ذلك ، فأعلموه أن بمكة بيتا لله يعظمه العرب واليه يحجون من كل مكان فى مثل هذا الوقت من العام .

فأراد أن يصرفهم عن ذلك ، ولعله أراد أن يسر بذلك النجاشى ، ويعْلِمَهُ شدة إخلاصه لدينه فيزداد تقربا منه ورضا عنه .

فبنى بصنعاء كنيسة عالية سماها « القليس »[1] لعلوها وارتفاعها .

وتفنن فى صنعها وتزيينها .. وكان قد استذل أهل اليمن فى بنائها ، وسخرهم فى تشييدها كان ينقل إليها الرخام المجذع والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس ، وكان هذا القصر قريبا من موضع هذه الكنيسة على بعد فراسخ قليلة منها .

ونصب فى الكنيسة صلبانا من الذهب والفضة ، وجعل فيها منابر من العاج والأبنوس ، وبالغ فى ارتفاعها ـ كما يقولون ـ ليشرف من فوقها على عدن ..

وكان من أنواع السخرة التى استعملها مع العاملين فيها أن تقطع يد العامل إذا بدأ فى عمله بعد طلوع الشمس ، حتى ضج الناس بالشكوى .

وحكى السهيلى فى الروض الأنف[2] أن عاملاً نام حتى طلعت الشمس ، فجاء وجاءت أمه معه وهى عجوز ، فتضرعت إلى أبرهة لتتشفع لابنها حتى لا يقطع يده ، فأبى عليها ذلك .

فقالت له : اضرب بمعولك اليوم ، فاليوم لك ، وغدا لغيرك .

فتنبه لها أبرهة : فقال لها : ويحك ماذا قلت ؟

---

(١) وما سميت القلنسوة بهذا الأسم إلا لارتفاعها على الرأس ، تقول : تقلس وتقلنس ، وجمع قلنسوة قلانس وقلاس وقلانيس ـ مختار الصحاح .

(٢) جـ ٢ صـ ٦٣

فقالت : نعم كما صار هذا الملك من غيرك لك ، فكذلك يصير منك إلى غيرك .

فأثرت فيه موعظتها ، وأعفى الناس من السخرة .

ولكن بعد أن كاد العمل ينتهى فى الكنيسة .

أبرهة يدعو الناس إلى حج القليس :

وبعد أن تم تشييد الكنيسة وتزينت بأبهى ما تكون من الزينة ، أمر أبرهة أن ينادي فى الناس بأن يحجوا إليها وأن يتركوا التوجه إلى مكة . .

وغاظ ذلك العرب ، وبخاصة من كانوا يقومون على أمر الكعبة ومنهم بنو كنانة الذين كانوا ينسأون للناس . .

ومعنى ينسأون أى يؤخرون الأشهر الحرام عن موضعها .

فجاء رجل من كنانة حتى أتى القليس فلطخها ببعض القاذورات وقيل : مرقوم بجوارها فاستراحوا ، وأشعلوا ناراً لبعض حاجتهم ، وانصرفوا بعد أن غفلوا عن إطفاء النار فجاءت ريح فأججتها فأحرقت الكنيسة .

فلما بلغ أبرهة ذلك ، قال : من فعل هذا ؟

فقالوا : صنع ذلك رجل من أهل هذا البيت الذى تحج إليه العرب بمكة ، حين سمع بأنك ستصرف إلى هذه الكنيسة حج العرب وتمنع الناس من الحج إلى الكعبة .

فاستشاط أبرهة غضباً وحلف ليهدمن الكعبة . .

أبرهة يستعد لغزو الكعبة :

واستنفر أبرهة الأحباش وخرج بهم إلى مكة ومعه الفيلة التى قدم بها من الحبشة ، وكان منظر الفيلة مخيفاً لم يألفه العرب ، ولم يتعودوا على مواجهتها فى ميدان الحرب . .

وتسامع العرب بعزم أبرهة فثارت حميتهم ، إذ كيف يتركون هذا الغازى

الغريب يخرب بيت الله الحرام ؟

وكان أول من تصدى لمقاومة أبرهة رجل من أشراف اليمن وأولاد ملوكهم يقال له : ذو نفر ، دعا قومه وغيرهم من سائر العرب واستنفرهم ضد هذا العدو الغاشم حتى يصدوه ، عن غايته التى أراد أن يحطم فيها البيت الحرام .

وقد أجابه إلى ذلك قوم فتعرضوا لأبرهة وجنده ، وقد كان فى الإمكان أن يصدوا هذا الخبيث عن غايته ، لولا أن الله قد ادخر هزيمته لتكون آية بارزة على مر الزمن .

فكانت الفيلة سبباً فى تشتيت الجند الذى جمعه ذو نفر . فقد نفرت الخيول منها ، وفرت من أمامها وفوقها فرسانها .

واستطاع أبرهة أن يأسر ذا نفر وهم بقتله ، ولكن « ذا نفر » قال له : أيها الملك لا تقتلنى فقد يكون بقائى خيراً لك من قتلى .

وكان أبرهة مع شره وخبثه حكيماً داهية ، فأبقاه مقيداً ، وحمله معه فى طريقه إلى مكة . .

وسار أبرهة فى طريقه وقد أعجبته نفسه ، فقد قضى على أول مقاومة تصدت له فى الطريق إلى غايته وتصور أن الطريق كله أصبح ممهداً أمامه بل ومفروشاً بالورود أيضاً .

لقد دخل فى وهمه أن فرسان العرب وراجليهم لن يقدروا على الثبات أمام هذه الفيلة الرهيبة .

إنها سلاح لا يقهر . . لم يجربه العرب قبل ذلك ، ولا قبل لهم بمقاومته ولا يمكنهم الثبات أمامه واستمر فى سيره لايلوى على شىء . .

وفوجىء فى أرض خثعم بمقاومة أخرى لم تخطر له على بال .

فقد تعرض له نفيل بن حبيب الخثعمى فى جمع من قبيلتى ـ شهران

وناهس ـ وقد تبعتهما بعض قبائل العرب التى ثارت حميتها لدينها وكرامة بيتها .

وكما حدث فى المقاومة الأولى حيث نفرت الخيول أمام الفيلة ، حدث فى هذه المقاومة الثانية .

واضطربت خيول هذه القبائل أمام أفيال الحبشة ، وارتبكت صفوف المقاومين والفرسان فانهزموا . .

ووقع نفيل بن حبيب أسيراً فى قبضة أبرهة . . وهم بقتله ، ولكنه استبقاه كما استبقى قبله ذا نفر ، وحمله معه ليكون دليلاً له إلى مكة .

وانطلق أبرهة وقد انتفخت أوداجه كبراً ، وامتلأ زهواً وعجباً . .

وكيف لا ؟ وقد قضى على مقاومة أخرى اعترضت طريقه ، وحاولت صده عن غايته التى أقسم ألا يعود دون تحقيقها ، وهى مقاومة لاشك أشد من الأولى . .

ولعل أمر العرب قد هان عليه ، وصغروا فى نظره ، وبخاصة بعد أن قال له كل من الزعيمين « ذى نفر » و« نفيل » استبقنى لعلى أنفعك . .

لقد وقع فى وهمه أنه من الممكن شراء هؤلاء بالمال والوعود إن لم يمكن القضاء عليهم بقوة الجنود .

ومما قوى هذا الوهم فى نفسه أنه حين وصل إلى الطائف خرج إليه مسعود بن معتب بن مالك الثقفى فى وقد من ثقيف ، وكان لثقيف صنم اسمه « اللات » يعظمونه ويعبدونه ، وكان له بيت يطوفون حوله ويقيمون له عيداً ، فخشوا أن يحطم بيت إلهم ، فأقبلوا إليه يقولون : أيها الملك إنما نحن عبيدك ، سامعون لك مطيعون ، ليس عندنا لك خلاف ، وليس بيتنا هذا الذى تريد ، إنما تريد البيت الذى بمكة ونحن نبعث معك من يدلك عليه .

فلماذا لا يهون أمر العرب فى نظر أبرهة بعد ذلك ؟

ولماذا لا تمتلىء نفسه زهواً بعد ما سمع من عروض هؤلاء الزعماء ؟

وكيف يكون لأى منهم احترام فى نفسه وقد رأى حرصهم على البقاء ورغبتهم فى النجاة ؟

إن قيمة المقاتل فى حرصه على الموت ، وعظمته فى رغبته عن الحياة فإذا ما فضل الحياة على الموت فقد هان فى نظر خصمه ، وهوى ميزانه الى الحضيض .

وأصبح أبرهة ـ بعد ذلك ـ لا يرى إلا نفسه ، وظن أن أمر البيت الذى يقصده قد أصبح فى يده فماهى إلا أيام حتى يصبح بيت العرب فى ذمة التاريخ . .

ولعل خاطرا خطر فى نفسه . . لماذا لا يبسط سلطانه على كل هذه البقاع ؟

ألم يتمكن من القضاء على كل مقاومة اعترضته ؟ ألم يعتقل كل زعيم تصدى لقتاله ؟ فماذا بقى لبسط نفوذه ؟ لاشىء . .

ربما تكون هذه الخواطر قد راودته . . وربما راودته خواطر أخرى أكبر من ذلك طوتها يد القدر حين طوحت به وقضت عليه . .

وأرسلت ثقيف مع أبرهة ـ كما وعدته ـ شخصا يطلقون عليه أبا رغال .

وابتسم أبرهة فى داخله ابتسامة ساخرة . .

ماذا بقى لهؤلاء العرب ؟

لقد أسلموا اليه زمام الأمر بأنفسهم . .

ألم يقل له « ذونفر » : استبقنى لعلى أنفعك ؟

ألم يقل له نفيل بن حبيب : استبقنى وأنا دليلك على العرب ؟

ألم ترسل معه ثقيف دليلاً يدله على البيت ؟

إنه لم يبق لهم شيء بعد ذلك بل هو الآن أصبح كل شيء ، وماهى إلا لحظات حتى يسوى البيت بالتراب ، ثم هو حر بعد ذلك إن شاء بقى فبسط نفوذه ، وان شاء عاد إلى صنعاء ، وبقية بلاد العرب دائنة له بالطاعة أرادت أو لم ترد ، وسوف تؤدى له الخراج وهو فى أى مكان . .

إنها خواطر تجول فى ذهن أى قائد يصادف ما صادفه أبرهة ، فما بالك إذا كان هذا القائد مدفوعاً بدين يريد أن ينشره ويجعله سائداً فى جزيرة العرب ، وبنى من أجله كنيسة غاظه أن يهينها بعض العرب وأقسم أن يهدم البيت الذى يتبعه هؤلاء الذين أهانوها ؟!

قد تكون هذه الخواطر قد ألحت عليه وهو فى طريقه إلى مكة وراء هذا الدليل الثقفى . .

ولكن ، هل هان العرب حقا كما تصوره وهم هذا المغامر ؟

وهل استسلموا بهذه الصورة المهينة التى أنستهم نخوتهم العربية وعزتهم الموروثة ومجدهم القديم ؟

وهل ضاعوا نهائياً لمجرد أنهم خسروا جولة أمام فيل فرت الخيول خوفاً منه ؟ وإلا فأين مكائد الفرسان ؟ وأين صمودهم فى كل ميدان ؟ وأين وقائع العرب التى كانت تستمر دائرة على مدى الأعوام والأزمان ؟

كلا . . لقد كان العرب على ثقة من أن السماء قد ادخرت لهذا القائد الأرعن يوما أشد سوادا من وجهه ، وأن مطاولته الآن لا تجدى شيئاً أمام ما ينتظره من حدثان . .

لقد أرادوا أن يمدوا له فى حبل غروره ، وأن يفسحوا الميدان أمام زهوه وفجوره ، حتى إذا أُخِذ لم يُرحم وإذا عوقب لم يجد من يرثى له . . لقد رأوا قبله مصارع قوم أرادوا البيت بسوء فتركوه ليذوق مصير من سبقه . .

بداية النقمة :

وسار أبرهة مزهواً فى أثر « أبى رغال » وأنزله المغمس [٣] وهو مكان قريب من مكة على ثلث فرسخ منها .

وشاء الله أن ينغص على أبرهة آماله فى أول نزوله ، فمات أبو رغال فى هذا المكان ودفن فيه ، وأصبح قبره مرجوماً من العرب يتقربون برجمه إلى الله ، أليس هذا الرجل دليلاً لعدو الله الى بيت الله فمالهم لايرجمونه بالحجارة حين يكونون فى الموسم ؟ وقد قال جرير فى ذلك يهجو الفرزدق :

اذا مات الفرزدق فارجموه كرجمكم لقبر أبى رغال

ويذكر المسعودى خبراً آخر فى رجم قبر أبى رغال .

قال : إن أبا رغال هذا كان فى عهد النبى صالح ـ عليه السلام ـ بعثه يجمع صدقات الأموال فخالف أمره وأساء السيرة ، فوثب عليه رجل من ثقيف وهو قس بن منبه ، فقتله قتلة شنيعة لسوء سيرته فى أهل الحرم ، وفى ذلك يقول أمية بن أبى الصلت الثقفى :

نفوا عن أرضهم عدنان طرا وكانوا للقبائل قاهرينا
وهم قتلوا الرئيس أبا رغال بمكة إذ يسوق بها الوضينا [٤]

وفى التمثيل برجم قبر أبى رغال يقول مسكين الدرامى :

وأرجم قبره فى كل عام كرجم الناس قبر أبى رغال

وحين نزل أبرهة المغمس أقاموا له فسطاطا ، وهيأوه له ، وأخذ يعد جنده للمعركة الفاصلة . .

---

(٣) المغمس ـ بضم الميم الأولى ، وفتح الثانية مشددة بينهما غين مفتوحة ، وقيل انه بكسر الميم الثانية مشددة ولعله أصح ، مشتق من الغميس وهو الغمير نبات أخضر يكثر فى هذا المكان .

(٤) مروج الذهب حـ ١ صـ ٣٤٤ .

وبدأ بالمناوشة ـ على عادة المحاربين ـ فأرسل رجلاً من الحبشة اسمه الأسود بن مقصود فى خيل له للإغارة ، فلقى أمولاً من سائمة وابل لتهامة وقريش ، فاستاقها وفيها مائتا بعير لعبد المطلب بن هاشم سيد قريش ، جد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقال إنها كانت معدة للهدى . ومن هنا كان حرصه عليها .

وقد همت قريش وكنانة وهذيل بقتاله ، ولكن عبد المطلب حال بينهم وبين ذلك .

لقد كان عبد المطلب ملهماً فطناً ، وأدرك بفطنته أن الله مانع بيته لا محالة ، فقال لقومه : إنكم لا طاقة لكم بقتاله فذروه لمن هو أقدر عليه منكم .

وأرسل أبرهة حناطة الحميرى إلى مكة يسأل عن سيد هذا البلد ، فدلوه على عبد المطلب بن هاشم ، سيد مكة وشريفها وصاحب الكلمة النافذة فيها فأنهى إليه رسالة حملها إليه من أبرهة يقول له فيها :

« إنى لم آت لحربكم ، إنما جئت لهدم هذا البيت ، فإن لم تتعرضوا لى دونه بحرب ، فلا حاجة لى بدمائكم »

وماذا يبقى للعرب بعد هدم البيت ؟ لقد كانت هذه الرسالة غاية فى الإذلال والتشفى وكأنه أراد أن يقول لهم : أنا ما جئت لقتالكم بل جئت لأسلبكم كرامتكم وعزتكم وشرفكم ومجدكم . .

وهل للعرب كرامة إلا بهذا البيت الذى ألبسهم الله به تاج العز الذى لا يبلى وثوب المجد الذى لا يفنى ؟

وملك عبد المطلب جأشه ، وضبط أعصابه ، فقابل الرسالة ببرود ، كأن الأمر لا يعنيه ، ورد على الرسول فى ثقة :

والله ما نريد حربه ، ومالنا به طاقة ، هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله إبراهيم ـ عليه السلام ـ فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه ، وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه .

فقال له حناطة : فانطلق معى إلى أبرهة فإنه قد أمرنى أن آتيه بك .

ومضى عبد المطلب مع حناطة إلى معسكر أبرهة . .

عبد المطلب فى معسكر أبرهة :

ومع ثقة عبد المطلب فى حفظ السماء ، لم يشأ أن يترك أمر الاحتياط والأخذ بالأسباب ، فأراد أن يعرف شيئاً عن دخيلة هذا الغازى وسياسته وتصرفه ، وفطنة الزعماء تقضى بالاستعداد لخصومهم فقبل أن يدخل إلى أبرهة ، طلب مقابلة ذى نفر ، وكان أسيراً ـ كما نعلم ـ فى معسكر أبرهة وكان ذو نفر صديقاً لعبد المطلب ، وكان مع عبد المطلب بعض أبنائه وكان معه أيضاً وفد من زعماء العرب منهم يعمر بن نفاثة بن عدى سيد بنى بكر ، وخويلد بن وائل الهذلى سيد هذيل . .

وفى المقابلة التى جرت بين عبد المطلب وذى نفر ، قال عبد المطلب : ياذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا ؟

فقال ذونفر : وما غناء رجل أسير بين يدى ملك ينتظر أن يقتله غدواً أو عشياً ؟ ولكن ـ أنيسا ـ سائس الفيل صديق لى سأرسل إليه وأوصيه بك ، وأسأله أن يستأذن لك على أبرهة فتكلمه بما بدالك ، ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك . .

لقد جاء أبرهة إذن بقوته وسلطانه وحوله حاشيته التى قد تحول بينه وبين لقاء عبد المطلب ، فالأمر اذن فى حاجة إلى وساطة . .

فقال عبدالمطلب لذى نفر : حسبى ذلك ، وازداد وثوقه بالله . .

وأرسل ذو نفر إلى صديقه أنيس ، وأعلمه بقدر عبد المطلب ، وقال له : إن هذا الرجل سيد قريش وزعيمها وهو صاحب عير مكة ، وهو الذى يطعم الناس بالسهل والوحوش فى الوعر . . وأخذ يعظم من شأنه . .

وطلب منه أن يستأذن له على الملك وينفعه بما يقدر عليه . .

ووعد أنيس ذانفر فى شأن عبد المطلب خيراً . .

واستأذن له على أبرهة . . فأذن له . .

وكان عبد المطلب من أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم ، وحين وقعت عين أبرهة عليه استعظمه وأجله وامتلأ قلبه هيبة له ، وأكرمه أن يجلسه دونه ، وكره أن يجلسه معه على سريره ، فنزل أبرهة من مكانه وجلس على البساط وأجلس عبدالمطلب بجواره .

وأقبل عليه قائلاً : على لسان ترجمانه ـ ماحاجتك ؟

فقال عبد المطلب : حاجتى أن يرد الملك علىّ مائتى بعير أصابها جنده منى . .

فرد عليه أبرهة : قد أعجبتنى حين رأيتك وزهدتنى فيك حين كلمتنى ، أتكلمنى فى مائتى بعير أخذتها منك كى أردها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك جئت لأهدمه ولا تكلمنى فيه ؟

فقال عبدالمطلب فى وثوق وأنفة : أما الإبل فهى لى وأما البيت فله رب يحميه .

فقال أبرهة فى ضيق وتحد : ما كان ليمتنع عنى

فقال له عبد المطلب فى تحد أكبر : أنت وذاك

وكأنما أراد أفراد الوفد المرافق لعبد المطلب مهادنة أبرهة ، وأن يعقدوا معه صلحاً يعود بمقتضاه دون التعرض للبيت على أن يدفعوا له ثلث أموال تهامة .

ولكنه أبى إلا أن يهدم البيت . . لقد جاء لهدمه وسيهدمه . .

هكذا قال بعض الرواة فيما يذكر ابن هشام [٥]

---

(٥) الروض الأنف حـ ١ صـ ٦٩

وانصرف عبد المطلب إلى مكة وهو يقول :

يا أهل مكة قد وافاكم ملك   مع الفيول على أنيابها الزرد

هذا النجاشي قد سارت كتائبه   مع الليوث عليها البيض تتقد

يريد كعبتكم والله مانعه   كمنع تبع لما جاءها حرد

وطلب من قريش أن تلحق ببطون الأودية ورءوس الجبال فراراً من معرة الحبشة ، وقلد الإبل النعال وخلاها حول الحرم ووقف بباب الكعبة وهو يقول :

يا رب لا أرجو لهم سواكا   يارب فامنع منهم حماكا

إن عدو البيت من عاداكا   فامنعهم أن يخربوا قراكا[٦]

ثم أخذ بحلقة باب الكعبة وأرسل ضراعة صادقة ضمنها كل ما يملك من إيمان والتجاء إلى الله فقال :

لاهم إن العبد يمنع   رحله فامنع حلالك

لايغلبن صليبهم   ومحالهم غدوا محالك

وانصر على آل الصليب   وعابديه اليوم آلك

إنها ساعة اللجوء إلى الله .. وحق على الله أن ينصر من يصدق فى اللجوء إليه ..

وقد شعر عبدالمطلب فى هذه اللحظة أنه المسئول عن هؤلاء الذين حال بينهم وبين لقاء أبرهة ، لأنه خشى أن يعرضهم لمعركة غير متكافئة تصمهم بذل لا يمحى حيث يقال : لقد هزم الأحباش أهل مكة فى عقر دارهم .

وكانت صرخته إلى الله صاعدة من قلبه وقد ضمت كافة المعانى التى يمكن أن تجول فى خاطر زعيم نصبته الأقدار رئيساً حول حرم

---

(٦) مروج الذهب جـ ١ صـ ٣٨٢

الله . وجعلته مسئولاً عن حمايته وأمنه والحفاظ عليه . .
وما يتعرض له الحرم اليوم ليس فى مقدوره أن يدفعه فعليه أن يلجأ
إلى رب الحرم ليدفعه . .

كان صادقاً فى التجائه إلى الله . . فأيده الله . .

وفى الحق لم يكن الدعاء قاصراً على عبد المطلب ، بل شاركه فى
ذلك أهل الحرم جميعاً ، ان لم يكن جهراً فسرا ، وهذا عكرمة بن
عامر بن هاشم يهتف بالله يستصرخه على ذلك الذى اجتاح أموال
مكة وهو الأسود بن مقصود أحد قواد أبرهة ، فقال :

لا هم اخز الأسود بن مقصود   الآخذ الهجمة فيها التقليد
بين حراء وثبير فالبيد   يحبسها وهى أولات التطريد
فضمها الى طماطم سود   أخفره يارب وأنت محمود[7]

العقاب الالهى :

وعبأ أبرهة جيشه ، وتهيأ لدخول مكة ، وأصدر أمره بإعداد الفيلة
للهجوم على البيت لهدمه ، ثم العودة إلى اليمن . .

ووجه الجنود الفيلة الى مكة فأبت . .

قال الرواة : جاء نفيل بن حبيب الذى أطلقه أبرهة بعد أسره واصطحبه
معه ، وأمسك الفيل من أذنه وهمس فيها : ابرك محمود ، أو ارجع من حيث
جئت فإنك فى بلد الله الحرام . .

وكان الفيل اسمه محمود . .

فبرك الفيل مكانه . . ومعنى برك جثم فى مكانه ورفض مبارحة
المكان . .

---

(٧) لاهم : اللهم - الهجمة : الابل والماشية المقلدة للحرم - ثبير : اسم جبل والطماطم
السود جنود أبرهة - أخفره : بالهمزة : انقض عزمه وأبح دمه .

وانتهز نفيل بن حبيب الفرصة ، فخرج يشتد حتى أصعد فى الجبل هارباً . .

وأقبل سائس الفيل يحاول أن يقيمه فأبى ، فضربوا رأسه بآلة من حديد ، فلم يزد إلا جثوماً على الأرض ، وحاولوا معه بكل وسيلة كى يقوم ففشلت كافة المحاولات فى ذلك .

فأخذوا برأسه ووجهوه إلى اليمن فقام مهرولاً ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، فوجهوه إلى الكعبة فبرك .

وأرغى أبرهة وأزبد وهدد وتوعد ، مابال الفيل يعصى أوامر سائسه ، وربما أراد أن يوجه النقمة إلى هذا السائس الذى لم يحسن تأديب فيله . .

ولكن عقاب السماء كان أسرع من كل شىء . .

لقد أقبلت أسراب من الطيور غريبة الشكل أمثال الخطاطيف والبلسان مع كل طائر منها ثلاثة أحجار صغيرة فى حجم حبة الحمص أو العدس . . فى المنقار حجر وفى كل رجل حجر ، وقد وكل بكل جندى طائر من هذه الطيور . .

وألقت هذه الطيور أحجارها فوق هؤلاء الجنود ، فأصاب كل حجر هدفه بدقة كاملة ، وكان هذا الحجر الصغير الذى لا يتعدى حبة الحمص ينزل فوق رأس الرجل منهم فيحطمها ويمضى فى طريقه إلى أمعائه فيمزقها فلا يجاوزه إلا وقد أصبح جثة هامدة ممزقة الأوصال . .

وجرى الذين لم تصبهم الأحجار فى كل مكان يطلبون النجاة ، ولكن أنّ لهم النجاة وهذه الطيور لهم بالمرصاد وتتبعهم فى كل مكان حتى قال لهم نفيل ابن حبيب وقد رأى مانزل بهم ، وعاين نقمة السماء الشديدة بهم .

أين المفر والاله الطالب والأشرم المغلوب ليس الغالب ؟

وأصيب أبرهة ونقل محمولاً إلى صنعاء فكان يتساقط فى الطريق أنملة أنملة حتى وصلوا به وهو مثل فرخ الطائر . . وكأن الله قد أراد أن يشهد الذين لم يكونوا معهم ماحدث لهؤلاء الغزاة الذين لم يرعوا لله حرمة ولم يخشوا له بأساً . .

قيل : وأفلت جندى حلق فوقه طائر ، يتبعه حتى وصل إلى النجاشى فى الحبشة ، فأبلغه ماحدث وبعد أن أتم إبلاغه ألقى الطائر الأحجار فوق رأسه ، فحدث له ماحدث لرفاقه فى مكة . .

ورأى النجاشى بعينه ماحدث لجنوده الذين سولت لهم أنفسهم التعرض لبيت الله . . وخاب ظن أبرهة وخاب ظن من بعثه غازياً .

القصة فى القرآن الكريم :

وقد صدق الله إذ يقول قاصاً علينا هذه القصة :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾ (٨)

---

(٨) سورة الفيل

تعليقات الأئمة المجتهدين على هذا الحدث :

ونستعرض آراء بعض المفسرين المحدثين والأدباء فى تعليقهم على حادث الفيل .

وقد عرض هذه الآراء الدكتور محمد رجب البيومى فى مقال جاء فيه : (٩)

رأى الامام محمد عبده :

وفى اليوم التالى أى لمجىء الجيش فشا فى جند أبرهة داء الجدرى والحصبة ، قال عكرمة : وهو أول جدرى ظهر ببلاد العرب ، وقال يعقوب بن عتبة فيما حدث ، إن أول مارؤيت الحصبة والجدرى ببلاد العرب ذلك العام وقد فعل الوباء بأجسامهم مايندر وقوع مثله ، فكان لحمهم يتناثر ويتساقط فذعر الجيش وصاحبه ، وولوا هاربين ، وأصيب قائد الجيش ـ أى أبرهة ـ ولم يزل يسقط لحمه قطعة قطعة وأنملة أنملة حتى انصدع صدره ومات فى صنعاء .

قال الأستاذ الإمام :

هذا ما اتفقت عليه الروايات ويصح الاعتقاد به ، وقد بينت لنا هذه السورة الكريمة أن ذلك الجدرى أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح ، فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذى يحمل جراثيم بعض الأمراض ، وأن تكون الحجارة من الطين

---

(٩) مجلة الأزهر ـ بعنوان الطير الأبابيل ـ عدد صفر ١٤١٠ هـ

المسموم اليابس ، الذى تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات فإذا اتصل بجسد دخل فى مسامه ، فأثار فيه تلك القروح التى تنتهى بإفساد الجسم ، وتساقط لحمه وإن كثيراً من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود الله فى إهلاك من يريد إهلاكه من البشر ، وأن هذا الحيوان الصغير الذى يسمونه الآن بالميكروب لا يخرج عنها ، وهو فرق وجماعات لا يحصى عددها إلا خالقها ، ولا يتوقف ظهور أثر قدرة الله تعالى فى قهر الباغين على أن يكون الطير فى ضخامة رءوس الجبال ، ولا على أن يكون له ألوان خاصة به ، ولا على معرفة مقادير الحجارة ، وكيفية تأثيرها ، فلله جند من كل شىء .

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

ثم قال الإمام : « ومما تعظم به القدرة أن يؤخذ من استعز بالفيل ـ وهو أضخم حيوان من ذوات الأربع جسماً ـ ويهلك بحيوان صغير لا يظهر للنظر ، ولا يدرك بالبصر حيث ساقه القدر . . ولا ريب عند العاقل أن هذا أكبر وأعجب وأبهر وأعظم »

رأى العقاد :

وكتب الأستاذ العقاد بمجلة الرسالة العدد ٧٤٧ فى ١٩٤٧/١٠/٢٧ مقالاً جيداً تحت عنوان (القرآن والنظريات العلمية) نص فيه على أن من الخطأ البين أن نجعل تفسير القرآن تابعاً للنظريات العلمية التى تنقضّ اليوم ما ثبت بالأمس ، والتى يجرى عليها الجدل بين المدارس العلمية على أسس شتى لم يتفق عليها العلماء .

ثم ضرب العقاد أمثلة للمحاولات المخطئة فى تفسير آيات كريمة لا مجال للحديث عنها فى هذا الموطن ، ولكنه من الوجهة المقابلة ضرب أمثلة للمحاولات المأمونة المعقولة التى لا حرج فى القول بها ، فقال :

« وقد تكون محاولات التوفيق مأمونة معقولة كقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله فى تفسير الطير الأبابيل بجراثيم الأمراض التى تسمى بالميكروبات ، فالميكروبات موجودة لاشك فيها ، والإصابة بها محققة فهذه مشاهدات مجربة لا تقبل الجدال ، فإذا قال المفسر كما قال الأستاذ الإمام إن هزيمة أصحاب الفيل ربما كانت من فعل هذه الجراثيم ، فذلك قول مأمون على سبيل الترجيح والجواز ، ولكنه غير مأمون على الجزم والتوكيد ، لأن الحفريات التاريخية قد تكشف لنا غداً عن حجارة من سجيل ، أصيب بها أصحاب الفيل فجعلتهم كعصف مأكول » . .

رأى الأستاذ سيد قطب :

أما الأستاذ سيد قطب فلم يسترح لرأى الأستاذ الامام ، ولكنه أبدى ما أكده فى مواضع كثيرة فى تفسيره من أن سنة الله ليست محصورة فيما يعهده البشر وما يعرفونه ، لأنهم لا يعرفون من سنة الله إلا طرفاً يسيراً يكشفه الله لهم بقدر ما يطيقون ، وبمقدار ماتتهيأ له مقدرتهم العقلية ، والخوارق من سنة الله وان كانت غير ماعهدوه .

ويقول الأستاذ سيد قطب :

« إن هناك قاعدة مأمونة فى مواجهة النصوص القرآنية ، لعل هنا مكان تقريرها . . انه لا يجوز لنا أن نواجه النصوص القرآنية بمقررات عقلية سابقة ، بل ينبغى أن نواجه هذه النصوص لنتلقى منها مقرراتنا . . فمنها

نتلقى مقرراتنا الإيمانية ، ومنها نكوّن قواعد منطقنا ، وتصوراتنا جميعاً ، فإذا قررت لنا أمراً فهو المقرر كما قررته ، ذلك أن ما نسميه العقل ، ونريد أن نحاكم إليه مقررات القرآن عن الأحداث الكونية والتاريخية والإنسانية والغيبية هو إفراز واقعنا البشرى المحدود وتجاربنا البشرية المحدودة »

فالشهيد سيد قطب يدعو إلى تقبل الخوارق دون تعليل بشرى يوحى به عقل محدود الإدراك مهما كان صاحبه مجتهداً . . لإن الخوارق خوارق بالنسبة لنا ، ولكنها سنن طبيعية بالنسبة لخالق السموات والأرض . . وحادث الفيل أمر خارق فى بابه . . ومحاولة تقريبه للذهن بتعليل علمى تجعله أمراً طبيعياً لا معجزة فيه . . وهو مع هذه المخالفة الصريحة لمنحى الأستاذ الإمام يقدر كل التقدير دوافع اتجاهاته العلمية فى عصره الممتلىء بالتهجم على الاسلام افتراء وبغياً من قوم هم أشد أعدائه ، وبالخرافات الوهمية التى تنسب اليه بغياً وجهلاً من قوم آخرين ، لذلك جاءت مدرسة الإمام الى الاحتكام إلى العقل لتقنع ذوى الشطط الوبىء من أعداء الإسلام .

ويقول الأستاذ سيد قطب بصدد رأى الامام فى تفسير (الطير الأبابيل) :

« إننا ندرك ونقدر دوافع المدرسة العقلية التى كان الأستاذ الإمام رحمه الله على رأسها فى تلك الحقبة . . ندرك ونقدر دوافعها إلى تضييق نطاق الخوارق والغيبيات فى تفسير القرآن الكريم وأحداث التاريخ ، ومحاولة ردها إلى المألوف المكشوف من السنن الكونية ، فقد كانت هذه المدارس تواجه النزعة الخرافية التى تسيطر على العقلية العامة فى تلك الفترة ، كما تواجه سيل الأساطير والإسرائيليات التى حشيت بها بعض كتب التفسير والرواية ،

فى الوقت الذى وصلت فيه الفتنة بالعلم الحديث إلى ذروتها ، وموجة الشك فى مقولات الدين إلى قمتها ، فقامت هذه المدرسة تحاول أن ترد إلى الدين اعتباره على أساس أن كل ماجاء به موافق للعقل » .

خواطر الشيخ الشعراوى حول هذه السورة :

وأخيراً نأتى إلى الشيخ الشعرواى ـ أمد الله فى عمره ـ فنجده يؤكد مادعا إليه المرحوم الشيخ سيد قطب من وجوب الاقرار بالمعجزات وعدم محاولة إخضاعها للعقل

قال الشيخ الشعراوى : من الأدلة المادية على وجود الله سبحانه وتعالى ، وعلى علمه وعلى معجزاته سورة الفيل . .

فهذه السورة تتضمن معجزة لم يأت بها رسول ، ولم تنزل لتثبيت الإيمان على قوم نبى كان يدعو قومه للإيمان وهم لا يؤمنون ، ولكنها حدثت لإثبات القدسية والحماية لبيت الله الحرام ، ولقد ولد رسول الله ـ صلى اله عليه وسلم ـ فى عام الفيل ، وكانت هذه المعجزة علامة على أن دين الله سينزل على رسول من أهل هذا المكان . .

والقصة معروفة وبطلها ذلك الملك الحبشى المسمى أبرهة ، الذى بنى بيتا ليحج إليه الناس بدلاً من الكعبة ، وجاء بعض الأعراب ، وألقوا فيه قاذورات ، فصمم أبرهة أن ينتقم بهدم الكعبة ، وأخذ جيشاً ضخماً وعدداً كبيراً من الأفيال وذهب إلى مكة .

فلما رأى أهل مكة هذا الجيش هربوا وفروا . . فجاء الطير بحجارة من جهنم فقضت على أبرهة وجيشه وأفياله فى دقائق .

القصة قد يرفض تصديقها العقل غير المؤمن ، إذ كيف يمكن لطير صغير أن يقضى على جيش من الأفيال . . بينما لو وقفت مئات من الطير على جسد فيل واحد لا يحس بها .

ولقد توقف بعض العلماء عند هذه السورة الكريمة فقالوا : إن الله أرسل جراثيم لتقضى على أبرهة وجيشه ، وكأنهم يريدون أن يسهلوا الأمر على الله مع أن الله على كل شيء قدير .

نقول : لقد ولد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى عام الفيل ، وبعث فى الأربعين ، ونزلت هذه السورة فى مكة فى بداية الدعوة الاسلامية ، وكان الكفار هم القوة والعزة ، والمسلمون هم القلة والضعف ، وكان الكفار يبحثون عن أى شيء للطعن فى الدين الإسلامى .

نقول : إن هذه السورة نزلت فى مكة ، والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أرسله الله بالرسالة وعمره أربعون سنة ، أى أن هناك من أهل مكة من كان يبلغ الخامسة والخمسين ، والستين ، والخامسة والستين والسبعين ، وهم قد شهدوا هذه المعجزة ، ورأوها رؤية العين ، ولو أن الطير لم تأت وجيش أبرهة لم يتم إفناؤه وهزيمته لقال هؤلاء الناس : إن هذا الكلام غير صحيح ، ولقال الكفار : لقد كنا موجودين فى مكة فى هذا الوقت ولم نر طيراً جاء ولا جيشاً أُفنِي ، ولطعنوا بذلك فى الاسلام وفى القرآن وفى أنه كلام الله ، ولكن لأن الطير جاء ، ولأن المعجزة تمت لم يجرؤ أحد من أعداء الإسلام على أن يطعن فيه . .

وهكذا يعطينا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ دليلاً من التاريخ لمعجزة مشهورة حدثت ويعطينا معها الدليل على صدق حدوثها [١٠]

---

(١٠) الأدلة المادية على وجود الله ـ للشيخ محمد متولى الشعراوى ـ صـ ١١٤ ـ أخبار اليوم ـ

الشعر يسجل الحادث :

ويقول النقاد : إن الشعر ديوان العرب بمعنى أنه سجل كامل لأخبارهم وللأحداث التي مرت في حياتهم ، ويندر أن تكون هناك حادثة مهمة لم يسجلها شاعر من الشعراء في شعره ، وقد تناول شعراء العرب حادث الفيل وسجلوه ، ومن ذلك ماقاله نفيل بن حبيب الخثعمي ، وكان الأحباش المذعورون يبحثون عنه ليدلهم على طريق الهروب ، ولكنه لم يكن أقل منهم رعباً وذعراً ، وكان قد تسلل من بينهم وأصعد في الجبل قبل أن تسقط الحجارة عليهم . قال نفيل :

ألا ردى جمالك ياردينا   نعمناكم مع الأصباح عينا

فانك لو رأيت ولن تريه   لدى جنب المحصب مارأينا

حمدت الله إذ عاينت طيرا   وحصب حجارة تلقى علينا

وكل القوم يسأل عن نفيل   كأن عليّ للحبشان دينا[11]

أما عبدالمطلب ـ وكان الى جانب زعامته شاعراً مجيداً ـ فقد أنشأ يقول ، بعد أن رأى كيف رد الله عن بيته هؤلاء الطغاة :

أيها الداعي لقد أسمعتني   ثم مابي عن نداكم من صمم

ان للبيت لربا مانعا   من يرده بآثام يصطلم

رامه تبع فيمن جندت   حمير والحي من آل قدم

فانثنى عنه وفي أوداجه   جارح أمسك منه بالكظم[12]

---

(11) مروج الذهب للمسعودي حـ ١ صـ ٣٨٢

(12) الكظم : مخرج النفس يقال أخذ بكظمه اى بمخرج نفسه ـ اللسان .

قلت والأشرم تردى خيله | إن ذا الأشرم غِرٌّ بالحرم
نحن آل الله فيما قد قضى | لم يزل ذاك على عهد أبرهم
نحن دمرنا ثمودا عنوة | ثم عادا قبلها ذات الإرم
نعبد الله وفينا سنة | صلة القربى وايفاء الذمم
لم تزل لله فينا حجة | يدفع الله بها عنا النقم(١٣)

ولم يفت تسجيل هذا الحادث عبدالله بن الزبعرى وهو شاعر قريش المشهور فقال :

تنكلوا عن بطن مكة إنها | كانت قديماً لايرام حريمها
لم تخلق الشعرى ليالى حرمت | إذ لاعزيز من الأنام يرومها
سائل أمير الجيش عنها مارأى | ولسوف ينبى الجاهلين عليمها
ستون ألفاً لم يئوبوا أرضهم | ولم يعش بعد الإياب سقيمها
كانت بها عاد وجرهم قبلهم | والله من فوق العباد يقيمها(١٤)

وقال أبو الصلت الثقفى :

ان آيات ربنا ثاقبات | لايمارى فيهن إلا الكفور
حبس الفيل بالمغمس حتى | ظل يحبو كأنه معقور
لازما حلقة الجران كما قطر | من صخر كبكب محدور
حوله من ملوك كندة أبطال | ملاويث فى الحروب صقور
خلفوه ثم ابذعروا جميعا | كلهم عظم ساقه مكسور
كل دين يوم القيامة عند | الله إلا دين الحنيفة بور(١٥)

---

(١٣) المرجع السابق صـ ٣٨٣

(١٤) سيرة ابن هشام جـ ١ صـ ٧٧

(١٥) المرجع السابق ص ٧٩ والجران : العنق ، ويقصد بحلقة الجران بروك الفيل على الأرض ، وشبهه بالصخرة التى انحدرت من الجبل ولصقت بالسفح والملاويث : المتعطشون للحرب ، وابذعروا : اتفرقوا .

نهاية الحبشة فى اليمن :

وتبددت فلول جيش أبرهة فى الفياف ، وبعضها عاد ثخيناً بجراح لا يستطيع مقاومتها حتى لفظ أنفاسه فى اليمن أو فى الحبشة ، لقد كان الدرس قاسياً ، والانتقام مراً .

وتولى أمر الحبشة باليمن بعد أبرهة ابنه يكسوم بن أبرهة ، وبعد هلاكه تولى أخوه مسروق بن أبرهة ..

وكان مسروق أشد وطأة على اليمن من أبيه أبرهة ومن أخيه يكسوم وسوغ له ذلك نسبه فى اليمن ، فقد كانت أمه يمنية من آل ذى يزن .

وكان اليمنيون لا يزالون يتطلعون للتخلص من الحكم الحبشى ، ولم يجدوا طريقاً للخلاص من ذلك إلا بالاستعانة بالفرس فهم أكفاء القياصرة الذين يمدون الأحباش بالقوة ويعضدونهم ويناصرونهم لمكان الدين الذى يعتنقونه جميعاً ..

وكان سيف بن ذى يزن قد لجأ إلى قيصر ملك الروم يستغيث به فى تخليص بلاده من الأحباش ، ولكن أنى يستجيب له قيصر وهو يعلم أن الحبش لم تغز اليمن إلا باسمه وأمره ؟

ومكث سيف بن ذى يزن على باب قيصر مدة طويلة دون أن يأذن له قيصر حتى يئس فانصرف إلى كسرى ، فاستنجده فوعده بالنصرة .

وأمده بجيش قوامه المسجونون وعليهم قائد اسمه وهرز ..

قال كسرى : هؤلاء أهل السجن إن هلكوا كسبنا وإن فتحوا كسبنا فهو ظفر على أى حال ..

وركب هذا الجيش السفن فى طريقه إلى حضرموت ، وقد هلك بعضه فى الطريق غرقاً .

ونما خبر هذا الجيش إلى مسروق بن أبرهة فاستعد لمقابلتهم فى مائة ألف من الأحباش وغيرهم من حمير وكهلان وقبائل اليمن ..

وركب مسروق فيله ، وكأنه استنكف أن يقاتل هؤلاء على فيل ، فتحول عن الفيل إلى فرس ، ثم تحول عن الفرس إلى حمار استصغاراً لهؤلاء الذين جاءوا عبر البحار فى عدة سفن ليقاتلوه . .

فلما رآه وهرز وقد تحول إلى الحمار قال : لقد ذهب ملكه ، إذ تحول من الكبير إلى الصغير ومن العظيم إلى الحقير . .

وكان بين عينى مسروق ياقوته حمراء معلقة فى تاجه بمعلاق من ذهب فلم يكن لوهرز شأن إلا أن يصيبه فى مقتل بين عينيه .

وصدق الفرس فى القتال ، ورمى وهرز مسروقاً بسهم فأصابه بين عينيه فى موضع اللؤلؤة وقتله ، وتفرق الجمع من حول مسروق ، وتبددوا وانتهت المعركة بهزيمة الحبشة شر هزيمة ، وتم الأمر لسيف بن ذى يزن . .

فتولى ملك اليمن على شرط أن تكون تابعة للفرس ، يحكمها باسم الفرس .

ولكن اليمن تخلصت من حكم الحبشة على أى حال ، وكان هذا الحكم قد استمر فى اليمن اثنتين وسبعين عاماً كان ملك مسروق منها ثلاث سنين .

وجاءت وفود العرب تهنىء سيفاً بالنصر ، وكان فيمن وفد عليه عبد المطلب بن هاشم ، فأكرم سيف وفادته وأعطاه هدايا قيمة عند عودته . .

وقيل إن النصر تم على يد معديكرب بن سيف لأن سيفاً كان قد مات قبل أن تبارح جيوش كسرى بلاد فارس فى طريقها إلى اليمن .

وظلت ولاية اليمن تابعة لكسرى حتى جاء الاسلام فحررها من التبعية وأصبحت خالصة لأهلها .

العبرة من قصة الفيل :

لقد أشار الشيخ الشعراوى فيما نقلناه عنه إلى أن قصة الفيل فى القرآن

الكريم تدل على معجزة القرآن الكريم ، كما تدل على قدرة الله الخارقة ووجوده العظيم ، وحمايته لبيته الحرام الذى جعله مثابة للناس وأمناً .

وهلاك الفيلة وأصحابها فى العام الذى ولد فيه النبى - صلى الله عليه وسلم - دليل على عظم منزلة هذا الرسول الأمين ، الذى بعثه الله رحمة للعالمين ، والذى سوف تكون رسالته توطيدا لدعائم هذا البيت الذى ولد فى رحابه وتدرج فى ظله ، وسيكون قبلته التى توجه إليها أنظار المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها فى أداء صلواتهم لله .

لقد كان هلاك أبرهة بهذه الصورة الغريبة الخارقة درساً لكل المتغطرسين الذين يناصبون الله العداء والذين تسول لهم نفوسهم أن فى إمكانهم أن يَتَحَدُّوا القدر أو يجعلوا من أنفسهم طواغيت يرهبون الناس بسلطانهم ، ويوجهونهم وجهة غير صحيحة .

والقصة فى الوقت نفسه تثير العجب من هؤلاء الذين جاءوا باسم حماية الضعفاء يزعمون أن شعارهم الرحمة والعدل فإذا بهم يحاولون أن يفرضوا بالحديد والنار والقوة الغاشمة سلطانهم فى أرض احتلوها ليست لهم أولا .. ثم فى بقية البلاد التى تجاورها ثانياً .

فهاهم أولاء أرادوا أن يصرفوا العرب عن التوجه إلى بيت الله الحرام ، فلما رأوا بوادر العصيان لهذا الاتجاه المتعصب أرادوا أن يهدموا البيت الذى يحج إليه الناس من مختلف الجهات ..

وعبرة العبر فى القصة . ما توحى به من دلائل على أن القوة بغير سلاح الإيمان لا تفيد ، وكم من مغتر بقوته طوحت به الطوائح ووضعت الأحداث أنفه فى الرغام ، كما تدل على أن لله جنودا لا يعلمها إلا هو يذل بها الجبابرة ويهلك بها الغاشمين .

وانظر إلى الفيل فى ضخامة جثته وهول منظره أهلكه الله بحجر فى حجم العدسة ألقاه عليه طائر لا يعرف أحد من أين جاء ولا إلى أين ذهب ..

واصبح الجيش المعتد بقوته المغتر بصولته وشدته كعصف[١٦] ماكول ، فى أقل من غمضة عين ، وفى أسرع من البرق .

إن أعتى الأسلحة الحديثة وأدق الأجهزة الراصدة لا تستطيع أن تؤدى مهمتها بنجاح فائق كما أدتها هذه الطيور التى بعثتها العناية الربانية فى وقتها المعلوم ومكانها المرسوم .

ولقد أبقى الله من هذه الموقعة علامات تذكر الناس بها ، وتشهد الأجيال التى جاءت بعد ذلك على صدق حدوثها . فقد قال ابن إسحاق : حدثنى عبد الله بن أبى بكر عن عمرة بنت عبد الرحمن بن سعد بن زرارة عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة فاقدى البصر مقعدين يستطعمان الناس[١٧]

فأى عبرة أقوى من هذا ؟ هؤلاء الذين جاءوا غزاة أقوياء معتدين بقوتهم يصبحون بعد حين ضعفاء أذلاء مقعدين . .

ومن العبر المستخلصة وجوب اللجوء إلى الله فى الشدة ، وهو سبحانه برحمته يأخذ بيد المستجير ويغيث الملهوف وينصر المظلوم ، قال القشيرى فى كتابه « لطائف الإشارات » : إذا كان عبد المطلب ـ وهو ليس صاحب دين ـ أخلص فى التجائه إلى الله فى استدفاع البلاء عن البيت فلم يخيب الله رجاءه ، وسمع دعاءه . . فالمؤمن المخلص اذا دعا ربه باخلاص أحق أن لا يرده الله خائباً .

ويقال : إنما أجيب لأنه لم يسأل الله لنفسه وانما لأجل البيت ، وماكان لله لا يضيع[١٨]

---

(١٦) العصف : اطراف الزرع قبل أن يدرك ، ويقصد بماكول أى ممضوغ أو أن ثمره ماكول . والطير الأبابيل هى المتجمعة والمتفرقة ، أما السجيل فهى حجارة مطبوخة بالنار ، وقيل هو لفظ فارسى .

(١٧) الروض الأنف للسهيل جـ ١ ص ٧٧

(١٨) لطائف الاشارات للقشيرى جـ ٦ ص ٣٣٨

رحلتا الشتاء والصيف

- قريش ولم سميت بهذا الاسم ؟
- قصي هو الذي جمع قريشًا .
- هاشم بن عبد مناف صاحب فكرة الإيلاف .
- حسده والحقد عليه .
- التنازع حول تكاليف السيادة .
- همة هاشم البعيدة .
- ماذا فعل هاشم لتحقيق فكرة الإيلاف .
- قصده قيصر ولقاؤه به .
- توسيع فكرة الإيلاف .
- وفاة هاشم في إحدى رحلات الإيلاف .
- معنى الإيلاف .
- أثر الإيلاف في حياة العرب .
- مناسبة سورة قريش .
- العبرة من القصة .

رحلتا الشتاء والصيف

أشارت إلى هاتين الرحلتين سورة نزلت فى القرآن الكريم هى سورة « قريش » التى يقول الله - تعالى - فيها :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ (١) إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ (٣) ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ (٤) ﴾

وتتضمن هذه السورة توفير عاملين لقريش من أهم العوامل التى تسعى الأمم قديمها وحديثها فى سبيل توفيرهما حتى تعيش سعيدة فى حياتها ، هذان العاملان هما توفير الرزق للشعب ، واحراز الأمن له ، ويتطلب الحديث عن ذلك التمهيد بذكر نبذة عن قريش ومكانتها التى جعلت القرآن الكريم يفرد سورة باسمها .

قريش :

القرش فى اللغة الجمع والكسب والضم من هنا وهناك ومعناه ضم الأشياء بعضها إلى بعض ، وتقرش القوم اذا اجتمعوا وقرش بقرِش ويقرُش قرشا واقترش جمع واكتسب ، والتقريش الاكتساب .

وتقول : قَرَش لأهله وتقرش واقترس أى اكتسب لهم

ويقال : تقرش عن الشيء تنزه عنه

ويقال : تقارشت الرماح وتقرشت إذا تطاعنوا بها

والقرش بكسر القاف دابة فى البحر لاتدع دابة فيه إلا أكلتها فجميع

الدواب تخافها . . من هذه المادة وتقلباتها فى المعنى جاءت تسمية قبيلة قريش التى ينتسب اليها سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فقبيلة قريش كانت مجتمعة متضامة ، وكانت ماهرة فى التكسب عن طريق التجارة ، وكانت مترفعة عما يقبل عليه غيرها من بعض العادات والتقاليد ، دفعهم إلى ذلك شرفهم الذى هيأ لهم ولاية البيت ورعايته ، وكانت على أنفة تدعوها الى الذود عن كيانها حتى اكتسبت بذلك هيبة فى نفوس العرب وغير العرب ، وإن كان بعض اللغويين قد غلب المعنى الأخير فى سبب تسمية قريش بهذا الاسم كما سيأتى .

وأبو هذه القبيلة هو النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إياس بن مضر فكل من ولد النضر ـ كما يقول ابن منظور ـ[1] فهو قرشى دون ولد كنانة ومن فوقه .

قال : وسموا بقريش تشبيها بهذه الدابة البحرية التى تخشاها الدواب وتعمل حسابها وفى حديث ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فى ذكر قريش سأله معاوية : لم سميت قريش قريشاً ؟ فقال : لدابة تسكن البحر تأكل دوابه يقال لها القرش ، تأكل ولا تؤكل ، وتعلو ولا تُعلى ، وأنشد قول تبع فى ذلك :

وقريش هى التى تسكن البحر بها سميت قريش قريشا
تأكل الغث والسمين ولاتترك فيها لذى جناحين ريشا
هكذا فى البلاد حى قريش يأكلون البلاد أكلاً كميشا[2]

---

(١) لسان العرب حـ ٥ صـ ٣٥٨٦

(٢) الكميش : السريع .

وربما كان لتجمعها فى مكة بعد تفرقها فى البلاد حين غلب عليها قصى بن كلاب أثر فى تسميتها بذلك ، وقد رأينا أن التقرش معناه التجمع ، ويؤيد ذلك أن قُصَيًّا هذا كان يسمى مُجَمِّعاً .

وكانت قريش صاحبة تجارة ، يخرجون الى البلاد المجاورة متجرين ومكتسبين ، وهذه علة أخرى لتسميتها بهذا الاسم ، وقد علمنا أن من معانى هذه الكلمة الكسب والجمع ولم يكن القرشيون أصحاب زرع وضرع بل كانوا أصحاب تجارة .

وتطلق كلمة قريش على الحى كما تطلق على القبيلة .
فإن أطلقتها على الحى صرفت الكلمة تقول : نزلت حى قريشٍ بالتنوين وأن أطلقتها على القبيلة منعتها من الصرف كما يقول الشاعر وهو عدى بن الرقاع يمدح الوليد بن عبد الملك :

غلب المساميحَ الوليدُ سماحةً وكفى قُرَيْشَ المعضلاتِ وسادها

من قصـــى ؟ :

أما قصى فهو ابن كلاب بن مرة بن لؤى بن غالب بن فهر ، وكلاب مصدر الفعل كالب ، تقول : كالب كلابا ومكالبة إذا غالب وخاصم واشتد فى الحرص على حقه ، وضايق خصمه حتى غلبه .

وأمه هى فاطمة بنت سعد بن سيل وهى من الأزد الذين حملهم السيل على الخروج من مأرب فنزل جدها الأعلى فى كنانة فتزوج منهم وأعقب أولاده من الكنانية التى تزوجها .. فهى أزدية الأب كنانية الأم ..

وكانت فاطمة قد ولدت قصياً فأسمته زيداً ، ومات أبوه فاحتملته أمه معها بعد أن تزوجت إلى الشام حيث يقيم أهل زوجها وبقى عندهم مدة من الزمن فلقب بقصى لتقصيه عن أهله .

وكان زوج أمه يسمى ربيعة بن حرام ، ونسب قصى إلى زوج أمه فترة حتى تناضل مع رجل اسمه « رقيع » من قضاعة . . قبيلة ربيعة . زوج أمه فغلب قصىٌ رقيعا .

فغضب رقيع ، ووقع بينه وبين قصى شر ، حتى قال رقيع لقصى : ألا تلحق ببلدك وقومك فانك لست منا ؟
فرجع قصى إلى أمه فقال لها : من أبى ؟

فقالت له : أنت والله أكرم الناس نفسا ووالدا ونسبا وأشرف منزلا ، أنت ابن كلاب بن مرة بن كعب القرشى ، وقومك بمكة عند البيت الحرام فما حوله .
قال قصى : فوالله لاأقيم هاهنا أبدا . .

قالت أمه : فأقم حتى يجىء وقت الحج فتخرج مع الحجاج ، فإنى أخشى عليك أن يصيبك بعض الناس ، فأقام حتى جاء موسم الحج فخرج إلى مكة ، فقدمها وأخوه زهرة بن كلاب حىٌ إلا أنه كان قد فقد بصره ، وكان كلاهما أشعر ـ أى كثير الشعر . .

فقال قصى لأخيه : أنا أخوك ، فقال له زهرة : ادن منى ، فدنا منه وأخذ يتلمسه ، وعرف أنه أخوه ، فقال : أعرف والله الصوت والشبه .

وحاول القضاعيون أن يعودوا به إلى أمه بعد موسم الحج فأبى ، وبقى فى مكة .

قصى يجمع أمر قريش :

وكان أمر الكعبة فى ذلك الوقت لخزاعة ، يقوم عليها حُلَيْلُ بن حبيشة بن سلول الخزاعى فخطب قصى إليه ابنته فزوجه حليل لمكانه ونسبه .

ومات حليل فجعل أمر البيت لابنه المحترش ، وكنيته « أبو غبشان » وكانت العرب ـ كما يقول ابن سعد فى طبقاته ـ تقدم لأبى غبشان جُعْلاً فى كل موسم ، فقصرُّوا بهذا الجعل فى بعض المواسم ، ومنعوه أبا غبشان ، فغضب لذلك وكان صاحب خمر .

فدعاه قصى فسقاه فرضى ، ثم اشترى منه حجابة البيت التى كان يقوم بها بأزواد من إبل . . وقيل : بزق من خمر ، فرضى وترك أمر البيت لقصى . .

وعيرت العرب خزاعة بذلك . . وبهذا عاد الحق إلى أصحابه ورد السيف إلى قرابة والأمر إلى نصابه ، لقد كان أمر البيت لإسماعيل وولده ، فأُخذ منهم ظلما ، فتولاه الجراهمة فالخزاعيون حينا من الزمن حتى جاء قصى ، فعاد إليه أمر البيت . .

وروى ابن سعد فى ذلك خبراً عن فاطمة الخزاعية ، وكانت قد أدركت النبى ـ ﷺ ـ قالت : لما تزوج قصى من حُبّى ابنة حليل فولدت له أولاده قال حليل : إنما ولد قصى ولدى ، هم بنو ابنتى ، فأوصى بولاية البيت والقيام بأمر مكة إلى قصى وقال : أنت أحق به . .

ولعل هذا الخبر هو الذى تستريح إليه النفس ويطمئن إليه القلب ، لأن أمر البيت أعظم ـ مهما كان متوليه ـ من أن يكون سلعة تعرض فى سوق التجارة والهوى . .

ويقول بعض الرواة : إن قصياً بعد أن كثر ماله ونما ولده وعظم شرفه رأى أنه أولى بالبيت وأمر مكة من خزاعة وبكر ، وأن قريشاً هم صريح ولد اسماعيل ، فكلم رجالاً من قريش وبنى كنانة واستنصر بأخيه من أمه فجاء بقومه القضاعيين فنصروا قصياً فى قضيته حتى آل إليه أمر البيت .

ويقال : إنه حدث قتال شديد بين قريش وحلفائها وبين الخزاعيين والبكريين حتى كثر القتل فى الفريقين ، وتداعوا للصلح ، وكان الحكم فيه يعمر بن عوف بن كعب من كنانة فقضى بأن قصى بن كلاب أولى بالبيت وأمر مكة من خزاعة ، وأن كل دم أصابه قصى من خزاعة وبنى بكر موضوع ، وكل دم أصابته خزاعة وبنو بكر من قريش وكنانة فيه الدية .

وجمع قصى بذلك قريشاً فسمى مجمعاً ، ونفى خزاعة من مكة . .

وحين جمع قصى قومه سموا قريشاً لتجمعهم ، وهذا تعليل آخر لتسميتهم قريشاً . .

وبعد أن استقر الأمر لقصى انصرف أخوه القضاعى « رزاح بن ربيعة العذرى » ومن معه من قضاعة وكان عدتهم ثلثمائة رجل . . وظل رزاح مواصلاً لأخيه قصى . . يوافيه فى الموسم ومن شاء من قومه فينزلهم قصى فى ضيافته . .

وارتفع شأن قصى بين العرب ، وكان له أولاد من حُبّى بنت حليل أعانوه على ماأراد من شرف ورفعة لقومه .

فكان له عبد الدار بن قصى ، وهو بكره

وعبد مناف بن قصى واسمه المغيرة

وعبد العزى بن قصى

وعبد قُصىَ بن قصى

وقال فى تسميتهم : ولد لى أربعة رجال ، فسميت اثنين بإلهى ، وواحد بدارى ، وواحد بنفسى واللذان سماهما بإلهه هما عبد مناف وعبد العزى . وابتنى قصى دار الندوة وجعل بابها إلى البيت ، وفيها تبرم قريش أمرها وتتشاور فى مهامها . . وتيمنت قريش بقصى وأحبته وشرفته وملكته . .

واجتمعت حوله بطونها إلا قليلا منهم . .

فالذين اجتمعوا حوله أقامهم ببطاح مكة حول البيت فأطلق عليهم : قريش البطاح ، والذين أبوا إلا الاقامة بظاهر مكة أطلق عليهم : قريش الظواهر ، وفى ذلك يقول الشاعر :

فلو شهدتنى من قريش عصابة ... قريش البطاح لا قريش الظواهر

كان يطلق على قريش قبل قصى : بنو النضر ، فلما جمعهم قصى أطلق عليهم قريشا ، سأل عبد الملك بن مروان محمد بن جبير : متى سميت قريش قريشاً ؟

قال : حين اجتمعت الى الحرم بعد تفرقها . .

ولكن بعضهم يذكر أن الذى سما بذلك هو النضر بن كنانة . .

قصى يدعو قريشا لإكرام الحجيج

واضطلع قصى بتكاليف الزعامة كلها ، وأشرك قريشا معه فى الأمر ، قال ابن سعد : فرض قصى على قريش السقاية والرفادة ، فقال : يامعشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته الحرام ، وإن الحجاج ضيفان الله وزوار بيته ،

وهم أحق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعاما وشرابا أيام الحج حتى يصدروا عنكم ففعلوا .

فكانوا يخرجون كل عام من أموالهم جزءا يدفعونه إليه ، فيصنع الطعام للناس أيام الحج ، ويصنع حياضا للماء من أدم ، فيسقى فيها الناس بمكة ومنى وعرفة ، فجرى ذلك من أمره فى الجاهلية على قومه حتى قام الاسلام . ثم جروا فى الإسلام على ذلك[3] .

وتوارث هذا العمل عن قصى أبناؤه وبالأخص منهم عبدمناف ، وورث ذلك عن عبدمناف ابنه هاشم الذى يرجع إليه الفضل فى الإيلاف الذى نحن بصدده والذى كانت تتم فى ظلاله رحلتا الشتاء والصيف .

هاشم بن عبدمناف

وكان هاشم اسمه عمرو ، وإنما لقب بهاشم لأنه أطعم الناس فى يوم المَحْل ، هشم لهم الخبز وأصعمهم الثريد . . فقال الشاعر عبدالله بن الزبعرى فى ذلك :

كانت قريش بيضة فتفلقت ... فالمُخُّ خالصه لعبدمناف
الخالطين فقيرهم بغنيهم ... والظاعنين لرحلة الأضياف
والرائشين وليس يوجد رائش ... والقائلين : هلم للأضياف
عمرو العلا هشم الثريد لقومه ... ورجال مكة مستنين عجاف
سنت إليه الرحلتان كلاهما ... سفر الشتاء ورحلة الإيلاف

وكان السبب فى هذه الأبيات ـ كما يقول السهيلى ـ أن عبدالله بن الزبعرى وهو من بنى سهم كان قد هجا قصيا بشعر كتبه فى أستار الكعبة ، فاستعدى القرشيون عليه بنى سهم فأسلموه اليهم ، فضربوه وحلقوا شعره

---

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ١ قسم ١ ص ٤٠

وربطوه إلى صخرة بالحجون ، فاستغاث قومه فلم يغيثوه ، فجعل يمدح قصيا ويسترضيهم ، فأطلقه بنو عبدمناف وأكرموه فمدحهم بهذا الشعر وغيره (٤) .

أما قصة هشم الخبز فترجع إلى أن هاشما كان يستعين على إطعام الحجيج بقريش فيرفدونه بأموالهم ويعينونه ، ثم جاءت أزمة شديدة فكره أن يكلف قريشا أمر الرفادة ، وذهب إلى الشام بجميع ماله ، واشترى به أجمع كعكا ودقيقا ، ثم أتى الموسم فهشم ذلك الكعك كله هشما ودقه دقا ، ثم صنع لحجاج البيت طعاما شبه الزبد ، فسمى بذلك هاشما ، لأن الكعك اليابس لايثرد وانما يهشم هشما . .

وقد قال وهب بن عبدقصى فى ذلك :

تحمل هاشم ماضاق عنه ... فأعيا أن يقوم به ابن بيض
أتاهم بالغرائر متأقات ... من أرض الشام بالبر النفيض
فأوسع أهل مكة من هشيم ... وشاب الخبز باللحم الغريض
فظل القوم بين مكللات ... من الشيزاء حائرها يفيض (٥)

حسد وحقد يؤديان إلى منافرة :

وغاظ فعل هاشم هذا حسد ابن أخيه أمية بن عبدشمس بن عبدمناف ، وكان صاحب مال ، فحاول أن يتكلف ماتكلفه هاشم فعجز عن ذلك ، فشمت به قوم من قريش ، فغضب ونال من هاشم ودعاه للمنافرة ولكن هاشما كره ذلك لسنه وقدره ، ولكن قريشا لم يتركوه وحاله ، بل أحفظوه وأثاروه فقال لأمية : إنى أنافرك على خمسين ناقة سود الحدق تنحرها ببطن مكة ، والجلاء عن مكة عشر سنين فرضى أمية بذلك واتفقا على أن يحكم فى المنافرة بينهما الكاهن الخزاعى .

---

(٤) الروض الأنف جـ ١ صـ ١٦١

(٥) وردت الأبيات بتسكين حرف الروى فى بعض الروايات ، ومتأقات : ممتلئات والشيزاء : القصاع وحائرها ـ لعل المقصود مافيها من خبز الحوارى أو طعام الحوارى وهو مأخوذ من الطعام أى بيض .

فلما أدلى كل منهما بمقومات شرفه حكم الكاهن لصالح هاشم .

فأخذ هاشم الإبل من أمية ونحرها وأطعمها الحاضرين ، وخرج أمية إلى الشام فأقام بها عشر سنين ، فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية التى توارثها الأبناء والأحفاد بعد ذلك[٦] .

وكان هاشم إذا حضر الموسم يخطب فى قومه كما كان يخطب جده قصى ، يحثهم على إكرام الحجيج ومن خطبه فى ذلك قوله :

يامعشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته ، وإنه يأتيكم فى هذا الموسم زوار الله وحجاج بيته ، وهم ضيف الله وأحق الضيف بالكرامة ضيفه ، فاجمعوا لهم ماتصنعون لهم به طعاما فى أيامهم هذه التى لابد لهم فيها من الإقامة بمكة ، فانه والله لو كان لى مال يسع لذلك ماكلفتكموه .

فكانوا يخرجون لذلك خرجا من أموالهم ، كل امرىء بما يقدر ، فيصنع به للحجاج طعاما حتى يصدروا من مكة .

التنازع حول تكاليف السيادة

وكان بنو قصى قد ورثوا عن أبيهم مسئوليات البيت من حجابه ورفادة وسقاية وغيرها .

إلا أن عبدالدار كان قد خصه أبوه ببعض المآثر لما رأى من ضعفه عن أخوته ولكن الأخوة ساروا متآزرين فيها ورثوه حتى نشأ الأحفاد ، وأراد بنو عبدالدار أن يستأثروا بكل شىء ولكن أبناء عمومتهم أبوا إلا مقاسمتهم هذا الشرف .

لقد أراد بنو عبدالدار الاستئثار بالحجابة واللواء والرفادة والسقاية والندوة ، وهذا ماكان قصى قد أوصى به لعبدالدار .

ولكن ماذا بقى لغيرهم بعد ذلك ؟

تزعم هاشم بن عبدمناف جبهة المعارضين ضد بنى عبدالدار .

وأيد بنى عبدمناف فى مطالبهم بنو أسد بن عبدالعزى وبنو زهرة وبنو تيم وبنو الحارث بن فهد وأتوا بجفنة ملأوها طيبا ووضعوها حول الكعبة

---

(٦) الطبقات الكبرى حـ ١ قسم ١ صـ ٤٤

وغمسوا أيديهم فيها وتعاقدوا على أن يكونوا معا ، ومسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم ، فسموا بالمطيبين .

أما بنو عبدالدار فأتوا بجفنة ملأوها دما وغمسوا فيها أيديهم وتعاهدوا على أن يكونوا يدا واحدة على من سواهم فسموا لعقة الدم ، وتهيأوا للقتال . .

ولكن الناس سعوا فى الصلح بينهم ، واتفقوا على أن يأخذ بنو عبدمناف السقاية والرفادة ويختص بنو عبدالدار بالحجابة واللواء ودار الندوة . .

ولم تزل دار الندوة فى بنى عبدالدار حتى اشتراها منهم معاوية بن أبى سفيان فجعلها دار الإمارة فى مكة . .

وتولى هاشم بن عبدمناف من ذلك الوقت السقاية والرفادة وقام بذلك الأمر خير قيام ـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك . .

همـــة بعيدة

ومنذ أن تولى هاشم أمر قريش أخذ يفكر فيما يصلحهم ويرفع من شأنهم ويعلى من مكانتهم . وكان قومه تجارا يتحركون بقوافلهم فى اتجاهات متعددة . وعلى التجارة قوام حياتهم فأراد أن يضمن الأمان لهذه التجارة ، ومن وراء ذلك يضمن استمرار القيام بهذه التبعات التى فرضتها رعاية هذا البيت الحرام عليهم .

لقد كان هذا البيت قبلة أنظار العرب من شتى البقاع يأتونه حاجين فى أشهر معلومات ، ومعتمرين على مدار العام ، وزواره ضيوف يجب إكرامهم ، ولا إكرام بدون مال ، ولا مال بدون مصدر مضمون لايتعرض لهزات المغامرين أو مؤامرات المساومين .

إن ذلك يتطلب أمنا عاما لهؤلاء الذين يتولون أمر البيت . وكان الأمن مفقودا فى ربوع الجزيرة وإن كان مكفولا فى مكة فقط .

وقد أخبر عن ذلك القرآن الكريم بقوله ـ تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) ﴾ (٧)

---

(٧) العنكبوت ٦٧

وأشار إلى ذلك المعنى فى قوله - تعالى :

﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (٨)

وأدرك هاشم بفطنته أن هذا الأمر الذى يحلم به لايمكن أن يتحقق بدون حكومة قوية ، وبدون اهتمام بطرق القوافل وشرايينها ، وبدون حراسة يقظة تكفل للقوافل السلامة ضد غارات البدو المتحفزين واللصوص الذين يقطعون على الناس طرقاتهم ويسلبونهم مامعهم ، أو الصعاليك الذين كانوا يتخذون الصعلكة حرفة أو هواية يتمدحون بها .

ولكن أين الحكومة القوية ، والعرب قبائل متناثرة كل قبيلة تحكم نفسها بنفسها ، لا رابطة تجمعها بل هناك عداء يكاد يكون عاما بين هذه القبائل وسلطان القوة هو الذى يفرض نفسه عليها ؟ . . وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا العداء فى معرض المنة عليهم بالتآلف الذى أوجده الإسلام بينهم فقال :

﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (٩)

ولعل هاشم بن عبدمناف نظر إلى الوراء ، فتذكر حالة الجزيرة العربية قبل قرون . . أيام دولة سبأ حين كانت هناك دولة زاهرة تتمتع برغد العيش وخصب الحياة وسعة الأمن ووفرته . .

وقد امتد هذا العصر الزاهر قرابة تسعة قرون قبل الميلاد ، حتى انهار السد فأغرق البلاد وشتت شمل العباد . .

---

(٨) القصص ٥٧

(٩) آل عمران ١٠٣

ولكن الذى راود خيال هاشم بن عبدمناف حقا هو ذلك الرغد الذى كان يعيش فيه العرب أيام سبأ والذى كفلته حياة الاستقرار والأمن الداخلى الذى كانت تنعم به البلاد فى ذلك الوقت السحيق فقد كان للعرب من أهل اليمن اكتفاء ذاتى من جنتين وارفتين تحدث عنهما القرآن الكريم بقوله تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ ﴾ (١٠)

بل وزيادة على ذلك كانت تصدر إلى الخارج فى قوافل تجارية كانت تجوب البلاد والبحار ، وتتبادل مع الدول المجاورة السلع التى تحتاج إليها البلاد ، وقد أشار الدكتور على الخطيب إلى ذلك حيث قال « كان ازدهار سبأ يعتمد فى أصله على ماحققته ببناء السد من اكتفاء زراعى لشعبها عاش به بين جنتين ، ثم كان يصدر مازاد عن حاجتها ، إلى جانب التجارة الدولية الخطيرة الشأن التى كانت تمسك بأمرها فان الهند لم تكن قد عُرِفَتْ بعد للغرب ، فكان العرب وحدهم هم أمراء البحرية بين ثغور بلاد العرب الشرقية والهند ، وهم الذين أحاطوا علما دقيقا ومعرفة وثيقة بالأنواء والرياح الموسمية للمحيط الهندى ومداخل المندب ، فجلبوا من الهند التوابل والطيب والبخور والحيوانات النادرة كالطواويس والنسانيس وغيرها من العروض والسلع ، التى كان الغرب يعتقد أنها جميعا نتاج الجزيرة العربية ، وكانت الطرق البرية داخل الجزيرة مفضلة نظرا إلى صعوبة الملاحة فى البحر الأحمر الذى لم يلق له السبئيون اهتماما بحريا حيث لم يشكل عندهم مصدرا تجاريا يغرى بترك الهند ـ وكان من أهم الطرق البرية طريقان . طريق تبدأ من مدينة « شبوة » بحضرموت تنتهى إلى غزة على ساحل البحر الأبيض ، وطريق تبدأ من ساحل عمان وتنتهى عند البحر الأحمر ، وبذلك امتلكت سبأ ناصية الأمر على الشاطىء الشرقى للبحرين الأبيض والأحمر . . » (١١) .

---

(١٠) سبأ ١٥

(١١) من مقال بعنوان قصة الايلاف د . على الخطيب ـ مجلة الأزهر ـ رجب ١٤٠٩ هـ جـ ٧ السنة الحادية والستون

ماذا فعل هاشم لتحقيق أمله ؟

نظر هاشم إلى حالة العرب فوجد أمرهم موزعا بين نفوذ الروم من جهة ونفوذ فارس من جهة أخرى . . وهم فيما بينهم قبائل متعددة متنافرة غالبا ، ولكن كلمة الشرف تحكمها فى النهاية . .

ثم نظر إلى اليمن فوجد فيها حكما يكاد يكون مستقرا لولا ماحدث فيه من صراع أدى إلى احتلال الحبشة لليمن بعد حادث الأخدود المشهور ، والذى سبقت الإشارة إليه . .

ونظر كذلك للحبشة فوجد فيها حكومة قوية وأدرك قربها من الجزيرة العربية وحاجة العرب إليها ، ولكن ولاء الحبشة للروم مازال قائما وقويا لمكان الدين الواحد الذى يربط الدولتين وهو المسيحية . . فهناك إذن فارس بنفوذها القوى وسيطرتها على العراق . .

وهناك الروم بنفوذها القوى وسيطرتها على الشام . .

وهناك أيضا الحبشة وهناك اليمن . . وهناك القبائل العربية المتعددة . .

فإذا ما أراد هاشم أن يعقد تآلفا فمن أين يبدأ ؟ وكيف يسير؟

لقد بدأ بالعرب ـ كما يقول د . على الخطيب .

أثار فى العرب نخوة الشرف وعزة القيم ، وكانت له مكانته التى يعرفها الجميع ، وله من سمعته الطيبة وكرمه الفياض ووجهه البشوش وكلمته الطيبة مقومات جعلت زعماء القبائل يتلقون اقتراحه بإقامة إيلاف بين قريش وبين القبائل على طول طريق القوافل بالقبول . .

إنه بذلك يضمن سلامة قوافل قريش التجارية ، فلا يعتدى عليها معتد من أى قبيلة تمر عليها حتى تصل هذه القوافل بأمان إلى مقاصدها ذاهبة أو آيبة . .

كانت هذه القوافل تنتهى شمالا إلى البحر الأبيض المتوسط ، وتنتهى جنوبا إلى عدن حيث البحر الأحمر ، ومنه إلى الحبشة إن أرادت . .
وهاتان هما الرحلتان الرئيسيتان اللتان أشار إليهما القرآن الكريم بقوله : ﴿ رحلة الشتاء والصيف ﴾

وبعد أن اطمأن هاشم إلى وعود الزعماء وكلمة الشرف عهد وميثاق عندهم ـ كما سبق أن أشرنا إلى ذلك ـ أخذ يفكر فى الانتقال بهذا الإيلاف خطوة أوسع .

وهذا هو المنطق الطبيعى ، وإن كان بعض الرواة يذكر أن الاتفاق مع القبائل كان بعد لقائه بقيصر والظفر منه بتأييد الإيلاف ، ولامناقضة على أى حال ، فقد يكون اتفق مع زعماء القبائل أولا ثم زاد الاتفاق توكيدا بعد ذلك . .

بينه وبين الروم

وجد هاشم أن علاقة الروم التجارية بالعرب أقوى وأكبر . . وفى الجزيرة العربية سلع يحتاج اليها الروم كثيرا ، وكان العرب يستوردون من الهند كثيرا من المواد التى تباع فى أسواق الروم عن طريقهم بالاضافة إلى ماينتجه العرب أنفسهم كالعطور التى كان يقبل عليها الروم إقبالا شديدا . .

وأسر هاشم إلى اخوته عبدشمس ونوفل والمطلب برغبته فى لقاء عاهل الروم ومحادثته فى شأن الإيلاف الذى يريد أن يعقده معه ، ورحب الأخوة بالفكرة واستجابوا لها ، ورأوا أنها خطة حكيمة للنهوض بالعرب عامة وقريش خاصة . .

وكان لهاشم صداقات كثيرة فى الشام مع ذوى النفوذ فيها ، اكتسبها بشخصيته المحبوبة وبشاشته المعهودة وأريحيته الواسعة وكرمه الفياض . . وكان له وزنه السياسى فى نظر المسئولين فى الشام وماوراءها فقد كانوا

يدركون قوة نفوذه بين بنى جلدته وزعامته فيهم واحترام كلمته بينهم . إلى جانب المكانة الدينية التى اكتسبها من رعايته للبيت الحرام ورفادته لحجاج بيته وسقايته لهم . .

وكان ساسة الروم ينظرون إلى هذه الأمور نظرة اعتبار ، وكانوا يعرفون منزلة البيت الحرام فى نفوس العرب ومنزلة من يقومون بأمره ، لذلك كانوا يحرصون على توثيق صلتهم بهؤلاء الذين يلون أمر البيت فعن طريقهم يمكنهم الوصول إلى قلب عامة الناس فى أنحاء الجزيرة العربية ، ويسيِّرون مصالحهم . . واستطاع هاشم أن يصل إلى أنقرة مقر أمبراطور الروم . . .

وتمكن بلباقته وكياسته وشخصيته أن يغزو قلبه . . ولنستمع إلى أبى على القالى يحدثنا عن صنيع هاشم الذى غزا به قلب قيصر الروم قال :

كانت قريش تجارا ، وكانت تجارتهم لاتعدو مكة وإنما ترد عليهم الأعاجم بالسلع فيشترونها منهم ثم يتبايعونها بينهم ويبيعونها لمن حولهم من العرب ، فكانوا كذلك حتى ركب هاشم بن عبدمناف إلى الشام فنزل بقيصر ، فكان يذبح كل يوم شاة ويصنع جفنة ثريد ، ويجمع من حوله فيأكلون وكان هاشم من أجمل الناس وأتمهم ، فذكر ذلك لقيصر فقيل له : هاهنا رجل من قريش يهشم الخبز ثم يصب عليه المرق ، ويفرغ عليه اللحم ، وإنما كانت العجم تصب المرق فى الصحاف ثم يأتدمون بالخبز .

فدعا به قيصر ، فلما رآه وكلمه أعجب به ، فكان يبعث إليه كل يوم فيدخل عليه ويحادثه ، فلما رأى نفسه تمكن عنده قال له : أيها الملك إن قومى تجار العرب ، فان رأيت أن تكتب كتابا تؤمِّن تجارتهم فيقدمون عليك بما يستطرف من أدم الحجاز وثيابه فيباع عندكم فهو أرخص عليكم ، فوافق قيصر على ذلك ، واستجاب له . .

فكتب له كتاب أمان لتجارتهم ..

فأقبل هاشم بذلك الكتاب ، فجعل كلما مربحى من العرب بطريق الشام أخذ من أشرافهم إيلافا .

والإيلاف أن يأمنوا عندهم فى أرضهم بغير حلف ، إنما هو أمان الطريق ، وعلى أن قريشا تحمل إليهم بضائع فيكفونهم حملها ، ويؤدون إليهم رؤوس أموالهم وربحهم .

فاصلح هاشم بذلك الإيلاف بينهم وبين أهل الشام ، حتى قدم مكة فأتاهم بأعظم شيء أتوا به بركة ، فخرجوا بتجارة عظيمة وخرج هاشم معهم يوفيهم إيلافهم الذى أخذ لهم من العرب حتى أوردهم الشام وأحلهم قراها .. (١٢) .

لقد كسب هاشم بهذا الإيلاف ـ كما يقول د . على الخطيب ـ القبائل المتاخمة لبيزنطة دون أن يرهقها بعهد تنال به سخط الامبراطور .

وعقد إيلافه مع قبائل الطريق حتى مكة .. وبذلك أمَّن الطريق للتجارة ، وأصبحت كل قبيلة كفيلة بتوفير حاجة القوافل التجارية ، وقد تم هذا التأليف بأمرين :

* أن تحمل قريش اليهم بضائع فيكفونهم السعى إليها .
* أن تحمل عنهم قريش مالديهم من سلع يريدون الاتجار فيها ، ويؤدون إليهم رؤوس أموالهم وربحهم ولاكراء على قبائل الطريق .

واقتضى ذلك أن يشاركه بعض أبناء هذه القبائل العمل ، وبذلك أتاح لهم فرصة لكسب مشروع ، وعمل موفق (١٣) وكان لذلك أثره فى إنعاش

---

(١٢) النوادر لابى على القالى ص ٢٢٢ .

(١٣) راجع قصة الايلاف د . على الخطيب ـ مجلة الأزهر ـ عد ذى القعدة ١٤٠٩ .

اقتصادى لهذه القبائل . رفع عن كاهلها مرارة الفقر وذل الحاجة وقسوة الحرمان . .

وأتاح هذا العمل إلى جانب ذلك استقرار هذه القبائل فى أماكنها ونزوعها إلى السلم ، لأن الرغبة العدوانية إنما يثيرها ـ فى كثير من الأحوال ـ العوز والحرمان .

توسيع فكرة الإيلاف :

ولم يكتف هاشم بذلك الإيلاف الذى حصل عليه من قيصر ، بل طلب من قيصر أن يكتب له كتابا إلى النجاشى يوصيه فيه بتيسير مهمة تجار العرب فى الحبشة .

« فكتب قيصر إلى النجاشى أن يدخل قريشا أرضه »(١٤) .

واستجاب النجاشى لقيصر ، وفتحت الحبشة ذراعيها لتجار قريش وأحسنوا استقبالهم .

والذى حمل رسالة امبراطور الروم إلى النجاشى عبدشمس أخو هاشم .

وطلب هاشم من أخيه نوفل ان يتوجه إلى فارس واستطاع أن ينجح فى مهمته مع أصحاب كسرى ، وحصل من الفرس على إذن يخول لتجار قريش أن يترددوا بقوافلهم إلى العراق وإلى أرض فارس .

وأرسل هاشم أخاه المطلب إلى اليمن فاستطاع أن يحصل من الحميريين على إيلاف يكفل لتجار قريش الاختلاف إلى أرض اليمن آمنين مصدرين ومستوردين وبائعين ومشترين . .

وجبر الله بهؤلاء الأخوة الأربعة هاشم وعبدشمس ونوفل والمطلب كسر قريش فسموا المُجَبِّرين . .

---

(١٤) طبقات ابن سعد حـ ١ قسم ١ ص ٤٥

قال الألوسى : كانت لقريش فى السنة أربع رحلات على ماذكره بعض المفسرين فى سورة قريش ، فان اصحاب الإيلاف كانوا أربعة أخوة ، وهم بنوعبدمناف ، أحدهم هاشم ، وكان يؤالف ملك الشام حيث أخذ منه خيلا فأمن به فى تجارته إلى الشام ، والثانى عبدشمس وكان يؤالف ملك الحبشة ، والثالث المطلب وكان يرحل إلى اليمن ، والرابع نوفل وكان يرحل إلى فارس .

وكان هؤلاء يسمون بالمتجرين - كما سموا أيضا بالمجبرين - ويلتحق تجار قريش بركب هؤلاء الأخوة فلايتعرض لهم أحد ، وفى هؤلاء الأخوة يقول الشاعر :

يـاأيها الـرجـل المحـول رحله هلا نزلت بآلف عبدمنـاف ؟
الآخـذون العهد من آفـاقهـا والراحلون لرحلة الإيلاف [١٥]

وفاة هاشم فى إحدى رحلاته

وتوالت رحلات قريش تحت رئاسة هؤلاء الأخوة حتى انتعشت حالة قريش الاقتصادية وازدهرت ، وازدادت مكانتها ارتفاعا فى نفوس العرب ، وأصبحت مكة إلى جانب مركزها الدينى المرموق مركزا للصيرفة يقوم بما تقوم به البنوك فى عصرنا الحديث ، إذ كان يمكن للتجار أن يدفعوا فيه أثمان السلع التى ترسل إلى بلاد بعيدة كما كانت عملية الشحن والتفريغ تتم فيه ، وكان أيضا يتم فيه التأمين على المتاجر وهى تجتاز الطريق المحفوفة بالمخاطر التى ربما يترتب عليها فساد السلع لوعورة الطريق أو لظروف الجو ، فى أزمنة لم تكن وسائل الحفظ والتعبئة قد تطورت فيه . .

أما المخاطر الأمنية فقد كفلتها نصوص الإيلاف ، فلم يعد هناك قطاع طرق ينهبون التجار كما كان الحال قبل عقد هذا الإيلاف . .

---

(١٥) المختار من بلوغ الارب للألوسى ص ٢١٣

يقول القالى : واتسعت قريش فى التجارة فى الجاهلية وكثرت أموالها ، فبنو عبدمناف أعظم قريش على قريش منة فى الجاهلية والاسلام (١٦) .

وخرج هاشم فى عير لقريش فيها تجارات . . وكان طريقهم إلى الشام يمر على المدينة ، فنزلوا بسوق النبط فصادفوا سوقا تقوم بها فى السنة . . يحشدون لها ، فباعوا واشتروا ، ونظروا إلى امرأة على موضع مشرف من السوق تأمر بما يشترى ويباع لها ، فرآها هاشم حازمة جَلِدَة مع جَمال ، فسأل عنها : أأيم هى أم ذات زوج ؟ فقيل له : أيم ، ولكنها لاتنكح الرجال لشرفها فى قومها حتى يشرطوا لها أن أمرها بيدها ، فإذا كرهت رجلا فارقته . وهى سلمى بنت عمرو بن زيد من بنى النجار .

فخطبها هاشم ، فعرفت شرفه ونسبه فزوجته نفسها ، ودخل بها .

وصنع طعاما ودعا من معه ودعا رجالا من الخزرج ، وأقام بأصحابه أياما ، وعلقت سلمى من هاشم بابنها شيبة الحمد الذى يطلق عليه « عبدالمطلب بن هاشم » .

واستأنف هاشم رحلته مع أصحابه فى طريقهم إلى الشام ـ كعادته ـ حتى اذا كان بغزة اشتكى فلم يلبث أن مات ودفن هناك ، وقبره بها ظاهر ، وعاد أصحابه بتركته إلى ولده . . ثم مات أخوة هاشم الثلاثة بعد ذلك . .

فقد خرج أخوه المطلب وهو أكبر أولاد مناف إلى اليمن فى إحدى رحلاته ، وكان يسمى الفيض لكرمه وأريحيته فمات « بردمان » باليمن .

وخرج عبدشمس إلى الحبشة كعادته وعاد فمات بعد عودته ودفن بالحجون .

أما نوفل وهو أصغر اخوته فقد ذهب إلى العراق فى احدى رحلاته فمات بسلمان . .

وانطوت صفحة هؤلاء الأخوة الذين أقاموا لقريش مجدا خلّده القرآن بما صنعوه من إيلاف .

معنى الإيلاف

يقول المفسرون فى معنى الإيلاف إنه الإجارة ، فمعنى يؤلف يجير ، وكان

---

(١٦) النوادر ص ٢٢٣

هؤلاء الأخوة يسمون بالمجيرين ذلك أنهم كانوا إذا خرجوا فى رحلة ضمنوا السلامة لمن فيها ، فى حين أن الرحلات التى لايكونون فيها ربما تعرضت للاغارة إلا إذا اتصلوا بحبل هؤلاء الأخوة . .

وقال الأزهرى - فيما يرويه القرطبى فى تفسيره : الإيلاف شبه الاجارة بالخفارة يقال : آلف يؤلف إذا أجار الحمائل بالخفارة ، والحمائل جمع حَمولة - بفتح الحاء - والتأويل أن قريشا كانوا سكان الحرم ولم يكن لهم زرع ولاضرع ، وكانوا يسيرون فى الشتاء والصيف آمنين ويتخطف الناس من حولهم ، فاذا عرض لهم عارض قالوا : نحن أهل حرم الله ، فلا يتعرض الناس لهم .

وروى القرطبى فى معنى الإيلاف قصة غير ذلك الذى ذكرناه من سعى هاشم واخوته فى عقد الإيلاف مع الدول والقبائل المجاورة . قال فى خبر مسند إلى ابن عباس - رضى الله عنهما :

كانت قريش إذا أصابت واحدا منهم مخمصة - مجاعة - جرى هو وعياله إلى موضع معروف فضربوا على أنفسهم خباء فماتوا جوعا . حتى كان عمرو بن عبدمناف ، وكان سيدا فى زمانه وله ابن يقال له أسد ، وكان لابنه هذا تِرْب - مماثل فى السن - من بنى مخزوم يحبه ويلعب معه ، فقال له المخزومى : نحن غدا نعتفر [١٧] يعنى أنهم سيدخلون الخباء فيموتون واحدا اثر آخر .

فدخل أسد على أمه يبكى فسألته عن بكائه ، فقال لها : ما أخبره به صاحبه - فأرسلت أم أسد إلى هؤلاء بشحم ودقيق فعاشوا به أياما . . فلما نفد هذا الطعام جاء المخزومى صديق أسد إليه وقال له : نحن غدا نعتفر .

فدخل أسد على أبيه باكيا وخبره الخبر .

فاشتد ذلك على عمرو بن عبدمناف - ولعلنا لاننسى أن عمرا هذا هو هاشم بن عبدمناف نفسه .

فقام عمرو خطيبا فى قومه قريش ، وكانوا يطيعون أمره ، فقال إنكم أحدثتم حدثا تقلون بسببه وتكثر العرب ، وتذلون وتعز العرب ، وأنتم أهل حرم الله عز وجل - وأشرف ولد آدم والناس لكم تبع ويكاد هذا الاعتفار يأتى عليكم . .

فقالوا له : نحن لك تبع . فقال لهم : ابتدئوا بهذا الرجل - يعنى ذلك الرجل الذى رفع ابنه إليه قصته - فاغنوه عن الاعتفار ففعلوا .

---

(١٧) الاعتفار ومثله الاعتفاد أن يغلق الرجل بابه على نفسه فلا يسأل أحدا حتى يموت جوعا .

ثم إنه نحر البدن وذبح الكباش والمعز ، ثم هشم الثريد وأطعم الناس .

ثم جمع بين كل بنى أب على رحلتين فى الشتاء إلى اليمن ، وفى الصيف إلى الشام للتجارات ، فما ربح الغنى قسمه بينه وبين الفقير حتى صار فقيرهم كغنيهم فجاء الإسلام وهم على هذا ، فلم يكن فى العرب بنو أب أكثر مالا ولا أعز من قريش ، وهذا مايشير إليه الشاعر بقوله :

الخالطون فقيرهم بغنيهم ... حتى يصير فقيرهم كالكافى (١٨)

وقد قرئت لفظة الإيلاف ـ بدون ياء ـ كما قرئت « إلْف » .

قال ابن منظور راويا عن أبى اسحاق : فى لفظة إيلاف ثلاثة أوجه : لإيلاف ، ولإلاف ، ووجه ثالث لإلف قريش .

وأضاف إلى المعانى السابقة فى الإيلاف قوله : إنه بمعنى يهيؤون ويجهزون ومن معانى الإلاف الأمان يقال إلاف الله أى أمان الله (١٩) .

مناسبة السورة

قال بعض المفسرين : إن هذه السورة أى سورة قريش متعلقة بما قبلها أى بسورة الفيل ، فكأن الله تعالى أراد أن يقول لقريش : من أجل إيلافهم أهلك الفيل . .

فإهلاك الفيل كان سببا فى إيلافهم أو اتفاقهم أو أمانهم الذى يترتب عليه تنظيم رحلاتهم وتسيير تجارتهم والذى يرشح هذا المعنى قول سفيان بن عيينة ـ فيما يرويه القرطبى عنه ـ كان لنا إمام لايفصل بين السورتين فى القراءة بل يقرؤهما معا ، وقال عمرو بن ميمون الأودى :

صلينا المغرب خلف عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فقرأ فى الأولى « والتين والزيتون » وفى الثانية « ألم ترك كيف ولايلاف قريش » ـ أى بدون فصل ببسملة .

ونقل عن الفراء قوله : هذه السورة متصلة بالسورة الأولى لأنه ـ سبحانه ـ ذكّر أهل مكة عظيم نعمته عليهم فيما فعل بالحبشة ، ثم قال : لإيلاف قريش ، أى فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمة منا على قريش ، وذلك أن قريشا كانت تخرج فى تجارتها ، فلا يُغار عليها ولاتُقْرب يقولون : هم أهل بيت الله جل وعز ، حتى

---

(١٨) تفسير القرطبى ـ سورة قريش ـ ص ٧٢٩٤ ـ ط دار الشعب .

(١٩) لسان العرب حـ ١ ص ١٠٨

جاء صاحب الفيل ليهدم الكعبة ويأخذ حجارتها فيبني بها بيتا في اليمن يحج الناس إليه فأهلكهم الله عز وجل ، فذكّرهم الله نعمته . .

ولكن ابن كثير في تفسيره يقول : إنها مفصولة عما قبلها ـ وهذا هو المشهور وإن كانت متعلقة بما قبلها في المعنى . فذلك لايعني وصلها بها في التدوين ـ والمصحف الامام الذى سار الناس عليه وتوارثوه دُوِّنت فيه السورة مفصولة عما قبلها بالبسملة .

وقد ذكر القرطبي مناسبة أخرى في نزول السورة قال :

لقد استجاب الله دعوة إبراهيم ـ عليه السلام ـ في قوله :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾ (٢٠)

اذ كان العرب يُغِير بعضهم على بعض إلا قريشا أمنت من ذلك لمكان الحرم وقال الله في ذلك

﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (٢١)

فذكرهم الله بذلك ودعاهم إلى عبادته وحده وعدم الإشراك به حمدا لهذه النعمة التي كفلها لهم دون العرب .

وقيل : إن قريشا شق عليهم سفر الشتاء والصيف وتعرضوا بسبب ذلك لمجاعة فألقى الله في قلوب الحبشة أن يحملوا إليهم طعاما في السفن ، فحملوه ، ولكن قريشا خافت منهم ، وظنت أنهم إنما أقبلوا لحربهم ، فخرجت إليهم متحرزةمسلحة ، فإذا بهم قد جلبوا إليهم الطعام وأعانوهم بالأقوات . فكان أهل مكة يخرجون إلى جدة بالحمر والإبل فيشترون الطعام على مسيرة ليلتين . .

وقيل : إن الله استجاب فيهم دعوة نبينا عليه السلام حين اشتدوا عليه في الإيذاء فقال : اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف ، فاشتد عليهم القحط ،

---

(٢٠) البقرة ١٢٦

(٢١) القصص ٥٧

فقالوا : يامحمد ادع لنا ربك فانا مؤمنون . فدعا ، فأخصبت « تبالة وجرش » من بلاد اليمن فحملوا الطعام إلى مكة وأخصب أهلها [٢٢] .

وذكر الواحدى فى أسباب النزول عن أم هانىء بنت أبى طالب قالت : قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم : « إن الله فضل قريشا بسبع خصال لم يعطها قبلهم أحدا ، ولايعطيها أحدا بعدهم , ان الخلافة فيهم والحجابة فيهم ، وان السقاية فيهم ، وان النبوة فيهم ، ونصروا على الفيل وعبدوا الله سبع سنين لم يعبده أحد غيرهم ـ وذلك قبل أن ينتقل الاسلام إلى غيرهم من القبائل ـ ونزلت فيهم سورة لم يذكر فيها أحد غيرهم : لإيلاف قريش » [٢٣] .

العبرة من هذه القصـــة

تشير السورة ـ التى اتخذتها الدول الحديثة شعارا ـ إلى أهم ماتهدف إليه الحكومات نحو شعوبها من توفير الغذاء والأمن . . ويبذل القائمون على أمر الشعوب فى سبيل ذلك جهودا جبارة منها المستساغ وغير المستساغ . . لقد كفل الله ذلك لقريش فضلا منه ونعمة ، إكراما لبيته الحرام وتكريما لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى اصطفاه من قريش . .

وفضل قريش فضل مشهور يشير إليه الحديث الشريف الذى رواه واثله بن الأسقع : إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل واصطفى من بنى كنانة قريشا واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم [٢٤] .

والدولة التى تملك أسباب رزقها وأمنها تحيا سعيدة منعمة ، لاتخضع لتخويف أو إرهاب ، ولاتقع تحت سطوة التجويع والقهر ، أما الدولة التى لاتملك رزقها ولاتصنع أسباب أمنها فإنها تعيش ذليلة خائفة ، ليس لها رأى مستقل ولاكلمة نافذة ولا جانب مرهوب ، وصدق الشيخ الشعراوى فى قوله : لايكون الشعب محترما إلا إذا كان رأيه من رأسه وطعامه من فأسه .

وقد وضع الله منهجا تستطيع الدول ـ إذا أرادت ـ أن تملك به زمام أمنها وتحقق به رغد حياتها . ذلك المنهج يتمثل فى الأخذ بما أمر الله به ، والكف عما نهى عنه وقد ذكر ذلك صراحة فى مواضع عدة من كتابه الكريم . فهو يقول :

---

(٢٢) تفسير القرطبى

(٢٣) أسباب النزول للواحدى صـ ٣٤٢

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (٢٥)

وذكرنا بحال أمة أعرضت عن كتاب الله ومنهجه فأبدلها من العز ذلا ومن الأمن خوفا ومن الرخاء جوعا وفقرا قال :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ (٢٦)

لقد نجح الاستعمار فى تحويل بعض الشعوب الاسلامية إلى شراذم تابعة جائعة خائفة تنتظر الصدقات وتتلهف على المعونات ، وتريق دماء وجهها فى طلب القروض والمساعدات .

ولم ينجح الاستعمار فى ذلك إلا بعد أن ابتعد هؤلاء عن دينهم وأداروا له ظهورهم ، فسلط الله عليهم عدوهم الذى استنزف خيراتهم واستغل ثرواتهم واستولى على إمكاناتهم وسخرهم فيها . التعب لهم والخير له . . وكم من موارد تدر الرزق والخير استطاع الغرباء أن ينتفعوا بزبدتها ويستفيدوا منها ، ولم يتركوا لأصحابها إلا أقل القليل الذى لا يسمن ولا يغنى من جوع .

ولنا أن نتساءل : كيف يعيش هؤلاء الذين يستغلون الشعوب النامية فى رخاء شعوبهم مع ابتعادهم عن منهج الله ؟ وهم والشعوب المستضعفة سواء فى ذلك ؟ فلِمَ يسعد أولئك ويشقى هؤلاء ؟

وربما كانت الإجابة متمثلة فى أن كلا من المستغِل والمستغَل بعيد عن الله فالغلبة مكفولة للأقوى منها مادة وفكرا وتنظيما . . وغلبة القوى إلى أجل محدود وسيأتى زمن يتسلط عليه من هو أقوى منه . . لأن غلبته لغيره ليست محروسة من السماء بل هى بأسباب رتبها ليحقق من ورائها مغنما ماديا وغاية دنيوية . . وإن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، وقد ورد فى بعض الآثار : الظالم سيف

---

(٢٤) أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما

(٢٥) الأعراف ٩٦

(٢٦) النحل ١١٢

الله فى الأرض ينتقم به ثم ينتقم منه . ويمكن أن يرد ايضا بأن غلبة هؤلاء غلبة موقوتة لن تدوم مصداقا لقوله تعالى :

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾ (٢٧)

فإذا أراد المسلمون أن يحققوا أمنهم الغذائى وأمنهم العسكرى وأمنهم الوقائى فعليهم ان يعودوا إلى منهج الله لأن الله يقول لهم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ (٢٨)

إن مايثير العجب حقا أن تكون الأسباب مكفولة ولكن الناس يحرمون ثمرة الانتفاع بها فقد توجد الخصوبة والماء والقوى البشرية ، ولكن البصائر تُحجَب عن استغلال ذلك للمصلحة العامة فلا يزرع الناس من الحبوب مايكفل حاجة البلاد بل يفكرون فى الاستيراد .

والمورد يفرض عليهم الأسعار ولايعطيهم إلا بمقدار فتصبح أزمتهم من عند أنفسهم ويدخلون فى قبضة المستغل بالاختيار لابالاضطرار . أليس ذلك دليلا على عمى البصيرة ؟ وصدق الحق سبحانه وتعالى الذى يقول

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (٢٩)

وإنه لمن دلائل التوفيق أن يمن الله على الناس بنعمة الهداية حتى يعودوا الى منهج الله وكتاب الله ، يجدون فيه الشفاء من كل داء ، والاطمئنان من كل حيرة ، والأمن من كل خوف ، والسلامة من كل عطب

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (٣٠)

---

(٢٧) آل عمران ١٩٦ ، ١٩٧

(٢٨) محمد ٧

(٢٩) الحج ٤٦

(٣٠) الانعام ١٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم
فهرس المجلد الخامس



صواب الخطأ

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
ذى القرنين	ذو القرنين	١٤٠	قبل الأخير
ذى القرنين	ذو القرنين	١٤٠	الأخير